طريق فلاندرا

كلود سيمون

ترجمة
باسيل قوزي

دار المأمون

طريق فلاندرا



دار المأمون

طريق فلاندرا

تأليف

كلود سيمون

ترجمة

باسيل قوزي

دار المأمون للترجمة والنشر

La route des Flandres

Claude Simon

طريق فلاندرا

كلود سيمون

دار المأمون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والاعلام

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد (٧٣٤) لسنة ١٩٨٧
توجه المراسلات الى:
دار المأمون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والاعلام
بغداد - الجمهورية العراقية
ص. ب: ٨٠١٨
تلكس: ٢١٢٩٨٤
طبع بمطابع الدار العربية - بغداد
مترجم من الفرنسية

مقدمة المترجم

كلود سيمون اديب فرنسي ولد عام ١٩١٣ في تانانا ريف بمدغشقر. وقع اسيراً في ايدي القوات الالمانية ، ابان الحرب العالمية الثانية هرب من السجن بشجاعة وأنجز روايته الاولى (الغشاش) سنة ١٩٤٦ اعقبتها عشر اخر. يمكن تصنيف رواياته في ثلاث فئات . الفئة الاولى انجزكتابتها قبل الحرب العالمية الثانية ، وتندرج فيها روايتا «كوليفر» و «الريح» . ثم اعقبتها الفئة الثانية التي تعالج الحرب الاهلية الاسبانية ، وتندرج فيها روايات «تتويج الربيع» و «البلاط» و «الفلاحيات» التي تتخللها تجاربه الشخصية . واخيراً تأتي الفئة الثالثة التي هي عبارة عن يومياته العائلية ، هو الفلاح المنحدر من طبقة صغار النبلاء في منطقة روسيون بفرنسا من جهة والدته . تدخل في هذه الفئة رواية «بطاقة سفر» التي يلمح فيها الى فترة مراهقته ورواية «العشب» التي يذكر فيها صفقة بيع احد ممتلكات اجداده ، والرواية التي هي عنوان «قصة» حازت جائزة ميديسيس للادب عام ١٩٦٧ ورواية «الأجسام الموصلة للحرارة» ورواية «طريق فلاندرا» التي هي عبارة عن مجموعة من التجارب الشخصية التي خاضها جندي في الحرب العالمية الثانية .

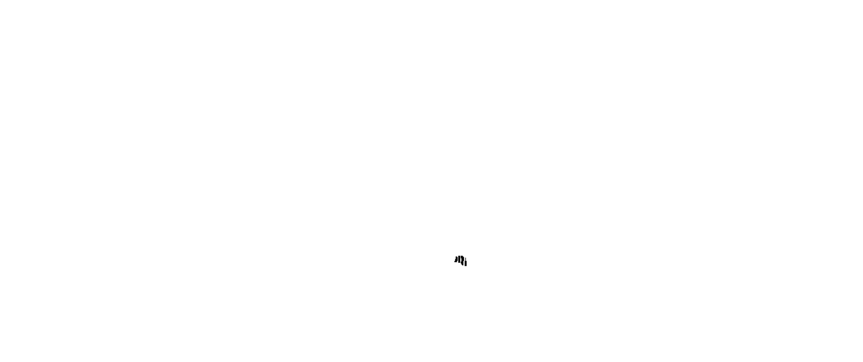
بعد ان تلقى دروسه في باريس واوكسفورد وكامبريج اكثر من الترحال ، حتى استقربه المقام في جنوبي فرنسا . حدد في روايته «الريح» اهدافه وهي تحدي التجزئة في عصره واعادة اكتشاف هيمنة الاشياء والناس . وقد عالج انهيار فرنسا في الحرب العالمية الثانية في عدة روايات منها رواية «طريق فلاندرا» هذه التي تعد اهم رواياته التي ترجمت الى لغات عدة . حاز جائزة نوبل للادب لعام ١٩٨٥ وذلك لضخامة اعماله الادبية واسلوبه المتميز في ادب الرواية ، اذ يخرج عن تقاليد الرواية الكلاسيكية . يحاول الكاتب في هذا الاسلوب ان يكشف لنا حقيقة تتصف بأنها غير واقعية وغير متماسكة . ويظهر جلياً من كتاباته تسلط فكرتين على مخيلته هما انعدام الاستمرارية في الانفعالات التي قلما يرتبط فيها الواحد بالاخر من ناحية والاستمرارية من ناحية اخرى مما يستدعي جهداً لبناء الزمن الذي تتسم به الرواية الكلاسيكية . فالزمن عنده غامض كأنه شبح للزمن الحقيقي ، فيه يتطابق الحاضر والماضي . اما الجملة عنده فتتطلب استقصاءً خاصاً من القارئ لطولها ، اذ يتجاوز عدد كلماتها احياناً الالف ، ولتقطعها بسبب اكثاره من الاقواس والجمل الاعتراضية التي توقف القارئ على تفاصيل بالغة الدقة وعلى تحليلات نفسية مبتورة . فالجملة الوصفية عنده توحي بأن العلاقة بين الوعي والحقيقة معقدة تعقيدا بالغاً . ولكن مع كل هذا ، تبقى روايات كلود سيمون ممتعة القراءة .

في طريق فلاندرا يتقدم كلود سيمون كفارس لايشكل مع جواده سوى كائن واحد وكأن قوة طبيعية تدفعها واحدة الى قدرهما العظيم الذي يأباه العقل الا وهو الموت وسط هجوم يشارك فيه مصلتاً سيفه البراق بوجه الدبابات المعادية . وكأني باسلوبه ، وسط كبكبة من الفرسان يندفع الى رومانسية يكاد ، التاريخ فيها يتدفق جارفاً في طريقه كل شيء : ذكريات وخيالات وأطيافاً .

فعندما نقرؤه نشعر بعنفه الروائي الذي هو اشبه باعصار هادر يعصف بعواطفنا وخيالاتنا عصفاً لايضاهيه فيه احد .

سرعان ما ايقظ سيمون قراء متحمسين في كل اصقاع الارض.لان رواياته طبعت في اكثر من سبعة عشر بلداً . وذهب الامر ببعض هؤلاء القراء الى تقمص شخصيته في الكتابة ومحاكاة اسلوبه . فقد نشر الكاتب بنوا بيترز ، قبل سبع عشرة سنة رواية صغيرة بعنوان «باص» جاء الاسلوب فيها مطابقاً للاسلوب السيموني

وكان بطل الرواية يدعى ، بالصدفة ، كلود سيمون وهو كاتب كبير ولكنه مختل العقل مدمن على الكحول ويتصور نفسه انه على وشك ان يحوز جائزة نوبل . وان كلود سيمون الحقيقي الذي لم تخطر على باله فكرة الجائزة في حينه ، بكل تأكيد هو الذي كتب مقدمة الرواية المذكورة وهو يبتسم .



(كنت اظن انني اتعلم ان اعيش ولكني كنت اتعلم ان أموت)

ليونارد دافنشي

كان يحمل رسالة بيده عندما رفع عينيه وحدق اليّ ، ثم حدق الى الرسالة والي ثانية . كنت استطيع ان ارى وراءه البقع الصهباء الصفر التي تكسو جلود الخيول وهي في طريقها الى المورد ، كان الطين من العمق حتى اننا كنا نغوص فيه الى العرقوب ولكني تذكرت ان الانجماد كان قد انتشر فجأة في كل مكان اناء الليل . دخل واك الغرفة حاملاً فنجان القهوة فقال : «لقد اكلت الكلاب الوحل» . لم يسبق لي ان اسمعت هذه العبارة قط . يبدو لي ان واك يرى في الكلاب تلك المخلوقات الجهنمية الخرافية بافواهها المؤطرة باللحم الوردي وبأسنانها الباردة البيضاء الشبيهة بأسنان الذئاب التي تلوك الطين الاسود في دجى الليل ، وكأني بها ذكرى انتفضت في خياله ، فأخذ يرى فيها الكلاب تلتهم وتزدرد كل شيْ غير مستبقية شيئاً . ولكن الطين اصبح الان رصاصياً أما نحن ، فقد كنا كما اعتدنا ، نهرول متباطئين متثاقلين متأخرين عن نداء بوق الصباح ، محترزين من إلقاء عراقيب أقدامنا في آثار قوائم الجياد العميقة التي تصلبت فباتت كالحجر . وبعد لحظة قال : كتبت الي امك . وقد فعلت ذلك على الرغم من تمنعي . «ما ان سمعت هذا حتى اخذت اشعر بالدم الاحمر يصعد الى وجهي» . غير انه قطع حديثه محاولاً ان يتكلف الابتسامة . لاريب في أنه كان يتعذر عليه لا أن يكون محبوباً حسب – فقد كان يحرص على ان يحبه الناس – بل يزيل المسافة التي تفصل بينه وبين الناس . جل مافعله انه مسح شاربه الخفيف القاسي الذي يشبه لونه خليطاً من الملح والفلفل . كانت بشرة وجهه تشبه بشرة ذلك القبيل من الناس الذين يعيشون سحابة حياتهم في الهواء الطلق ، بشرة كامدة

كأنها من رواسب احد اولئك الذين افلتوا من يد شارب مارتل او ربما كان يدعي الانحدار مباشرة من العذراء شأنه في ذلك شأن ابناء عمه نبلاء منطقة تارن او من الرسول الكريم نفسه. وقال: «اعتقد اننا ابناء عم واحد وسليلا ارومة واحدة». غير أن عبارة ابني عم كانت تعني في نظره بالأحرى مايشبه البعوض أو الحشرة او الذباب. ثم احسست ان الدم عاد فصعد الى وجهي غضباً، تماماً مثلما كان احساسي عندما لمحت هذه الرسالة بين يديه وشخصتها.

لم ارد عليه، ولابد انه لاحظني والغيظ قد اخذ مني كل مأخذ. لم أكن ارنو اليه وانما الى الرسالة. فقد كنت اود ان انتزعها وامزقها تمزيقاً. ثم حرك يده التي كان يحمل بها الرسالة مطوية حركة خفيفة، فرفرفت زواياها في الهواء البارد كأجنحة الطير، اما عيناه السوداوان فقد كانتا لاتنمان عن عداء او احتقار، وانما كانتا تجسدان المودة والنفور في آن واحد: فلربما كان هو ايضاً ممتعضاً مثلي ومدركاً هذا فيما كنا نواصل حفلتنا الاجتماعية هذه ونحن غائصان هناك في الطين المتجمد نقدم التنازلات المتبادلة ونراعي حرمة التقاليد والاصول من أجل امرأة هي لسوء حظي امي، ولكنه فهم اخيراً ودون شك لان شاربه الصغير تحرك ثانية عندما قال «لاتحقد عليها». من الطبيعي جداً ان تكون الام... نعم ما فعلت، فمن ناحيتي انا مسرور جداً ان تتاح لي الفرصة.... فاذا احتجت يوماً الي.... اما انا فقلت له: «شكراً ياسيدي النقيب». فقال لي: «اذا وقعت في اية مشكلة فلا تتردد في ان تأتي لمواجهتي»فقلت: «نعم سيدي». ثم عاد فحرك الرسالة وقد كانت درجة الحرارة وقتئذ سبعاً تحت الصفر أو عشراً عند الغلس ولكنه لم يكن يبدو انه يعرف ذلك. بعد ان ارتوت الخيول من المورد، انطلقت خبباً، اثنين اثنين والرجال يركضون بينها، مطلقين التجاديف وراءها، وهم يلحقونها متسلين بالتشبث بشكائمها. كنا نسمع وقع حوافرها على الطين المتجمد فيما كان واك يردد قائلاً: «اذا وقعت في اية مشكلة فسأكون في غاية السعادة

لان ...» ثم عاد فطوى الرسالة ووضعها في جيبه موجهاً الي ثانية ابتسامة متصنعة كاذبة ، وهو يجر شاربه الفضي المفلفل ذات الشمال ، ثم ادار عقبيه وفيما بعد ، اخذ اهتمامي بالامر يقل اكثر من ذي قبل ، فقد يسرت الامر الى اقصى الحدود ، عندما حللت سيور الركاب ، وترجلت عن جوادي ، فاكأً زمامه ، عندما قطعت عنه الماء مرة او مرتين ، ثم هممت بفك الشكيمة عنه دفعة واحدة غامساً كل شيء في الحوض بعد ان كف عن الشرب . واذا به يدخل الاصطبل من تلقاء نفسه ، فيما كنت أماشيه متأهباً للامساك بأحدى اذنيه . ولم يبق لي بعدئذ سوى ان امسح القطع المعدنية لصهوته بخرقة . وبين الفينة والفينة ، كنت ألمعها بورق الصقل ، عندما كان الصدأ يلوثها . ولكن هذا لم يكن ليغير شيئاً مني لان سمعتي في هذه النقطة كانت موصومة منذ زمن طويل . وكانوا قد كفوا عن ازعاجي . واعتقد انه بقدر تعلق الامر به ، فانه لم يكن ليعير ذلك اهتماماً ، كما ان تظاهره بأنه لايراني عندما كان يفتش الجحفل ، انما كان من باب الاحترام الذي يكنه لوالدتي ، وهو احترام لايكلفه شيئاً ، اللهم الا اذا كان التلميع في نظره واحداً من تلك الامور التافهة التي لابد منها ، او تلك الانعكاسات الآلية والتقاليد المتوارثة القديمة المحفوظة ، كما لو في ماء مملح تقاليد ازدادت رسوخاً فيما بعد ، على الرغم مما كان الناس يحكونه عنها (اي المرأة او قل الولد الذي تزوجه او بالاحرى الذي هو تزوجه) الا انها كانت قد اخذت على عاتقها ، خلال اربع سنوات من الزواج فقط ، ان تنسيه او على ، اية حال ، ان تنبذ بعضاً من هذه التقاليد المألوفة – سواء اعجبه ذلك ام لا – ولكن حتى لو سلمنا بأنه نبذ شيئاً منها (ربما لا راغباً ولكن راهباً وان شئتم مدفوعاً بقوة الرغبة او ان شئتم مرغماً بالرغبة) فهناك امور يستحيل على اقوى انواع الخذلان والنبذ أن تنسي الناس اياها ، حتى لوشاء الناس ذلك ، وتكون هذه الامور عموماً من اقوى ضروب المحال والتفاهة ، امور لاصدى لها ولا انطلاق مثل الانعكاس الغريزي الذي

حصل لاحدهم عندما استل سيفه ، اذ اخترقت الرصاصة انفه وهو خلف السياج : فقد استطعت ان اراه ذات لحظة ، رافعاً ذراعه ملوحاً بذلك السلاح الذي لاجدوى من ورائه ، بحركة وراثية كأنها حركة تمثال فارس يمتطي جواداً ، حركة ربما انتقلت اليه من اجيال اجداده المحاربين ، او كأنها حركة شبح مظلم يقابل نوراً قوياً يزيل عنه الالوان ، كما لو كان هو وحصانه مسبوكين معاً في مادة واحدة ، أو كأنهما من الرصاص ، والشمس تنعكس لحظة على نصل سيف عار واذا بهذا الكائن المتكون من الانسان والحصان ينهار دفعة واحدة من احد جانبيه ، كفارس من رصاص يمتطي جواداً من رصاص يأخذ في الانصهار ، بدأ من اقدامه ينحني ببطء في اول الامر يتسارع في السقوط على منكبيه متلاشياً والسيف ما يزال في احدى قبضتيه ، خلف هيكل هذه الشاحنة المحترقة المتهاوية هناك القذرة كحيوان ككلبة منتفخة تسحب بطنها على الارض ، واطاراتها الممزقة تحترق ببطء مطلقة رائحة المطاط المشتعل الكريهة ، رائحة الحرب الكثيفة ، في عصر نهار ربيعي رائع. تلك الرائحة الطافية او بالاحرى الراكدة اللزجة الشفافة لابل المرئية كماء آسن ربما سبحت فيه بيوت من الآجر الاحمر والرياض والاسيجة : وان هي الالحظة حتى كنت ترى انعكاس الشمس الباهر معلقاً أو الاصح مكثفاً كأني به اقتنص او اجتذب خلال جزء من الثانية كل الضياء وكل المجد الى الحديد البرئ... برئ ولكن هيهات ، فقد مضى زمن طويل على فقدانه براءته ولكني اتصور انه لم يكن هذا ماكان يطلبه وينتظره منها يوم عقد العزم على الاقتران بها مدركاً دون شك حتى الادراك لحظتئذ ، ماكان ينتظره لانه سبق ان قبل وان استنفد وأخذ على عاتقه ، ان صح التعبير ، هذا الغرام مع فارق ان مكان المذبح ومركزه لم يكونا تلة جرداء ، ولكن طية اللحم الخفية تلك العذبة الطرية المعشوشبة التي تبعث الدوار.... اجل لقد صلب وخاض آلام النزع على المذبح وفمه .... وعرينه ... ولكن بعد كل هذا ، ألم

تكن هي مومساً ، أو ألم تكن نساء نائحات يندبن ويلوين اذرعهن ، هذا اذا افترضنا جدلاً انه طلب منها أن تتوب يوما في الاقل توقع الناس منها ان تفعل ذلك او ان تصبح شيئاً اخر يختلف عما يعرفه عنها الناس من سمعة . لعلهم توقعوا اذن من هذا الزواج شيئاً اخر يختلف عما ينتج عنه منطقياً وربما توقعوا ايضاً او ربما تصوروا في الاقل هذه النتيجة النهائية او الاحرى هذا الاستنتاج ، اعني به الانتحار الذي اتاحت لها الحرب فرصة ارتكابه ارتكاباً انيقاً ، واقصد بهذه الصفة ان الانتحار لم يكن ميلودراميا مثيراً للمشاعر أو قذراً كانتحار الخادمات اللائي يرمين بأنفسهن تحت عجلات المترو أو كالصيارفة الذين يوسخون مكتبهم كله ويبقى المكتب مع ذلك مرتدياً زي حادثة مروعة هذا اذا استطعنا ان نعد مقتل انسان في الحرب حادثة مروعة ، مغتنمين خفية وبشكل أو بآخر ، الفرصة المتاحة لنا لكي نقضي قضاءً مبرماً على مالم يكن واجباً ان يبدأ قبل أربع سنوات..

لقد فهمت هذا. وفهمت ان كل ما كان ينشده هذا الفارس قبل وقت قصير كان ان ينزل من جواده ، وليس فقط عندما رأيته راسياً هناك على صهوة جواده الواقف ، وهو يعترض وسط الطريق ، حتى دون ان يكلف نفسه ، أو ان يتظاهر بتكليف نفسه عناء النزوح بحصانه الى تحت شجرة التفاح القريبة ، هذا الملازم القزم الاحمق الذي يظن نفسه مجبراً على محاكاته ، متخيلاً ، دون شك ، انه القمة في الاناقة والبراعة والظرافة ، هو الضابط الخيّال ، وقد يخامره الشك بشأن الاسباب الحقيقية التي كانت تدفع الاخر الى ان يفعل هذا ، اعني ان الامر لم يكن يتعلق بالشرف ولا بالشجاعة ، وبدرجة اقل بالاناقة ، انما كان يتعلق بقضية شخصية حسب ، ولم تكن هذه القضية قائمة بينه وبينها ، ولكن بينه وبينه . كان بمستطاعي ان اقول له ذلك . وكان باستطاعة ايجليزيا ايضاً ان يقول له افضل مني . ولكن ما جدوى القول ؟ . يخيل اليّ لابد انه كان مقتنعاً

بقيامه بعمل يثير الدهشة . ثم لماذا هديناه عن ضلاله ، لاسيما انه بهذه الطريقة كان يموت في الاقل مسروراً ، بل مغتبطاً ، مائلا الى جانب ... أو مثل شخصية تشبه دي ريكساك . كان اذن من الافضل ان يؤمن او حتى ان يكون غبياً والا يتساءل عما يجري خلف هذا الوجه المنزعج قليلاً وقد عيل صبره من الانتظار مقدماً لنا ، او بالاحرى مقدماً لنا طبقاً لقانون الخدمة في الريف ، أو طبقاً للاحكام المنصوص عليها في حالة وقوع هجوم بطائرة حربية تحلق على مستوى منخفض وتقصف ماتحتها ، مقدماً لنا تنازل الانتظار حتى تنأى الطائرة ونخرج من ملجئنا . واذ التفت قليلاً الى سرجه وقد عيل صبره، ولكنه استطاع احتواء هيجانه الداخلي ، ارانا وجهه ذلك الوجه الذي لاتخترقه عين ، وجهاً خالياً من التعابير ولم يكن ينتظر منا سوى ان نمتطي جيادنا ، بينما كانت الطائرات تتوارى في الافق القصي . ثم ما ان امتطينا صهوات جيادنا حتى انطلق بحصانه بعزم خاطف ، ضاغطاً على جانبي بطن الحصان برجليه وكان الحصان ، على مايبدو يندفع تلقائياً ولكن بخطى غير متسرعة غير متباطئة غير متوانية بخطى طبيعية تماماً . واظن انه لم يكن ليمر خبباً حتى لو منحوه ابريز العالم كله ، وانه لم يكن ليضرب بالمهماز مرة واحدة ولم يكن ليتخلى عن مكانه حتى لو وجهت اليه قذيفة مدفع ، وهذه عبارة لابد من اثباتها هنا ، لان في الدنيا عبارات كهذه، تنقض كالصقر . بخطى طبيعية هي لعمري فكرة كانت تشكل جزءاً مما فعله وقرره قبل اربع سنوات . كان يوشك ان ينهي او الاحرى يحاول ان ينهي ما كان فيه ، متقدماً بهدوء غير هياب (كما انه ، على حد ما كان يقوله ايجليزيا كان قد تظاهر دوماً بعدم اطلاعه على شيء ولم يكن ليسمح بتدفق اية عاطفة ولو طفيفة ولا أن يبدر احساس بالحسد والغضب) على هذه الطريقة التي كانت تمثل التهلكة بعينها ، ولست اقصد هنا الحرب ، بل القتل او مكاناً يغتالونك فيه ، مكاناً لاوقت لك ان تقول أُف . هؤلاء الاشخاص الذين اخذوا مواضعهم بهدوء كأنهم يطلقون

رصاصاً غريباً خلف سياج أو دغل ويمضون وقتاً طويلاً في التسديد نحوك . بل هي حرب حقيقية . وقد ساءلت نفسي ذات مرة اذا لم يكن يتمنى ان يلقى فيها ايجليزيا حتفه واذا لم يكن يشبع في نفسه بقضائه عليه غريزة الثأر التي كثيراً ما كان يهفو اليها ، ولكني لا اعتقد ذلك لما يتصف به من اعتدال واتزان . يخيل إلي ان كل شيئ في تلك اللحظة اصبح بالنسبة اليه لايثير اي اهتمام ان صح فعلاً انه لم يكره ايجليزيا قط بما انه ابقاه في نهاية المطاف ، تحت امرته وانه الان يكترث له اكتراثاً مماثلاً ، او الاحرى اقل مني أو من هذا الملازم الثاني الغبي ، اذ لم يعد يشعر دون شك بالالتزام بأي واجب ليس تجاه ما كان يعنينا شخصياً ، ولكن تجاه ما كان يتعلق بدوره ووظيفته كضابط . ولربما كان يتصور ان ما كان باستطاعته ان يفعله بهذا الشأن لم تعد له في المرحلة التي كنا قد وصلناها اية اهمية . فقد نجا اذن وتحرر وانعتق ان صح القول من واجباته العسكرية منذ اللحظة التي تقلص فيها عدد افراد سريته الى اربعة وهؤلاء الاربعة هم نحن (على ان سريته نفسها هي كل ماتبقى من فوج كامل مع بضعة فرسان اخرين تشتتوا وضاعوا هنا وهناك في الطبيعة) . وهذا لم يكن ليحول بينه وبين الحفاظ على اعتدال قامته وصلابتها وهو جالس على سرج حصانه . اعتدال وصلابة يضاهيان حالة الفارس الذي يمر في موكب استعراضي لليوم الرابع عشر من تموز .

وليست حالة الفارس الناجي مع فلول الجيش او الفارس المهزوم الذي خسر الحرب ، وسط هذا التفكك الشامل ، كما لو ان العالم نفسه وبأسره وليس بحقيقته المادية حسب وانما بالتصور الذي باستطاعة العقل ان يحمله عنه (ولكن ربما حصل ذلك بسبب النعاس اذ ان النوم لم يزر عيوننا حقاً منذ عشرة أيام اللهم الا ونحن على ظهور جيادنا) . كان الفوج في حالة انكماش وتحلل وتبعثر وتمزق وتلاش . وقد صرخ احدهم مرة او مرتين ينهاه عن الاستمرار لا اتذكر العدد تماماً ولا اتمكن من تشخيصهم : اتخيل ان الذين صرخوا كانوا جرحى او

مختبئين داخل بيوت أو في الموضع او من هؤلاء المدنيين الذين كانوا يصرون اصراراً يتعذر عليَّ فهمه على السير بغير هدى حاملين حقيبة ممزقة وهم يدفعون امامهم عربات للاطفال محملة بأمتعة غامضة (او قل ليست بأمتعة فعلاً . فهي اشياء يغلب عليّ الاحتمال كونها غير ذات جدوى : ربما لمجرد ألا يتسكعوا فارغي الايدي او لئلا يكون لهم الانطباع ، بل الوهم لان يحملوا وان يمتلكوا شيئاً ما ، مهما كان هذا الشيء ، شريطة ان ترتبط به – سواء كان وسادة لا حشوة فيها او مظلة او صورة ملونة للجد والجدة – فكرة الثمن أو الكنز الاعتباطية) كما لو ان المهم في الامور هو المشي دون الاكتراث بالاتجاه : بيد اني لم أرهم حقاً . وجل ماكان باستطاعتي رؤيته وما كنت اتمكن من تمييزه وعده ضرباً من محاط الانظار ، كان ذلك الظهر العظمي الهزيل الصلب الشديد الاعتدال الجاثم على سرج جواده ، وقميصه المنسوج من قماش السرج * يلمع قليلاً اكثر عند بروز لوحي الكتفين . كانت قد مضت فترة طويلة على زوال اهتمامي او قل قدرتي على الاهتمام بما قد يجري على قارعة الطريق ، اذن هي اصوات غير حقيقية ، اصوات نواحه وصراخات (ربما ما ترمي اليه هو التحوط والتحذير) كانت توافيني عبر الضوء الباهر والمعتم لنهار الربيع هذا(كما لو ان الضوء نفسه كان وسخا ؟ كما لو ان الهواء غير المنظور كان يحمل ماءً ملوثاً كدراً ، او هي قذارة الغبار او النتانة التي تفرزها الحرب) . اما هو ، (فقد كنت استطيع ان ارى رأسه يتحرك ، وتحت خوذته تظهر صفحة وجهه ضائعة مع تقاطيع جبهته اليابسة الصلبة وحاجبه وفوقه حز محجره ، ثم الخط الثابت القاسي الذي لا يطرأ عليه تغيير ، ذلك الخط النازل شاقولياً من وجنته حتى حنكه) فعندما نظر اليهم وتركزت عينه العديمة التعبير التي لاتعرف الفضول لحظة (ولكن على مايبدو لم تكن تبصر شيئاً) في ذلك الشخص

* السرج: قماش مصوف يكون صلباً محبوكاً وسداه من الصوف.
المترجم

الذي (او ربما لم تتركز فيه وانما في المكان او النقطة التي كان ينبعث منها الصراخ حسب) كان قد ناداه ، ولكن النظرة لم تكن نظرة شجب او قسوة أو تذمر ، بل لم تكن حتى تقطيب الحاجبين وانما جل ما كانت هو انعدام التعبير والاهتمام – او ان شئت قل اكثر، ربما نظرة تعجب : فقد كان كمن عيل صبره من الحرمان ، كما لو ان احداً مرّ به فجأة في قاعة ، ولم يقدموه له لكي يتعرف اليه ، او كمن قوطع في وسط جملة اثر ملاحظة خارجة عن الموضوع يبديها له احدهم (كأن يشير اليه احدهم بشأن رماد سيكارة الذي يوشك ان يسقط او قهوته التي توشك ان تبرد) ولربما يحاول ويبذل الجهد ويبدي استعداداً وصبراً ومجاملة ، اذ يحاول ان يفهم اسباب الملاحظة او اهميتها او اذا كان بالمستطاع ربطها ، بطريقة او بأخرى ، بما كان يسوق الحديث اليه ، ثم يرفض الفهم ثم يذعن حتى من دون ان يهز كتفيه معتقداً انه لامفر من ان يلتقي المرء دائماً وفي كل مكان وفي كل الظروف – في القاعات او في الحرب – اناساً اغبياء يفتقدون التربية . واذ فرغ من هذا – اعني من خزنه في ذاكرته – ناسياً الشخص الذي قاطعه ، شاطباً اياه من شاشة مخيلته ومحجماً عن رؤيته حتى قبل ان يدير طرفه ، محجماً احجاماً كلياً بعدئذ عن النظر الى ذلك المكان الذي لم يكن فيه شيْ مقوماً رأسه مستأنفاً مع هذا الملازم الثاني القزم حديثه الهادئ ، وهو حديث يقرب الى الحديث الذي يجري بين فارسين يسيران جنباً الى جنب (في ميدان ترويض الخيل او في الفروسية) وقد دار الحديث بلا شك عن الخيول ، عن الرفاق، عن الترقية، عن الصيد او عن الطراد . اظن انني ارى الامور الان جيداً . ارى ظلالاً خضراء مع نساء يرتدين ثياباً ملونة مطبوعة ، واقفات او جالسات على مقاعد حديدية في الحديقة ، ورجالاً يرتدون سراويل قصيرة فاتحة اللون، وجزماً ، يبادلونهن الحديث ، وهم منحنون اليهن قليلاً ، ويضربون جزمهم

ضربات خفيفة بسوط الاسل ، بينما كانت الوان الجياد وثياب النساء وجلود الجزم الشبيهة بلون جلود السباع تكون بقعاً صارخة (بلون الاكاجو والخبازي والورد والزعفران) فوق اوراق الشجر الخضر ، والنساء اللائي هن من هذا الصنف الخاص ولا اقصد هنا الصنف الذي تنتمي اليه وانما الذي تشكله بنات العقداء او بنات الالقاب المرموقة : فقد كن باردات قليلاً ، تافهات هزيلات بعض الشيء ، يحتفظن فترة طويلة (حتى زواجهن ، بل حتى الولد الثاني او الثالث) بشكل الفتيات العازبات ، مع اذرعهن الطويلة الناعمة العارية ، وقفافيزهن البيضاء القصيرة (الى ان يتغيرن فجأة – في منتصف عقدهن الرابع – ليصبحن مسترجلات بعض الشيء أو شبيهات بالخيل (لا اقصد بالخيل هنا البغال بل الحصن) يتعاطين التدخين ، ويتحدثن عن الصيد وسباقات الخيول تماماً كالرجال) وطنين الاصوات المعلقة تحت اوراق البلوط الثقيلة ، اصوات (نسوة او رجال) قادرة على ان تبقى لائقة ومستوية أو تافهة كلياً ، اصوات تجسد الاحاديث الجافة وكأنها الاصوات التي يطلقها مركز حراسة ، تحكي عن السفاد (الحيواني او البشري) وعن المال او عن تناول القربان الاول بالطلاقة المحبوبة التي ذكرتها طلاقة يمتاز بها الخيالة . فيما كانت الاصوات تختلط بقرقعة الجزم والكعوب العالية على الحصى وتستقر في الهواء والغبار الذهبي البراق ، الذي لا تحس به اليد عند ملامستها اياه ، بقي معلقاً ، في العصر الاخضر الهادئ ، بفوحان الازهار والروث والعطور . اما هو فقال : «.....»

فأجابه بلوم : «نعم ! ....» (كنا آنئذٍ نياماً في الظلام متشابكين متراصين حتى كان يتعذر علينا ان نحرك ذراعاً او ساقاً دون ان نصادف او بالاحرى ان نستأذن ذراعاً اخرى او ساقاً اخرى ، يخنقنا الزحام ، والعرق يتصبب علينا ورئاتنا تبحث عن الهواء كأسماك اخرجت الى اليابسة). واذ توقفت حافلة القطار مرة اخرى في اثناء الليل ، لم نكن نسمع شيئاً اخر سوى الفحيح الذي تطلقه

الرئات عند الشهيق والزفير ، وهي تمتلئ مكرهة بهذه الرطوبة الكثيفة وهذه النتانة المنبعثة من الاجساد المتداخلة ، وكأننا قد استحوذ علينا الموت اكثر من الاموات انفسهم ، بما اننا كنا قادرين على ادراك ذلك كما لو ان العتمة والدياجير ... وكنت استطيع ان اتحسسهم وان اتصورهم متزاحمين ، يزحف بعضهم فوق بعض ببطء ، تماماً كالزاواحف ، تخنقهم رائحة القذارة والعرق ، واذ كنت ابحث كي اتذكر كم من الوقت مضى علينا ونحن داخل هذا القطار ، نهار واحد وليلة واحدة او ليلة واحدة ونهار واحد وليلة واحدة اخرى ، ولكنها محاولة لم يكن من طائل تحتها لان الوقت لاوجود له . وسألت احدهم عن الوقت قائلاً : «هل يمكنك ان تفلح في معرفة ما الوقت ؟ » فرد عليّ بقوله : «تباً لك» وما جدوى ذلك او ما التغيير الذي يحصل لو عرفت الوقت ؟ . عندما يحل النهار سوف تحرص على رؤية أوجهنا ، اوجه الجبناء المدحورين . سوف تحرص على رؤية وجهي ، وجه اليهودي القذر . فأجبته : «لابأس ، لابأس» . فردد بلوم مرة اخرى كلمة نعم . ثم اخذ يتذوق ، عن كثب ، رشفات الرشاشة . لربما كان عليه ، من باب الفطنة والذكاء ، ان ... – فقال : كلا : اسمعني ... الذكاء ! آه ، ليت شعري ما الذكاء .. اعرني سمعك : ذات مرة ، سقانا مشروباً على نفقته . واعني هنا انني اظن انه فعل ذلك ليس تعلقاً بنا ، بل بالخيل . اعني بأنه تصورها عطشى ، ولذا اغتنم الفرصة نفسها لكي يسقـ... فقال بلوم : «هل دفع ثمن المشروب ؟» فقلت : « اجل . فقد كان ... اعرني سمعك : كأني بذلك المشروب نموذج دعائي لعلامة بيرة انجليزية ؟ .» (كان فناء الحانة القديمة مع جدرانها المبنية بالآجر الاحمر الداكن تربطه مفاصل فاتحة اللون لها نوافذ مزودة بزجاج صغير الحجم قاعدتها مصبوغة بالابيض والخادمة تحمل نيطلا من نحاس والسائس يحمل سقاء من الجلد الاصفر مع لسينات الحلقات البارزة ، مقدماً الماء للجياد بينما كانت جماعة الخيالة واقفة وقفتها الكلاسيكية : الحقوان مقوسان

واحدى الساقين محتذية جزمة متقدمة الى الامام واحدى الذراعين منطوية على الورك وباليد سوط وباليد الاخرى يرفع قدحاً من البيرة الذهبية باتجاه احدى نوافذ الطابق الاول حيث كنت تلمح خلال فتحة ضيقة من الستار وجهاً يبدو وكأنه طالع من عجينة الاصباغ .. أجل : ولكن مع فارق واحد هو انه لم يتبين من كل ذلك غير جدران الطوب ولكنها جدران وسخة ، وكان الفناء بالاحرى يشبه حظيرة الماشية : فناء داخلي لمقهى ، لمشرب مع صناديق شراب الليمون الفارغة المكومة ودجاجات تتسكع وملابس منشورة تنتظر جفافها على حبل ، وفي الواقع كان من بينها صدرية بيضاء . كانت المرأة ترتدي هذه الصدرية المصنوعة من النسيج المورد كالتي تباع في الاسواق المكشوفة في العراء بينما كانت ساقاها عاريتين ، في قدميها خفان بسيطان فيما كانت تبدو وغير متعجبة مما كانت تفعله ومما كنا نفعله نحن هناك ، كما لو كان أمراً طبيعياً ان يفرغ كل واحد منا واقفاً هادئاً ، ولكن منهوك القوى ، قدح بيرته . كان هو والملازم الثاني منفردين عنا قليلاً حسب الاصول وحتى أني لا اعرف هل شرب ، لا اظن اذ لا اتذكر اني رأيته يفرغ قدح بيرته في فمه ، فيما يمسك كل منا زجاجته بيد ورسن حصانه باليد الاخرى بينما الخيول كانت تنهل الماء من المورد . وكان يجري كل هذا على جانب الطريق ، حيث كانت جثة رجل (او امرأة او ولد) هناك هامدة ، أو شاحنة أو سيارة محروقة بعد كل عشرة امتار تقريباً . وعندما دفع ثمن البيرة – لانه دفع فعلا – استطعت ان ارى يده تنزل بهدوء الى جيبه ، تحت النسيج الرصاصي الاخضر اللين لسرواله الانيق والحدبتين اللتين تشكلها اصبعاه الوسطى والابهام الملويتان ، بينما كان يقبض على محفظته منتزعاً اياها انتزاعاً ويعد القطع النقدية على راحة يد المرأة بهدوء تام يشبه هدوءه ، اذ يسدد ثمن شراب البرتقال او احد المشروبات الراقية في احد البارات الممتازة في دوفيل اوفيشي ... ثم خيل اليّ ثانية انني ارى الفرسان الذين يحترفون السباق يفترشون العشب الاخضر المنقطع

النظير الذي تنتصب عليه اشجار البلوط العظيمة ، ويمرون تحت رنين الحرب ، مستعدين للانطلاق ، ورؤوسهم شامخة ، كأني بهم قردة على ظهور الجياد الضامرة الرشيقة ، وستراتهم الزاهية تتلاحق تحت اشعة الشمس حسب الترتيب الاتي : الاصفر ثم الحالات بالقبعة الزرقاء – وارضية اشجار الكستناء الخضر الداكنة – الاسود ، صليب سانت اندري فالازرق ، فالقبعة البيضاء – وحائط اشجار الكستناء الاخضر الداكن – ثوب ومحزز وردي وازرق وقبعة سمائية اللون – وحائط اشجار الكستناء الاخضر الداكن – الاصفر ، اكمام دائرته صفراء وحمراء مع قبعة حمراء – وحائط اشجار الكستناء الاخضر الداكن – الاحمر ، ملابس رصاصية وقبعة حمراء – وحائط اشجار الكستناء الاخضر الداكن – الازرق الفاتح ، اكمام سود وساعدة* وقبعة حمراوان – وحائط اشجار الكستناء الاخضر الداكن – الاصفر ، دائرة وساعدات خضر مع قبعة حمراء – وحائط اشجار الكستناء الاخضر الداكن – الازرق ، اكمام حمراء وساعدة وقبعة خضراوان . وحائط اشجار الكستناء الاخضر الداكن – البنفسجي ، صليب اللورين الوردي وقبعة بنفسجية – وحائط اشجار الكستناء الاخضر الداكن – الاحمر ، جلبان ازرق واكمام وقبعة بنفسجية – وحائط اشجار الكستناء الاخضر الداكن – البني وطوق ازرق سمائي وقبعة سوداء والسترات المتألقة المنزلقة ، فحائط الاوراق الداكن فالسترات المتألقة فأقراص الشمس الراقصة والجياد ذات الاسماء الراقصة – كاربستا ، ميلادي ، زبدة ، نهازو ، رومانس ، بريماروزا ، ريسكولي ، كارباتشيو ، وايلد ريسك ، سمرقند ، شيشيبو – والمهرات الصغيرات تلقي سنابكها الناعمة ثم ترفعها ، كأنها تخشى ان تحترق ، راقصة وكأنها

* وهي ردن اضافية تلبس لوقاية الردن الأصلية.
المترجم

تمسك نفسها معلقة فراقصة فوق الارض ، وبدون ان تلامس الآرض ، والجرس والبرونز يتلألأ ويتلألأ دون انقطاع ، بينما كانت السترات الزاهية تنزلق انزلاقاً صامتاً ، في عصر ذلك اليوم الرائع . واذ مر ايجليزيا بدون ان يتطلع اليها ، وعلى ظهره سترته الوردية التي كانت تبدو وكأنها تترك وراءه قلماً معطراً برائحة جسمها ، هي وكأني بها أخذت أحد ثيابها الداخلية الحريرية ورمت به على ظهره ، فيما كان لايزال بعد دافئاً متشبعاً برائحة جسدها ، والى الاعلى كانت صفحة وجهه الاصفر الحزين الشبيهة بصفحة وجه احد الكواسر ، فيما كانت قدماه ملويتين وركبتاه بارزتين ، مقعياً على فرس ذهبية مهيبة شامخة قوية الوركين ، والمؤخرة والاطراف المطبوعة ليس على السير وانما على الكر والفر ، بحيث ان ردفيها يتحركان الواحد بعد الاخر تحركاً ملحوظاً مرتبكاً ارتباك المتكبرين ، وذيلها الاشقر الطويل يتمايل ممتصاً بريق الشمس ، والسترات الاخيرة لم يعد يظهر منها سوى ظهرها (احداها داكنة الزرقة وعليها صليب سانت اندري الاحمر والاخرى كستنائية مع حبيبات زرقاء) اخذت تتوارى خلف الموازين والمبنى المسقف بالقش مع عارضاته النورمندية الكاذبة وهي (هي التي لم تلتفت اليه لحظة ولاتظاهرت بأنها تراه) كانت جالسة على احد تلك المقاعد الحديدية في ظل ظليل ، وربما كان بأحدى يديها واحدة من تلك الاوراق الصفراء او الوردية كتبت عليها اخر الحظوظ ، (ولكنه لم يكن ينظر اليها هو ايضاً) فقد كان يتحدث طائشاً (او ينصت طائشاً أو قد لاينصت) مع احد اولئك الاشخاص ، احد اولئك العقداء او الآمرين المتقاعدين الذين لم نعد نراهم الا في مثل هذه الامكنة ، وهم يرتدون سروالاً مخططاً ، وعلى رؤوسهم قبعات رصاصية (وربما يكونون على هذه الشاكلة مصطفين في مكان ما ، لابسين هذا الزي فيما تبقى من ايام الاسبوع ، ولكنهم يغيرون بزتهم يوم الاحد فقط ، بعد ان يزيلوا عنها الغبار ويدعكوها بسرعة ثم يضعونها هناك بالضبط

حيث يضعون اوعية الزهور على الشرفات وعلى درج المنابر ثم يعودون فيضعونها في صناديقها). واخيراً نهضت كورين كسلة غير عجلة فيما كان ثوبها الاحمر الشفاف القليل الحشمة يتأرجح متهدلاً فوق ساقيها - نحو المنابر...

ولكن لم يكن ثمة منابر ولم يكن ثمة جمهور ظريف لينظر الينا : كنت استطيع ان اراهم دوماً امامنا يتحركون كأطياف في الظلام (وكأنهم اشكال بهيئة دون كيخوت ، وقد جردهم النور اللاذع من لحمهم وأكل ما يحيط بهم من بشرة) ثابتين بوجه الشمس الباهر ، وظلالهم السوداء تنزلق ، تارة الى جانبهم ، كصديق امين يلازمهم ، وطوراً تقصر وتنكمش متراصة او بالاحرى تستطيل كالتلسكوب او تقصر فتتشوه ثم تسترسل مترهلة مسترخية مكررة ، بأختصار وتطابق ، حركات قوائمها العمودية التي تبدو متحدة بها بأواصر غير مرئية : اربع نقاط - والسنابك الاربعة - كانت تفترق ثم تتقارب على التوالي (تماماً كقطرة الماء التي تنفصل او بالاحرى تنشق عن سقف بيت فيما يبقى جزء منها عالقاً بحافة الميزاب) وتتلخص ظاهرة سقوط القطرة على النحو التالي : تنسحب القطرة كعرموطة تحت ثقلها الذاتي ثم تتشوه فتختنق فيأخذ الجزء السفلي - الذي هو الاكبر - بالانفصال ساقطاً بينما يبدو الجزء العلوي منها وكأنه يصعد الى الاعلى منسحباً كأن شيئاً يجتذبه رأساً بعد الانفصال ، ثم تعود فتنتفخ على الفور بعملية ثانية حتى انه يخيل اليك ان القطرة نفسها تتدلى بعد لحظة ، في ذلك المساء ، ثم تنتفخ ثانية ودائماً في المكان نفسه ، وباستمرار مثل كرة من الكرستال تتحرك في نهاية خيط مطاطي ذات اليمين وذات الشمال (كما ان العجينة وظل العجينة كانا ينفصلان ثم يلتحمان فيعودان الواحد الى الاخر بحركة لا نهاية لها ، بحيث ان الظل ينسحب الى ذاته كذراع الاخطبوط بينما يعلو الحافر - ونظراً لانحدار الاشعة المائل فأن السرعة التي تعود ، ان صح القول ، لتصيب الهدف كانت تتعاظم ، بحيث انها اذ كانت تبتدي ببطء ظهرت وكأنها في النهاية تتسارع كمضاء السهم

كأن شيئاً يمتصها او يجتذبها) كأنها عملية تنافذ ، فالحركة المزدوجة مضروبة في اربعة والسنابك الاربعة والظلال المستطيلة الاربعة كانت تنتقل بحركة ثابتة ذات اليمين وذات الشمال وتطأ الارض وطءً رتيباً ، بينما كانت تتواكب تحت الظلال على الممرات الجانبية المعفرة ، سواء كانتْ مبلطة أم مكسوة بالعشب ، كبقعة حبر متعددة الامتدادات تنفرط تارة وتنعقد طورا ، منزلقة بدون ان تترك أثراً على الخراب ، على الاموات ، على المومس ، على الدنس ، على أكداس العربات المتكسرة التي تخلفها الحرب . ولابد اني هناك قد شاهدته لاول مرة ، قبل وصولنا المكان الذي توقفنا فيه لكي نشرب او بعد وصولنا اليه ، حيث اكتشفته وحدقت اليه وانا شبه نعسان وغائص في الطين البني ، وربما لانه كان علينا ان نحيد عن الطريق لكي نتجنبه ، فقد كنا بالاحرى نتصوره أعني (مثل كل ما كان مرمياً على حافتي الطريق كالشاحنات والسيارات والحقائب والجثث) شيئاً غريباً لا واقعياً هجيناً بمعنى ان ما كان حصاناً (اعني ما كنا نعرف او بامكاننا ان نعرف وان نشخص انه حصان) لم يعد آنذاك سوى ركام غامض من الاشلاء والقرون والجلود والشعر اللاصق ، ركام كانت ثلاثة ارباعه مغطاة بالوحل - واذ كان جورج يتساءل ، بدون ان يتساءل بالضبط ، اعني اذ كان يلاحظ بهذا النوع من العجب الهادئ ، او الاحرى المتلاشي والبالي بل حتى المشوه بكليته تقريباً من جراء الايام العشرة التي زال عجبه خلالها شيئاً فشيئاً وتخلى الى غير رجعة عن الموقف العقلي الذي يقوم على البحث عن سبب او عن تفسير منطقي لما شاهده او لما حصل له : اذن لم يكن يتساءل عن الكيف وانما كان يلاحظ فقط انه على رغم كونه لم يعجب احداً منذ زمن طويل – بالاقل على حد زعمه – فالحصان او بالاحرى ما كان يوماً حصاناً كان مغطى بكامله – كما لو كان مغموساً في فنجان قهوة محلبة ثم سحب من ذلك الفنجان – بوحل سائل اغبر رصاصي سبق ان امتصت الارض نصفه ، كأني بها كانت قد شرعت بالاستيلاء على ما كان قد

خرج منها ، على مالم يعش الا باذن منها وبواسطتها (اعني العشب والشوفان اللذين اقتات منهما الحصان) ، على ما كان عتيداً ان يعود اليها فيذوب فيها ، (على شاكلة الزواحف التي تبدأ في طلاء فرائسها باللعاب او بالحامض المعدي قبل ان تلتهمها) بذلك الوحل السائل الذي تفرزه هي والذي كان يبدو كختم لعلامة فارقة تؤيد العائدية ، قبل ان تبتلعه ابتلاعاً وئيداً ونهائياً في احشائها ، مع اطلاق صوت ربما هو صوت الامتصاص : على انه على الرغم من انه كان يبدو ماثلاً هناك قبل دهر ، كواحد من تلك الحيوانات او النباتات المتحجرة المعادة الى الحالة المعدنية وقائمتاها الاماميتان ملويتان كجسم الجنين او الراكع او المصلّي كمثل الطرفين الاماميين لسرعوفة متوترة الرقبة مقلوبة الرأس يتيح لك فكاها المفتوحان فرصة مشاهدة البقعة البنفسجية لداخل فمها لم يمر وقت طويل على مقتله – لان الدم كان لايزال طرياً ، فقد كانت بقعة منه كبيرة حمراء اللون فاتحة محببة براقة كطلاء التلميع تمتد على او بالاحرى خارجاً عن القشرة الطينية والشعر اللاصق وكأنه لا يتدفق من حيوان ، من مجرد حيوان صريع وانما من جرح يصنعه المنافقون من بني البشر ، جرح يتعذر التكفير عنه (بالطريقة التي يتدفق فيها الماء او الخمرة في الاساطير من الصخرة او من جبل تضربه بعصا) على صفحة الارض الطينية : نظر اليه جورج بينما كان يدرب مطيته على القيام بنصف دائرة واسع ينوي تجنبه . وكان الحصان ينصاع لأوامره بدون ان يتنحى ولا ان يستحث الخطى ولا ان يضطر راكبه الى الامساك به بقوة لغرض السيطرة عليه ، كان جورج يفكر بهيجان الحصان ، بذلك النوع من الذعر الذي كان يستحوذ على الحصن عندما كان يحدث لها وهي تنطلق الى التدريب ان تمشي جنباً الى جنب مع حائط المسلخ في نهاية ميدان المناورت ، ثم يعقب ذلك الصهيل وصرير سلسلة اللجام وتجاديف الرجال الممسكين بالارسان : «وثمة لم تكن سوى الرائحة . لكن الان لم تعد رؤية حتى واحد من اقرانهم ميتاً تؤثر فيهم .

ولربما بلغ الامر بهم الى ان يمشوا فوق جثته لمجرد ان ذلك المشي يوفر لهم ثلاث خطوات» ، واذ كان يسترسل في تفكيره قائلاً في سره : «حتى انا ايضاً بالفعل . . .» رآه يدور فوقه ، كما لو كان موضوعاً على صفيحة دوارة (ففي المقدمة كان الرأس مقلوباً لا يظهر من الوجه سوى جانبه السفلي ثابتا ، والرقبة متصلبة ، ثم ان القوائم كانت ملوية الواحدة فوق الاخرى تحجبان الرأس . بعد ذلك كان يظهر المنكب في المقدمة ثم الجرح – فالطرفان الخلفيان يتمددان ملتصقين الواحد بالاخر ، كأني بهما مشدودان ، ثم كان الرأس يعود فيظهر هناك في الخلف مرسوماً في منظور مشوه ، بينما كانت خطوطه المحيطة تتغير تغيراً مستمراً ، أعني بذلك شكلاً من اشكال التدمير واعادة البناء المتزامنين للخطوط وللاحجام (اذ كانت البروزات تتلاشى تدريجياً ، كانت تظهر بروزات اخرى غيرها واضحة المعالم ثم تتلاشى وتتوارى هي ايضاً بدورها) بقدر ما كانت زاوية النظر تنتقل ، في الوقت الذي كان شيء هناك يشبه مجموعة نجوم تبدو وكأنها تتحرك حول المكان – على انه لم يشهد لاول وهلة سوى بقع غامضة – وكانت هذه المجموعة تتكون من اشياء متباينة جداً (وحسب زاوية النظر ايضا ، فأن المسافات كانت تتناقص وتتوسع في ما بينها) مبعثرة ومشتتة حول الحصان (ربما كانت عبارة عن حمولة العربة التي جرها ولكن لم ير أحد عربة هناك : ربما كان الناس قد تراصفوا امامها واستمروا في سحبها) . وكان جورج يساءل نفسه كيف كانت الحرب تنشر (ثم رأى الحقيبة الممزقة تخرج منها المصران والامعاء المصنوعة من قماش) هذه الكمية التي لا يمكن تصورها من الملابس الداخلية ، يتغلب عليها اللونان الابيض والاسود (غير انه كان ثمة ثوب داخلي وردي مقذوفاً على سياج الزعرور او متعلقاً به كما لو ان أحداً وضعه هناك لكي يجف) كما لو ان ما كانت الناس تحسبه اثمن شيء كان خرقاً ومزقاً بالية واغطية أسرة مخرقة وملوية مشتتة ومسحوبة كأنها لافتات او اسمال متساقطة على وجه الارض الاخضر . . .

ثم كف عن مساءلة نفسه عن اي شيء . حتى انه توقف في الوقت نفسه عن الابصار على الرغم من محاولته فتح عينيه بدون انقطاع ، والجلوس على سرجه افضل جلسة بينما كان الطين الداكن الذي كان يخيل اليه انه يتحرك فيه ، يزداد كثافة . ثم اطبق الظلام تماماً . وكل ما بات يتحسسه انئذ كان الضجة ووقع السنابك الرتيب المتزايد على الطريق ، المرتد والمتكرر (اذ اصبح عدد السنابك مئات بل الوفا) بحيث انها (كتساقط قطرات المطر) راحت تتلاشى وتضمحل مولدة باستمراريتها وانتظامها صمتا من الدرجة الثانية ونسقا من المهابة والجلالة : حتى ان تدرج الوقت ، بات شيئا لايراه احد ، شيئاً ليس من قبيل المادة ، شيئاً لا بداية له ولا نهاية ولا نقطة دلالة ، شيئاً كان يشعر انه حي في احشائه ، بينما كان هو جامدا متصلبا على حصانه هو ايضاً لا يراه احد في وسط الظلام بين اشباح الخيالة التي تنسل بهيئاتها العالية اللامرئية ، وتتأرجح او بالاحرى تترنح قليلاً مع تقدم الجياد ، بحيث ان السرية او الفوج بأكمله كان يبدو وكأنه يتقدم بدون ان يتقدم فعلا ، كأولئك الاشخاص العديمي الحركة في المسرح ، تحاكي سيقانهم على الخشبة حركة السير ، بينما تتحرك وراءهم قطعة قماش في صدر المسرح مرتجفة ، وقد رسمت عليها صور البيوت والاشجار والغيوم ، مع فارق ان قطعة القماش هنا كانت الليل والديجور . وفجأة اخذ المطر يسقط هو ايضا رتيباً مستمراً كالحاً لم يكن شديدا ولكنه كالليل نفسه كان يطوق في احشائه الرجال والمطايا ، مضفيا ومازجا صريره الضعيف الى الهمهمة المتأنية الخطيرة لآلاف الجياد التي تجتاز الطرق هذه الهمهمة الشبيهةبالصوت الذي تحدثه الاف الحشرات وهي تقضم وتقرض العالم ، (والحقيقة ان الجياد ، الجياد العسكرية القديمة ، الافراس الشمطاء البليدة التي أكل عليها الدهر وشرب ، الماشية تحت مطر الليل على امتداد الطرقات وهي تهز رؤوسها الثقيلة المدرعة المستعرضة ، أليس لها شيء من تلك الصلابة التي تنفرد بها القشريات ، او تلك

الهيئة المضحكة الغامضة التي ينفرد بها الجراد ، بأقدامها الصلبة وعظامها الناتئة ومناكبها الحلقية الشكل التي تذكرنا بصورة أحد الحيوانات التي تظهر في الشعارات المصنوعة ليس من اللحم والعضل وانما هي شبيهة – الحيوان والسلاح يتقابلان – بإحدى العربات القديمة المتصدئة الصفائح والأجزاء ، وهي تطقطق فيما تكون مرقعة بواسطة بضعة اسلاك حديدية تهددك دائماً بالتفكك ؟) همهمة انتهى بها الامر في تصور جورج ، الى الضياع في فكرة الحرب نفسها ، وقع الاقدام الرتيب الذي كان يملأ الليل شبيهاً بطقطقة العظام ، والهواء الاسود الشديد يضرب الوجوه ، كأنه معدن بحيث انه خيل اليه (متذكراً قصص الرحلات الاستكشافية الى القطب ، حيث يقال ان الجلد يبقى ملتصقا بالحديد المتجمد) انه يحس بالظلام البارد يلتحم بجسمه ويتصلب ، كما لو ان الهواء والزمن نفسه لم يكونا سوى كتلة وحيدة من الصلب البارد (كتلك العوالم المائته المنطفئة منذ مليارات السنين التي يغطيها الجليد) كانوا قد اختفوا في عمقها وقد حكم عليهم بالسكون الى الابد هم وجيادهم البجيرة المتجهمة ، ومهاميزهم وسيوفهم واسلحتهم الحديدية : كانوا واقفين لم يمسهم اذى كما يراهم النهار عند طلوعه عبر الطبقات السميكة الشفافة الزرقاء ، الشبيهة بجيش يسير ، وفيما هو يسير يفاجأ بزلزال كبير ، كما لو ان نهرا جليديا لا يكاد المرء يحس بتقدمه يسترد ذلك الجيش ويقذف به الى ما قبل مائة الف او مائتي الف عام ، وقد اختلط الحابل بالنابل ، مع كل الجنود الالمان المرتزقة القدامى الذين كانوا يهملون فرسانا في خدمة فرنسا او مدرعي العصور الخوالي، وهم يتدحرجون متكسرين محدثين صوتاً خفيفاً كصوت تكسر الزجاج..

وراودته فجأة فكرة طرحها على نفسه قائلاً : «اللهم الا اذا اخذ يدب فـ كل هذا، ومن الإن، الفساد والنتانة مثل حيوان المموث..» ثم أستيقـ (ربما الان الحصان غير مشيته بمعنى انه رغم استمراره في المشي فقد تخلع

قاذفا بجسم الفارس نحو قربوس السرج وكان هذا دليلا على ان الطريق اخذت بالأنحدار) : ولكن الظلام كان لايزال مطبقاً. وعلى الرغم من انه كان يفتح عينيه الى اقصى مدى، فأنه لم يكن يوفق في رؤية شيء. وفكر (فيما اصبح صوت وقع السنابك يختلف الان كما اختلف الشعور بالصمت ايضاً وبالظلام، ولا اعني هنا انه ابرد واكثر رطوبة - وذلك لأن المطر نفسه كان لايزال يسقط - وأنما، ان صح القول، اصبح وهو يخيم عليهم، بليلا متحركا) في انهم لابد ان يعبروا جسرا : ثم رددت الأرض تحت وقع السنابك ثانية صوتا قويا، فأخذ الطريق بالصعود.

وهناك عندما كان السروال يحتك بالسرج، بين الركبة وخرج الشوفان، كانت شبكة الماء الهادىء الذي كان يتسرب، قد بللت غطاء السرير تماماً. وتمكن من الأحساس بملامسة النسيج المبلل البارد لجسمه. وربما كانت الطريق تصعد متعرجة، لان الخشخشة الرتيبة باتت آنذاك تنبعث من كل مكان : ليس من المقدمة والمؤخرة فحسب ولكن ايضا من اليمين ومن فوق ومن اليسار ومن تحت. ففتح ملء عينيه في الظلام، وقد كانتا عديمتي الأحساس تقريباً (كان الركاب مكشوفاً وقتئذ ومائلاً الى القربوس والساقان قد عبرتا فوق الخرج، تخفيفاً عن الركبتين، وقد استسلمتا للأهتزاز كعلبة). كان يتصور انه يسمع كل الجياد، كل البشر، كل عربات القطار تمشي عمياء بلا هدى في تلك الليلة نفسها، وبذلك الجد نفسه، بدون ان تعرف الى اين والى ماذا كانت تتوجه، اذ كان العالم الأزلي البالي بأسره يرتعد ويصطخب ويدوي في الدياجير، مثل كرة برونزية فارغة تبعث صوتاً كارثياً، كقرقعة المعادن المتصادمة، بينما كان هو يفكر في ابيه الجالس في كشك زاهي الألوان، كائن عند نهاية صف اشجار البلوط، حيث كان يقضي اوقاته بعد الظهر في العمل، وهو يسطر بخطه الرفيع المليء بالتشطيب، على الأوراق العتيقة التي يحملها حيثما ينتقل، ويحفظها في قميص رث

مقرن الزوايا، وكأنها جزء لا يتجزأ من كيانه، او كأنها جسم اضافي اخترعه، ربما لكي يشفي علل الأخرين (سواء كانت العلة في العضلات او العظام المنهوكة القوى تحت ثقل الشحم واللحم المتهدلين تحت وقر مادة باتت غير صالحة لان تسد حاجتها الخاصة بنفسها، بحيث انها كانت تبدو وكأنها اخترعت او افرزت مادة ثانوية معينة وبديلة كحاسة سادسة اصطناعية او كعضو اصطناعي عالي الاقتدار يعمل بالحبر وبعجينة الخشب): ولكن صحف الصباح التي لاتزال معروضة متشابكة في ذلك المساء على منضدة صفصاف، فوق القميص والأوراق – الثمينة التي جلبها كعادته كل يوم والتي كانت لاتزال في المكان الذي وضعها فيه عند وصوله ، في مستهل بعد الظهر ، الصحف المشتبكة المدعوكة من تعدد مرات قراءتها ، كان لايزال نور الشفق الصيني يصلها في شبه الظل ، ويمر خلاله لهاث الجرارات الهادئ ، بينما كان المزارع قد فرغ من حصد المرجة الكبيرة وحشرجة المحرك تحتد وتحتدم ، عندما كان يتسلق سفح التل حانقاً ، يتغلب على اصوات الجميع . ثم بعد ان وصل رأس التل ارتخى فجأة وكاد يتوارى عندما مر وراء حزم الخيزران ، وهو يستدير وينحدر فوق السفح كان لايزال يمشي ، محاذياً قاعدة التل . ثم اخذ يتسارع ويهجم ثانية ، بينما كان المحرك ، على مايبدو ، يصول ويجول في منحدر التل ، كان جورج يعرف انه سيراه وهو يلوح ويعلو ويرتفع بتلك الدرجة من البطء المحتوم الذي هو صفة كل من الانسان او الحيوان او الآلة ، من شأنه ان يمس من قريب او من بعيد شؤوناً تخص الارض ، بينما كان المزارع ساكناً تماماً ، لاتكاد تشعر بأنه يهتز عند سماعه الحشرجات التي كانت تنبعث عند الشفق تحت اقدام التلال . فهو كان يتجاوزها واخيراً ينصرف كالحاً تحت السماء الشاحبة ، فيما كان والده قابعاً على مقعد من صفصاف ، يحدث صريراً تحت ثقله ، اثر كل حركة تصدر منه ونظره ضائع في الفراغ وراء نظارات لايجديه حملها نفعاً . كان بامكان جورج ان يرى

فيها انعكاس الشبح الدقيق المتمزق انعكاستين على المغيب ، والشبح يخترق (او الاحرى ينزلق انزلاقاً بطيئاً) السطح المتنفخ للديدان ، عبوراً بمراحل التشوهات المتلاحقة الناجمة من تحدب العدسات - المنسحبة في البداية الى الاعلى ثم المستوية ثم المستطيلة الخيطية الشكل ، بينما كانت تدور ببطء ثم تختفي - بحيث انه عندما كان يصغي ، في شبه الظل ، الى الصوت المتعب القادم من الرجل المسن كان يخيل اليه انه يرى صورة الفلاح الذي لايقهر ، وليس مجرد رؤية كل واحد من قمري السماء يجتازانها من طرف الى اخر ولكنهما (على غرار اولئك الاشخاص الجالسين وهم يتفرجون على تدريب الخيول) كانا يظهران ، فيتضخمان فيتقاربان ، ثم يعودان فينكمشان كما لو كانا يطوفان سطح العالم الدائري الباهر ، مرتجفين لايهزهما شيء ، وهما في رحلة أبدية ...

وكان والده يتحدث بدون انقطاع مع نفسه. يتحدث عن فيلسوف لا اتذكر اسمه ، كان قد قال يوما ان الانسان لا يعرف سوى وسيلتين هدفهما ان يستأثر بما يعود الى الاخرين هما الحرب والتجارة. وانه يختار عادة الوسيلة الاولى ، لانها تبدو له اسهل واسرع. ولكنه عندما يدرك اضرار الاولى وهي الحرب ومخاطرها فأنه يتصرف الى الثانية التي هي التجارة وهي وسيلة لا تقل خداعا ووحشية ولكنها اجلب للراحة. وان جميع الشعوب في نهاية الامر قد مرت مرغمة بهاتين المرحلتين. وان كل شعب بدوره جعل اوربا تسبح في بحر من النار والدم قبل ان تتحول هذهالشعوب الى مجتمعات مجهولة الاسهم ، متكونة من وكلاء بيع متجولين كالانجليز ، على ان الحرب والتجارة لم تكونا قط سوى تعبير عن شراهة الحيوان الكاسر. وهذه الشراهة نفسها ان هي الا حصيلة الرعب الوراثي الذي يسببه الجوع والموت ، مما جعل من القتل والسرقة والنهب والبيع شيئا واحدا في الحقيقة وما هذا الشيء سوى مجرد الحاجة الى الاطمئنان ، كالغلمان الذين يصفرون ويغنون بصوت عال لكي يكتسبوا الشجاعة عندما يجوبون غابة

في الليل . وهذا لما يفسر كيف ان الانشاد ضمن جوقه يشكل جزءا مماثلا تماما لاستخدام الاسلحة او لتمارين الرمي ، جزءا من برنامج تعليم القوات العسكرية لانه لا أسوأ من الصمت عندنا .

آنذاك اغتاظ جورج قائلا . «طبعا ، طبعا» بينما كان والده يطيل النظر في غابة الحور الصغيرة ، بدون ان يراها في الحقيقة ، وهي تتألق قليلا في الشفق ، وحجاب الضباب يتراكم تراكما بطيئا في قعر الوادي ، مغطيا اشجار الحور ، بينما غابت الروابي في بحر الظلام فقال :«مالك ؟» فأجابه :«لاشيء ، لاشيء . ليس لي شيء لاسيما اني لاأملك نضد الكلمات الى ما لانهاية . واخيرا أما يكفيك انت ؟ » فأجاب والده : «ماالذي يكفيني ؟ » فرد عليه قائلا : «الخطاب تلو الخطاب» . حينئذ صمت فأخذ يتذكر انه سيغادر المكان في اليوم التالي . ثم اكتفى بينما كان والده يحدجه صامتا هو ايضا ، وبعد ان كف عن النظر اليه (كانت الساحبة وقتئذ قد انهت عملها ، فمرت مصطخبة خلف الكشك ، والمزارع قابع على مقعده العالي ، لايظهر منه سوى بقعة فاتحة في قميصه ، في الظلام المتكثف تحت الاشجار التي كانت تتباعد وتتوارى ، كأنها شبح في احدى زوايا مستودع للحصيد . فانقطعت فرقعة المحرك بعد قليل وساد الصمت ثانية) : لم يعد بامكانه ان يميز وجه الرجل الشيخ . اذ لم يكن يظهر منه سوى قناع غير واضح معلق فوق الكتلة الضخمة المضطربة القابعة في المقعد . وكان يفكر في سره : «ولكنه يشعر بمشقة ويحاول اخفاء ذلك الشعور كما يحاول استجماع شجاعته . لذا تراه يتكلم كثيرا . لان كل ماكان تحت تصرفه انما هو هذا الايمان القوى العنيد بالرجوع المطلق للمعرفة التي يتلقاها المرء نيابة عن غيره ، لما هو مكتوب ، لهذه الكلمات التي لم يوفق والده ، الذي لم يكن سوى فلاح ، في فك رموزها ، موليا اياها سلطانا خفيا سحريا ....» كان صوت ابيه مشوبا بالحزن

و بالرغبة العارمة المتذبذبة في ان يفيق هذا الصوت نفسه ان لم نقل بجدوى وصحة ما كان يقول ففي الاقل بجدوى الاعراب عنه ، مصرّاً لوحده – مثلما يصفر غلام وهو يجتاز غابة في الظلام – كما سبق ان قال – بينما كان لايزال يتوالى عليه ، ولكن الان ليس خلال شبه ظل الكشك في حر آب الراكد ، حر الصيف الفاسد ، حيث ينتهي الامر ببعض الاشياء الى الفساد التام ، بعد ان تكون قد نتنت وانتفخت كجثة ملأى بالدود تنفجر في النهاية غير تاركة شيئا سوى بقية تافهة ، يتوالى عليها كدس الصحف المدعوكة ، حيث لم يعد بامكان المرء ، منذ زمن طويل ، ان يميز شيئا (حتى الحروف او العلامات التي يمكن الاستدلال بها بل حتى العناوين البارزة الكبرى : جل مابامكانك ان ترى كان بقعة أو ظلا خافت الدكنة على الورق) ولكن (الصوت والاقوال) ارتفعت آنذاك في الظلام البارد ، حيث كانت نظرية الجياد التي لاتعرف لها نهاية ، الجياد التي كانت تسير منذ دهور : التقط جورج ، وكان والده لم يكف قط عن الكلام ، واحدا من الجياد فامتطاه بسرعة خاطفة ، وكأني به لم يفعل شيئا سوى انه قام من مقعده وركب واحدا من تلك الظلال المتحركة فهز فجر الكون ، بينما كان الشيخ يواصل حديثه مع مقعد فارغ ، فابتعد فتوارى فيما كان الصوت المنفرد يقاوم بعناد ويطلق كلمات فارغة لاجدوى من ورائها ، وهو يكافح ، جالسا واضعا رجلا على رجل ، شيئا يشبه النمل يغمر ليل الخريف ويطغى عليه في نهاية الامر ، تاركا اياه تحت رحمة .فرقعته المهيبة اللامبالية .

او ربما ان جل ما فعله ، هو انه اغمض عينيه ثم عاد ففتحهما مباشرة ، وان حصانه لم يوفق في الاصطدام بالحصان الذي كان قبله ، ثم استفاق تماما وادرك ان صخب الحوافر زال في ذلك الوقت ، وان الرتل كله كان قد توقف ، بحيث اننا لم نعد نسمع سوى صوت انهمار المطر حولنا ، فيما كان الليل لايزال حالكا ، مقفرا ، فيما كان احد الحصن يشخر احيانا ويحمحم ، ثم كان صوت المطر يتغلب

على كل شيء ثانية . وبعد هنيهة سمعنا اوامر تنطلق بصوت عال من مقدمة الكتيبة ، فاهتز الجحفل بدوره وتجمد في مكانه ، بعد تقدمه بضعة امتار وانحدر احدهم محاذيا الرتل يمر خببا ، فما كانت مطيته مجهزة بنعال من حديد ، تحدث عند كل وقع صوتا واضحا معدنيا . ثم انتفض في غلس الظلام طالعا من العدم طيف ، واجتاز عبر حفيف البهائم المعتضلة وهي في الطراد او عبر حمالات السلاح او عدة الرواحل او نفايات الحديد المتصادمة ، وجذعه المظلم منحن الى الامام على رقبته لاوجه له ، وقد اعتمر خوذة كأنه جواد الرؤى الكوارثية بل كأنه شبح الحرب نفسه الطالع مدججا بسلاح الظلام . وبعد ان عاد ثانية انسل لفترة غير قصيرة ، حتى صدرت الاوامر بالانطلاق وللتو لحوا اولى الدور وكانت سوداء اكثر قليلا من ظلمة السماء .

واذا بهم في مستودع الحصيد مع تلك البنت التي كانت تحمل مصباحا في طرف ذراعها المرفوعة ، وكأني بها تلمح في ظهور شخص سماوي : كواحد من تلك الرسوم القديمة بلون عصير التبغ المتكون في اسفل الغليون : بني (او الاحرى قيري) وفاتر ، وان صح التعبير ، لم يجدوا انفسهم داخل مبنى اقتحموه ، ان صح التعبير (مقتحمين في آن واحد رائحة الحيوانات اللاذعة ورائحة الشوفان) او كان ما اقتحموه اشبه بمساحة عضوية حشوية . فالتفت جورج طائشا بعض الشيء ، مذهولا بعض الشيء ، محركا جفنيه الساخنتين بليدا متخدرا داخل ثيابه الباردة والثقيلة من ماء المطر ، وجزمته متصلبة من تعبه . ومع تلك الطبقة الرقيقة المتكونة من الوسخ والارق الواقعة بين وجهه وبين الهواء الخارجي ، كطبقة من الجليد متشققة لاتمسها يد . حتى انه كان يخيل اليه انه يستطيع ان يشعر ببرد الليل في وقت واحد – او بالاحرى ببرد الفجر – ذلك البرد الذي جلبه معه ودخل معه البيت وهو لايزال يعصره (وكان يفكر في شيء يساعده على الوقوف ربما هو مشد يرتديه ، كما كان يفكر ايضا بغموض في ان عليه ان يبادر الى حل

سرج حصانه وان ينام قبل ان يبدأ بالذوبان والانحلال) ومن ناحية اخرى كانت البنت واقفة ، ان صح القول ، داخل دفء بطنها الفاتر غير واقعية نصف عارية . لم تكد تستفيق او لم تستفق جيدا ، فيما كانت عيناها وشفتاها وكل لحمها منتفخة من كسل النوم الرقيق ، شبه عارية الساقين والقدمين رغم البرد ، محتذية نعلا رجاليا لاسيور له ، مع شال مجدول بنفسجي القت به على بشرتها الناصعة البياض ، وجيدها الحليبي اللون ، النقي ، الطالع من قميص نومها الخشن ، في تلك الطبقة من الضوء الاصفر الذي يبعثه المصباح ، والذي كان يبدو وكأنه ينسكب فوقها ، ابتداء من ذراعها المرفوعة ، كطبقة فسفورية من الصبغ ، الى ان نجح واك في اشعال الفانوس فأطفأت حينذاك المصباح ثم حادت وخرجت صوب الضوء الاصفر الشبيه ، في كثافته بقرنية عين عمياء . ثم توضحت قامتها لحظة في الظلام ، عندما كانت في شبه الظل داخل مستودع الحصيد ، ثم ما ان عبرت العتبة حتى تظاهرت بالاغماء رغم استمرارها في متابعتها بعيونها ، لم تكن في الحقيقة تبتعد ، وانما كأني بها تنصهر وتذوب في ذلك الشيء الذي كان رصاصيا اكثر من كونه مصفرا ، فقد كان النهار ، بدون شك ، بما انه كان لابد من طلوعه . ولكنه كان ظاهريا مجردا من كل سلطان ومن كل الخصائص التي تنسب الى النهار . رغم اننا كنا نستطيع ان نلمح في ذلك الجانب من الطريق جدارا ، صغيرا وجذع شجرة جوز وخلفها اشجار الروضة ، ولكنها كلها بأجمعها كانت بدون لون وبدون قيمة ، كما لو ان الحائط الصغير وشجرة الجوز والتفاح (كانت المرأة الشابة قد اختفت) كانت قد تحجرت ، ان صح التعبير ، غير تاركة هناك سوى بصمات على تلك المادة الواهية الاسفنجية الرصاصية التي كانت تتسرب شيئا فشيئا داخل مستودع الحصيد . كان وجه بلوم كقناع رصاصي عندما التفت اليه جورج ، كورقة ممزقة فيها ثقبان للعينين ، وكان الفم هو ايضا رصاصيا . واصل جورج الجملة التي كان قد

استهلها او بالاحرى انه سمعه يكملها (ربما كانت تدور حول شيئ يشبه :ألا قل لي ، هل رأيت هذه البنت ، انها ...) ثم انقطع الصوت فيما استمرت الشفتان تتحركان ربما بصمت ثم انقطعتا هما ايضا بدورهما ، فيما كان هو ينظر الى الوجه الورقي ، اما بلوم (فقد كان قد خلع خوذته فظهر وجهه حينذاك ، وجه بنت ضيق بل يزداد ضيقا ما بين الاذنين ، وجه ليس اكبر من قبضة يد ، وجه طالع فوق رقبة بنت من ياقة المعطف الصلبة المبللة طلوعه من داخل قوقعة ، متألم ، حزين ، انثوي يحدث صدمة) فقال : «اية بنت ؟» فأجابه جورج : «اية ... ماذا حل بك ؟ » فيما كان حصان بلوم لايزال مسرجا ، ولكنه لم يكن مربوطا بعد ، أما هو فقد كان مجرد متكيً اتكاءً الى الحائط ، كما لو كان قد خشي السقوط وهو لايزال متقلدا بندقيته القصيرة ، حتى انه كان يفتقد الهمة لان يلقي رحاله . ثم عاد جورج وقال : «ماذا حل بك ؟ هل انت مريض ؟» فهز بلوم كتفيه ، بعد ان انسحب من الحائط ، ثم اخذ يحل فراشه العسكري . فقال له جورج : «تبا لك ، اترك هذا الحصان . اذهب الى النوم . لو دفعتك لسقطت ....» انه كان موشكا ان ينام واقفا . غير ان بلوم لم يبد مقاومة عندما دفعه جورج : على ارداف الجياد البرونزية كان الشعر قد التصق ، على أثر سقوط المطر قائما ، كما كان مبتلا ايضا وملتصقا تحت بساط السرج ، تنبعث منه رائحة حامضة . وفيما كانا يرتبان متاعهما العسكري على امتداد الحائط ، كان يخيل اليه انه لايزال يراها ، حيث كانت قد وقفت قبل هنيهة ، او بالاحرى يشعر بها ويلمحها كبصمة لاتمحي غير واهية بقيت فترة اقل على الشبكية (لانه قلما رآها ، واذا كان قد رآها فالرؤية كانت رديئة) من بقائها داخل كيانه : كأني بها شيئ فاتر ، ابيض كالحليب الذي كانت قد استخرجته قبل لحظات من وصولها ، او هي اشبه بالظهور العجائبي الذي يتلقى النور لا من ذلك المصباح المضيئ ، كما لو ان بشرتها كانت هي مصدر النور ، كما لو ان هذه المسيرة الفروسية الليلية التي

انتهت بها الى بيتها لم يكن لها من سبب او هدف سوى اللقاء اخيرا بهذا الجسم الشفاف المسبوك في خضم الليل الدامس : لم تكن امرأة وانما الفكرة التي يكونها الانسان عن المرأة بل رمز كل امرأة أعني ... (هل كان لايزال واقفا او يحل السيور والاشرطة بحركة انسان آلي او كان قد نام أم كان لايزال ناعسا مستلقيا على الشوفان بعناد فيما كان يطوقه ويبتلعه الرقاد) .... كان يتصور اعضاء جسمها معجونة من الطين اللين عجنا ايجازيا ، فخذيها وبطنها ونهديها واسطوانة رقبتها المدورة ، وفي جوف الطيات ، كما في وسط التماثيل البدائية الواضحة المعالم كان يتصور تلك الفوهة المعشوشبة ذلك الاسم المحرم التلفظ به خارجا عن نطاق التاريخ الطبيعي اعني به قدس اقداس الانثى ، يذكرنا بتلك الاجسام البحرية آكلة اللحوم العمياء المحرومة من الشفاه والحواجب : فتحة الرحم او البوتقة الاصلية التي كان يتصور انه يراها في احشاء الكون والشبيهة بالقوالب التي تعلم الجنود والفرسان ان يشموا فيها وشما ويبصموا بصما . عندما كان غلاما صغيرا ، لم تكن غير مجرد عجينة صغيرة ضغط احدهم عليها بابهامه او رعاع لايحصى لهم عدد ، طلعوا مدججين بالسلاح ، كما تقول الاسطورة ، فازدادوا وتزاحموا وانتشروا على وجه البسيطة ، وهم يحدثون جلبة لايمكن حصرها ، وقرقعة تستحيل السيطرة عليها ، فاذا هم جيش يتقدم بخيوله الداكنة الكالحة التي لايحصى لها عدد ، هازة رؤوسها الحزينة ، متوالية كأنها في موكب لا نهاية له ، وسط قرقعة السنابك الرتيبة ، (لم يكن انذاك نائما وانما كان واقفا بلا حراك ، ولم يعد يرى الان نفسه في مستودع للحصيد ، ولم يعد يستنشق رائحة الشوفان الجاف والصيف المنصرم ، وانما رائحة الزمن نفسه والسنين الغابرة والليل والسلام وتنفس امرأة الى جانبه لايكاد يشعر به ، تلك الرائحة التي لايمكن تحسسها ، على انها رائحة الحنين العنيدة ، وبعد لحظة توسم المستطيل الثاني الذي رسمته مرآة الخزانة وهي تعكس النور الداكن الذي يتخلل الشباك – تلك الخزانة الفارغة

منذ الدهور ، خزانة غرف الفنادق ، وقد ثبتت في داخلها اثنتان او ثلاث حاملات ملابس خالية من الملابس ، والخزانة نفسها (بجبهتها المستطيلة المحاطة بصنوبرتين) كانت مصنوعة من خشب اصفر اللون وكأنه مصطبغ بالبول مائل الى الحمرة ، خشب لايستعمل ، على مايبدو ، الا في صناعة مثل هذا الاثاث الذي لايهيأ لاحتواء شيْ سوى فراغه المليْ بالغبار ، مع اشباح اكفان مكسوة بالغبار لالاف العاشقين ، لالاف ، الاجسام العارية الرطبة الغضبى ، لالاف العناقات المخزونة المختلطة في اعماق المرآة السحيقة ، تلك المرآة التي تتحدى الزمن بيكوريتها وبرودتها - اما هو فقد تذكر) ... الى ان ايقنت ان ما كنت أحس به ، لم يكن الجياد ، وانما المطر المتساقط على سطح مستودع الحصيد . ففتحت للتو عيني ورأيت الضياء يتسرب بحزمة عبر الفجوات بين الواح الجدار : لابد ان الوقت كان متأخرا على ان ضوء النهار كان لايزال مصطبغا باللون الابيض الوسخ الذي توارت فيه ، ذلك النهار التي ابتلعها او التهمها ، في فجر جاء محملا بالماء او بالاحرى مبتلا او مغمورا ، كقطعة قماش اوكملابسنا ، واذا استنشقنا رائحة الغطاء المبتل النشاف الذي نمنا فيه فاننا لم نتمكن من السيطرة على يقظتنا . فقد كنا كالاغبياء ، ننظر في احد اطراف المرآة المعلقة فوق سطل من قماش ملآن ماء جامدا ، بينما كانت اوجهنا الرصاصية وسخة شاحبة هي ايضا من جراء نقص النوم وخدودنا سيئة الحلاقة ولحانا قد علق بها القش وعيوننا محمرة الزوايا اضافة الى حالة الذهول وعدم الارتياح والنفور التي كانت تخيم علينا (كالحالة التي يحس بها المرء عند رؤيته جثة ، كما لو ان الانتفاخ الذي ينتهي الى التفسخ كان قد ضرب اطنابه وبدأ عمله ، يوم توشحنا بملابسنا العسكرية ، مرتدين في الوقت نفسه ملابس ذابلة او قناعا من التعب الشامل ، من الاشمئزاز من القذارة ، ثم شرعت بازاحة المرآة اوبالاحرى المدوس وهي ذلك الجنس من الحيوانات الهلامية البحرية التي تضيْ في الليل متراقصة مستطيرة كأن اعماق مستودع الحصيد

الظليل البني اللون يمتصها ، متوارية بالسرعة الصاعقة التي يطبعها اقل تغيير في الزاوية على الصور المنعكسة . وهناك فقد رأيتهم في الطرف الاخر من الاصطبل ، ناطقين اوبالاحرى ساكتين انهم اعني انهم يتبادلون الصمت كما يتبادل الاخرون اطراف الحديث ، اعني به ضربا من الصمت الذي لم يكن يفهمه غيرهم صمت كان بالنسبة اليهم ، بدون شك ، افصح من كل الخطابات . فيما كانوا يحيطون بالحصان وهو مستلق على احد منكبيه : انهم ثلاثة ورؤوسهم اشبه برؤوس الفلاحين ، هؤلاء الاشخاص السكوتيون الحذرون المتحفظون الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى لافراد الفوج ، يشوبهم شيْ من الحزن لاعلم لي به يبدو على وجوههم التي تجعدت قبل الاوان ، او شيْ من الحنين الى حقولهم والى خلوتهم والى حيواناتهم والى الارض السوداء الشحيحة : ثم قلت : ماذا هناك وما الذي يجري ؟ لكنهم لم يجيبوني ، ربما لاعتقادهم ان الاجابة لاتجدي نفعا ، او ربما اننا لم نكن ننطق بلسان واحد . ثم تقدمت ونظرت بدوري الى الحصان ، وقتا قصيرا ، وهو يتنفس بصعوبة . كان ايجليزيا هو ايضا هناك ولكنه ، شأنه شأن الاخرين ، لم يظهر وكأنه يسمعني ، رغم اني كنت اتصور أو أمل وجود امكانية اقامة اتصال بيني وبينه . ولكن ان يكون الانسان فارس سباق ، الايشبه هذا ، في بعض النواحي كونه فلاحاً ، رغم المظاهر التي قد تحمل على الاعتقاد بأنه لمجرد ان عاش فترة في المدن أو في الاقل كان على اتصال بالمدن ، يجوز والحالة هذه اعتباره مختلفا بعض الشيْ عن الفلاح ، اعني به انه راهن كثيرا ولاعب كثيرا او ربما كان خصيا ، كما هي الحال غالبا عند فرسان السباق ، وبما انه قضى طفولته ليس في حراسة الاوز او سوق البقر الى المورد وانما في العبث بالسواقي وعلى ارصفة المدن . ويجب القول هنا ان الامر امر الريف اهون من امر الحيوانات ومساكنة الحيوانات ومؤالفتها . لانه كان انعزاليا سكوتيا قليل الاتصال كأي واحد منهم وعلى نسقهم ، فقد كان منكبا

ومنهمكا (كما لو كان غير قادر على البقاء بدون عمل يتلهى به) على مزاولة واحد من تلك الاعمال الدقيقة الوئيدة التي ينفردون بسر اختراعها لانفسهم : وحيث كنت (جالسا قريبا منه ، ووراءه قليل ، على نقالة وقد ادار عني ثلاثة ارباع ظهره ، فيما كان كتفاه يتحركان قليلا ، ربما لكي يلمع عدة راحلته او عدة راحلة دي ريكساك ، بصقل حلقات النحاس بنثارة الخزف وتلميع الارسان بالشمع الاصفر ، كان يبدو انه يحمل معه كمية منه في تنقلاته) كنت استطيع ان اشاهد انفه الكبير ، ورأسه منحنيا من ثقل عرنينه هذا او شعره المستعار ، شعر الكرنفالات الذي يكاد يبدو مضافا على يافوخه ، وكأنه شفرات السكاكين التي ربما لم يعد احد يصنع منها منذ ايام السيافين الايطاليين في عصر النهضة ، اذ كانوا يغطون انفسهم بدثار لايرتديه سوى القتلة لايبرز من وجههم سوى خيشومهم المعقوف كمنقار النسر ، مما يخلع عليهم هيئة مرعبة بائسة لطائر واجم كئيب ... اين قرأت هذه القصة ؟ اعتقد اني قرأتها لكيبلنغ والافهيئة ذلك الحيوان المصاب بعلة في منقاره في انفه فقد كان يقول : اذهب وسنن بصلك «أو» عجيزتك محاطة بمعكرونة شريطية وهذه عبارة محصورة الاستعمال عند فرسان السباق ، لكي «يكون حظهم سعيدا» ولكن لم يكن ثمة اي شك في رزانة صوته ، وانما بالعكس فقد كان ينم عن براءة ونقاوة وسذاجة واندهاش وشجب لفضيحة ، كالطريقة التي رأى فيها بلوم يسرج حصانه ، وانه رغم ذلك لم يصب بأورام بارزة بعد ذلك الشوط الطويل . فقد كان صوته مكسورا مبحوحا ناصعا غريب العذوبة بعكس ما كان قد يتوقع الناس سماعه . بل كان متواضعا ،عليه مسحة من الطفولة . كأني بها تكذيب لامعقول لقناع الكرنفال الهزيل المتجعد ذاته . هذا اذا تجاوزنا عن ان عمره كان اكبر من معدلات اعمارنا بخمس عشرة سنة في الاقل . كان شاخصا هناك ، وكأنه محاط بصبيان فحسب . وذلك لأن دي ريكساك كان قد اتخذ التدابير بل من المحتمل انه استغل علاقاته لتنسيبه الى فوجنا

وذلك بغية ابقائه قريبا اليه ، وفي الواقع كان يخيل الى الجميع ان الواحد لم يكن ليستطيع الاستغناء عن الاخر. كأني به تعلق الانسان بكلبه ، او الكلب بصاحبه ، بدون ان يسائل الكلب نفسه عن مدى استحقاق صاحبه ذلك التعلق : فقد كان يسلم بالامر ويقر بدون ان يضع الحالة لحظة موضع شك ، ويقدم الاحترام لدي ريكساك . هذا وان كل شيئ كان يدل على ذلك الاحترام .

وعلى سبيل المثال تلك الطريقة او ذلك الصوت اللذان كان يؤاخذ بهما الزملاء بعناد واناة وبامانة الخادم لمخدومه ، عندما كانوا يلفظون اسمه على النسق التالي : دي ريكساش وكان هو يؤنب واحدا منهم بقوله : ويحك الم تفهم بعد ؟ الم تتعلم ان تلفظ ريشاك : بقلب الكاف والسين الى شين والكاف الاخيرة الى شين . تباً لك اني اقسم لك بان هذا الانسان نهاية في الغباء . فها هي المرة العاشرة في الاقل وانا اشرح له . لعلك لم تذهب قط الى حلبة سباق الخيل ايها المغفل مع العلم ان اسمه يعرفه الجميع ... كان يتباهى بالاسم ، بالالوان ، وبسترة الفارس الحريرية الوردية التي كان يرتديها ، والحمالات السوداء والطاقية السوداء المائلة الى لون خضرة سطح لعبة البليارد ، او ميدان سباق الخيل او زي الخدم الموحد . ولكن عندما عصف برشاشته عن كثب فاقترحت العودة بعد ذلك بلحظة والذهاب الى حيث كان ، للتأكد من موته او حياته اخذ يتفحصني (مثلما فعل دي ريكساك قبل قليل اذ اجبر ذلك الجندي الذي ضل الطريق على النزول من حصانه الذي توسل الينا للسماح له بركوبه وقال بعد ذلك بلحظة لقد كان جاسوسا . فقلت : من . فقال وهو يهز كتفيه : هذا الشخص . فقلت ... ولكن بماذا رأيته ؟ فقال وهو يتفحص اسارير وجهي بتينك العينين الواسعتين ، بذلك النظر المذهل الحلو الشاحب المتشكك والمتعجب بعض الشيئ ، كما لو كان يبذل قصارى جهده لكي يفهمني مشفقا على حماقتي وحائرا في الظاهر متأثرا

كحيرته وتأثره عندما كان يسمع احدهم يلعن الضباط ، مرسلا دي ريكساك الى الشيطان ، دي ريسكاك الذي يغلب على الاحتمال كونه انتهى به الامر الى الشيطان الان) بينما كان يبحث عن تلك الرقاقة او تلك القشرة التي كنت اشعر بها على وجه كأنها البارافين وهي تتجزع وتفصلني عنه ، قشرة متكونة من التعب والنعاس والعرق والغبار ، بينما كان وجهه لايزال مقنعا بتلك التقاطيع الرافضة للايمان والشاجبة الحلوة وهو يقول : «ارى ماذا ؟» فقلت له : «كي نرى هل مات في النهاية .» بعد رشقه بوابل من الرصاص عن كثب ، استطاع ذلك الشخص ان يفلت او ربما اصيب بجروح فقط او ربما قتل حصانه لا اكثر فقد سقط الحصان عندما رأينا راكبه وهو يستل سيفه و ... «ثم لزمت الصمت ، اذ ادركت اني كنت اضيع وقتي ، وان مسألة العودة بالنسبة اليه والذهاب للتأكد ، لم تكن مطروحة . لم يكن يطرحها ، ليس عن جبن في نفسه ، ولكنه ربما كان يتسأل فقط لماذا وبأسم من (وفي الحقيقة لم يجد) فان ذلك كان يعني بالنسبة اليه المجازفة بحياته من اجل شيئ لم يدفع له احد اجرا عليه ، ولم يتلق الأوامر الرسمية الصريحة به ، مشكلة ربما كانت تتعدى افاق فكرة : صبغ جزم دي ريكساك وتلميع عدة راحلته والعناية بحصنه وتوفير سبل الفوز لها . ذلكم كان لعمري ديدنه . وقد كان يؤدية بامانة وانكباب اصبحا مضرب المثل ، منذ خمس سنوات ، وهو يمتطي حصنه نيابة عنه ويروى بعضهم انه لم يكن يمتطيها هي فحسب وهو يتسلق الذرى طافرا عليها ، ولكنه كان يدوسهم هم ايضا ومعهم دي ريكساك ...» وفيما كان جورج يحاول ان يتصور هذا ، اعني به مشاهد ولوحات ربيعية وصيفية هاربة ، كان العجب قد أخذ منه كل ماخذ ، وهو ينظر من بعيد ، خلال فرجة في سياج أو بين دغلين ، الى شيئ يكسوه العشب الاخضر الابدي النقاء وموانع بيضاء ، وهو واقف وجها لوجه قبالة كورين . كان هو اقصر منها ، منتصباً على رجليه القصيرتين المقوستين ، وجزمته

اللينة مقلوبة ، وسرواله الابيض وسترته الحريرية الزاهية التي كانت هي قد اختارت الوانها التي كانت تبدو (وقد كانت مصنوعة من تلك المادة اللامعة المطلسة التي تصنع منها الملابس الداخلية النسائية كرافعة النهدين واللباس وحمالات الجواريب السوداء) كزي تنكري مضحك عدواني شهواني ، مثل الاقزام المشوهين الذين كانت الناس تخلع عليهم ملابس ذات الوان لاترتديها سوى الملكات والاميرات ، الوان ثمينة وحلوة اما هو فقد كان هناك بقناعه الشبيه باقنعة كرنفال ايطالي ، وجلده الاصفر ووجهه الهزيل المتنسك ، وانفه الشبيه بدوارة ريح وعينيه الواسعتين الكرويتين ، وهيئته الانفعالية (التأملية) الانطوائية المتألمة (لعله مظهر يفرضه حمل رأس كرأس فارس السباق مع ياقة سترته التي علق تحتها منديل يشبه لقافه جرح تقمط الرقبة وتعطيها صلابة فريدة فيما الرأس مقذوف الى الامام ، وكانه مريض يشكو وجعاً من ورم في الرقبة او من ثؤلول) بينما كانت كورين واقفة قبالة وجهه (كان ظاهريا كفارس سباق لاغير ، يقدم الاحترامات وينصاع لاوامر سيدته صبورا عاصرا بين يديه ، بحركة ميكانيكية ، مقبض سوطه) وهي متوشحة باحد ثيابها الزاهية الالوان الشفافة ، شاخصة بعكس اتجاه الضوء الذي يسحب الظلال على العشب . وقد كان ذلك الضوء احمر ، كاني به مهيا ليلائم شعرها ، فيما كان جسمها (او مفرق ساقيها) يرتسم في الداخل ، شفافا بفعل اشعة الشمس الباهرة . واذ تنحت كليا كانها عارية وعليها كساء احمر قان ، ضمن غلالة من السحاب البخارية بحيث انها كانت تحمل على التفكير (ولكن لست اقصد التفكير فعلا اكثر من تفكير الكلب عندما يسمع قرع الجرس الذي ينشط انعكاساته : لا الى التفكير اذن ولكن بالاحرى الى مايشبه افراز اللعاب) بشيء اشبه بسكر الشعير (او عصير او شراب اللوز) وبحلويات مغلفة بورق السيلوفان ذات لذعة حامضة (ورق يبدو اندعاكه الكريستالي ولونه ومادته وتكسراته حيث تظهر البارافين في شبكة رفيعة من

الخطوط المتقاطعة تهيج الاستجابات الفسلجية) وقد تمكن جورج من رؤية حركات شفاههم ولكن بدون ان يسمع (لانه كان مختبئا بعيدا خلف سياجه ، خلف الزمن بينما كان يسمع (في وقت لاحق عندما استطاع هو وبلوم من تدجينه قليلا) ايجليزيا يروي لهم احدى قصصه التي لايحصى لها عدد عن الحصن وعلى سبيل المثال قصة ذلك الحصان الذي يعاني مدة ثلاث سنوات ، من التهاب في الوعاء اللمفاوي ، التهاب لم يمنعه من الفوز عدة مرات ... فقال جورج : «ولكن هل كانت تـ ..... » فاجابه ايجليزيا : «كانت تأتي للمراقبة عندما كنت اضمده طبقا لوصفة تعلمتها من سيدي الاول ولكن كان علي ان انتبه ل ...» فقال جورج : «ولكنها عندما كانت تأتي هل كنت ت .... اعني هل ...» وكان ايجليزيا يرد عليه وهو لايزال الى جانبه قائلا : ثم ان ذلك لم تكن به اية اهمية : لم يكن يحتاج الى ان يعرف ماذا كان يقوله الفم والشفتان المصبوغتان اللتان كانتا تتحركان ببطء ، ولا ماذا كانت ترده من اجوبة بتلك الشفتين المتشققتين الصلبتين الشبيهتين بشفاه اقنعة الكرنفال ذلك لان الاجوبة لم تكن او على الاصح لم يكن ممكنا ، ان تكون سوى كلمات لا اهمية لها البتة وتافهة (ربما هو وهي كانا يتكلمان عن دواء الحصان او عن الغضروف المنفجر كما يرويه لنا بسذاجته البريئة) ، ويغلب على الاحتمال ان القصة كانت تدور حسب عذري او عن مؤامرة تحاك ملأى بالبشوشرة متفق عليها ، مدبرة تبتدئ ثم تكبر فتتطور وفقا لتصعيد في الاصوات متناغم ومعقول ، تتخلله توقعات لابد منها وحركات كاذبة ، حتى تبلغ الذروة وربما بعد ذلك تأتي فترة راحة ثم يعقبها الهبوط الالزامي في الاصوات : فلا تنظيم فيها ولاتماسك ولاكلمات ولا أقوال تمهيدية ولاتصريحات ولا تعلقيات وانما مايلي فقط : بضع صور خرساء لاتكاد تتحرك تلوح من بعيد : صورة كورين تصدر له الاوامر عند ميدان السباق ، او صورته هو ملطخا بالقذارة والتراب والعشب المسحوق الاخضر المصفر الملتز بسرواله .

وربما كان يعرج قليلا وهو متأبط سرجه الصغير الشبيه بسرج الدمى سرجا كان يتدلى منه الركابان اللذان كانا يتصادمان فيحدثان صليلا كصليل الفضة ، وهو يمشي الى جانبها متوجها صوب الموازين خلف الحصان المبلل المدخن الذي كان يقتاده احد سائسي الاصطبل ، بشعره الوسخ المفرط الطول وملابسه الرثة ووجهه الشبيه بوجه صبي سيئ التربية ، او مرة في صبيحة مشمسة امام الاصطبلات ، فيما كان مرتديا سرواله المرقع الذي اكل الدهر عليه وشرب وجزمته البالية المتشققة وقميصه المكمم وهو يغسل بالصابون ويدلك عراقيب حصان ، وهو مقع على رجليه . وفجأة وعلى البلاطات المبللة عند النافذ ، تراءى ظلها ، وهي متشحة باحد ثيابها الفاتحة البسيطة الصباحية ، او ربما كانت هي ايضا تحتذي جزمة كفارسة وتضرب بالسوط احدى ساقيها بينما كان هو لايزال مقيسا لايلتفت ذات اليمين وذات اليسار ، يواصل تمسيد العرقوب المريض ، الى ان بادرته بالكلام . فنهض حينئذ مشخص ثانية امامها مطأطئا ومنحنيا قليلا الى الامام ، وذراعاه مصطبغان بالصابون حتى المرفقين واثر الحركات التي كان رأساهما يقومان بها ، واثر حركة قام بها بذراعه تبين انهما كانا يتكلمان عن الحصان وعن الرقة ليس الا (اللهم ربما غمزة عين غامضة بين حبيبين ، او طريقة ماكرة للنظر اليها مماثلة لطريقة الصبيان النحاف الممزقي الثياب الارذال الذين يمرون امامك وهم متعلقون برسن الحيوانات المتألقة بخطومها الرذيلة سيئة التغذية وهيئتها الماجنة التي يرثي لها ، وسط اضطرام كهربائي شب في اعرافها وعضلاتها وثيابها المتقزحة) اذن لم يدر الحديث عن الحب ، اللهم الا اذا كان الحب – او بالاحرى الغرام – يعني تلك الحالة الخرساء او الانطلاق او النفور او الاحقاد او حالة لم يجد لها احد صيغة بعد ، ولاشكلا ، اذن كان مجرد تعاقب حركات واقوال ومشاهد لاتعني شيئا وفي المركز وبدون مدخل كانت ارفضاضة او التحاما مستعجلا بين جسمين سريعا وحشيا ، حيثما كان ، ربما في الاصطبل نفسه او

على كدس من التبن فيما كانت تنورتها مرفوعة الى اعلى وهي مرتدية جواربها مع حمالاتها ، مع وميض البرق الذي كانت تطلقه بشرتها الباهرة من اعلى فخذيها ، وكلاهما يلهثان غاضبين خشية ان يفاجئهما احد بينما كانت هي ترصد من اعلى كتفيه بعين مجنونة وعنق مائل ، باب الاصطبل . وقد كانت رائحة محامل الدواب النشادرية تنتشر حولها ، مع ضوضاء الحيوانات وهي في مرابطها . اما هو فتقنع بعد ذلك للتو ببشرته . وهي عبارة عن قناع من الجلد والعظم الذي لم يتغير ولم يخترقه شيئ ، قناع حزين واجم انفعالي كئيب كأنه قناع صعلوك .....

وفوق هذا كله كنت تقرأ بين السطور ، ان صح القول ، ثرثرة غثة لازمت جورج واصبحت بالنسبة اليه ليس شيئا لايفترق عن امه رغم كونه متميزا عنها (كأني به يفلت منها كموج او كمادة افرزتها هي) ولكن امه بالذات ، ان صح القول ، كما لو كانت العناصر التي تكون امه (شعرها البرتقالي المتألق واناملها الماسية وثيابها مفرطة الشفافية التي كانت تصر على ارتدائها ليس رغما عن سنها ولكن ، على مايبدو ، وفقا لعمرها . وان عدد الالوان وبريقها وشدتها كانت تتزايد مع تقدمها في السن) لم تشكل سوى الدعم اللامع الصاخب لتلك الثرثرة الذلقة الموسوعية التي ظهر خلالها الـ ريكساك ، في معمعة اقاصيص الخدم والخياطات والحلاقين والمتعلقين والمعارف التي لايحصرها عد ، ولا أقصد هنا كورين وزوجها ولكن ذرية ال دي ريكساك وعرقهم وطبقتهم الاجتماعية وسلالتهم ظهروا فيها حتى قبل ان يدنو هو من احدهم وهم مطوقون بهالة من الصيت فائقة الطبيعة منيعة بعيدة المنال ، لاسيما وانها لم تكن ترتكز على ملكية شيئ معين (كالشراء مثلا) يمكن امتلاكه على أمل ان يمتلك المرء شيئا يوما لنفسه لابل امكانية ، ولو افتراضية ، لامتلاكه تنزع منه حبيبته ولكن هناك اكثر من ذلك (اعني اكثر من الثراء او بالاحرى مايسبقه) واقصد هنا الارتكاز على اللقب والدم الذين كانا يمثلان بالنسبة لسابين (ام جورج) قيمة ومجدا ، ولم يكن ممكنا

الحصول عليها فحسب (لانها كانا يتكونان اساسا من شيء يستحيل على كل سلطان منحها او استبدالها ، وهذا الشيء هو القدم والزمن) وانما كانت تعاني بسببها من عاطفة نغصت عليها عيشها ومن حرمان شخصي لكونها هي بالذات (ولكن للاسف عن طريق والدتها) واحدة من ال دي ريكساك : ربما هنا كان يكمن اصرارها وعزمها وتشبثها المرضي الذي لاينقطع (فضلا عن حسدها المستمر وخوفها من الشيخوخة وشؤون المطبخ والمخزن المنزلي ، فان هذا كان يشكل جزءاً من المواضيع الثلاثة او الاربعة التي كان يدور فكرها حولها بدون شك ، بضراوة الحشرات الرتيبة العنيدة الساخطة المعلقة في الشفق المتطايرة الحوامة بلا هوادة حول مركز سطحي غير مرئي ولاوجود له الا في مخيلتها) اصرارها على ان تستنكر بدون انقطاع صلات القرابة التي لانزاع حولها والتي تربطها بهم ، صلات معترف بها ، كما يشهد على ذلك حضور شخص من ال دي ريكساك في الصورة التذكارية لزفافها وهو بزي ضابط خيال ، في الفترة السابقة للحرب العالمية الاولى ، وكان يؤيد هذه الصلة علاوة على ذلك ، امتلاك الفندق العائلي الذي ورثته بدون ان ترث اسمه ولقبه على اثر تقسيم التركة والميراث . وفي رأي القسام الشرعي ، ربما كانت الوحيدة التي تعرف هويتها العائلية بل ربما كانت الوحيدة ايضا التي تعرف ، من ظهر قلبها القائمة الطويلة العريضة للمصاهرات والزواجات غير المتكافئة السابقة . فهي تروي لك كيف ان الجد البعيد الفلاني لدي ريكساك سقطت حقوقه كنبيل لمخالفته اعراف طبقته الاجتماعية ، بانهماكه في التجارة . وكيف ان الاخر الذي كانت تشير الى صورته ... (لانها كانت ورثت صورا شخصية كثيرة من معرض زاخر او بالاحرى من مجموعة للاجداد او الاحرى للاباء . فقال بلوم مقاطعا : «او الاصح للفحول لانه هكذا يليق ان نسميهم في عائلة كهذه في رأيي . اليس للجيش هناك مركز شهير لتربية الخيول او مربط ؟ اليس هذا ماتسميه الناس بسلالة اهل تارب مع اختلافاتهم ... — فقال جورج ، حسن ، حسن فلنوافق على لفظة فحول . أما

هو فرد يقوله – ... اصيل ، ونصف اصيل ، غير خصي ، خصي فقال جورج : حسن ولكن هذا أصيل انه ... «فقال بلوم : » ذلك امر واضح . ولم اكن بحاجة الى ان تقوله لي . تزاوج تاربي عربي بدون شك او تارني عربي . اه كم كنت اود ان أراه مرة بدون هذه الجزمة «فقال له جورج : « لماذا ؟ » «فقال بلوم :» لمجرد ان اتأكد مما يحمله . لانه يخيل الي انه يحمل حافرين بدلا من قدمين . لمجرد ان اعرف فقط من اي جنس من البغلات كانت جدته ... «فقال جورج : حسن . الامر كما يرام . قد ربحت انت ...» . كان يتصور انه يرى الوريقات والمعاملات المصفرة الاوراق التي ارته اياها سابين يوما ، وقد كانت حفظتها بحرص بالغ في احد الصناديق المشعرة التي نعثر على بعض منها في الاهراء ، حتى وقتنا هذا وقد قضى ليلة كاملة ، وهو مضطر الى ان يمخط كل خمس دقائق بسبب الغبار الذي كان يجفف انفه ، في تصفح المستندات الموثقة التي ابيض حبرها وعقود الزواج وعقود شراء الاراضي والوصايا والاجازات الملكية والبعثات التبشيرية ومراسيم الجمعية التأسيسية ورسائل انكسر شمع ختمها واكداس الحوالات الحكومية وكشوفات الديون الاقطاعية وتقارير عسكرية وقوائم الصاغة وتعليمات ، وشهادات العماد وبيانات الوفيات وشهادات الدفن وانقاض طافية وقطع مختلفة ورقوق غزال شبيهة باجراء القشرة الخارجية للجلد ، بحيث انه عندما كان يلمسها ، كان يتصور انه يلمس في الوقت نفسه (وهي متقرنة قليلا ومتجففة كايدي الشيوخ المبقعة ، خفيفة وهشة رمادية مستعدة على مايبدو لان تتكسر وتتساقط كالرماد عندما تلامسها اليد ، ولكنها مع كل ذلك حية – يلمس عبر السنين والزمن المحذوف جلد الطموحات والاحلام والاباطيل والاهواء الزائلة التي لايعفو عليها الدهر) وكان يوجد فيما بينها دفتر سميك ازرق الجلد ، رث ، مشدود بأشرطة زيتونية اللون ، كان قد كدس في صفحاته واحد من الاجداد (او الابناء او

الفحول كما ادعى بلوم) خليطاً عجيباً من القصائد والاستطرادات الفلسفية ومشاريع تراجيديات والصلات المقامة ابان الاسفار ، صلات كان بأمكانه ان يتذكر حرفيا بعض العناوين الدالة عليها («باقة مرسلة الى سيدة عجوز كانت لها قصص غرامية في شبابها رغم كونها قبيحة») او بعض الصفحات كالصفحات التالي نصها وهي منقولة عن الايطالية ، على مايبدو ، لورود ترجمة بعض الكلمات في هامشها :

مرونة الرشمة الثامنة والعشرون والثلاث الاخر المشابهة لها

مطاطية جميلة كلها ونبيلة وتبدو وكأن يدا واحدة صنعتها . كل جزء

رهافة من اجزاء المرأة السنتورية وسيم ورهيف وكل شيْ فيها يستحق ان تنظر الناس اليه بانتباه خاص ، على سبيل المثال ،

ابيض ناصع العقد او المفصل حيث ينتهي الجزء البشري بالجزء الحصاني

بشرة هي جديرة بالاعجاب والعين تميز رهافة البشرة البيضاء الناصعة للمرأة ووضوح الشعر البراق عند

حركة البهيمة وبعد ذلك لايمكنك التمييز ، اذا اردت تثبيت الحدود . ان هيئة اليد اليسرى التي تلامس بها حبال القيثارة مريحة . وكذلك هي الحال مع اليد الاخرى التي تبدو

جيد جدا وكأنها تريد ان تقرع بها جزءا من الصنج الذي تمسكه بيدها اليمنى . والجزء الاخر الذي وضعه الرسام تبعا لفكرة شريفة توخاها

بشكل مغاير فن الرسم (الكلمات الاربع الاخيرة مشطوبة) رائعة في اليد اليمنى للرجل الذي يعانقها عناقا شديدا مادا تحت الابط الايمن لهذه المرأة يده اليسرى التي تعود فتخرج من تحت كتفها

خصوبة ثوب الشاب بنفسجي والثوب الذي يرفرف متدليا على كتف المرأة

السنتورية أصفر : وتحسن ايضا ملاحظة التسريحة والاساور وجر الزمام والتماسك الشديد القائم بين السنتور والاله باخوس والهة الحب فينوس .

فقال جورج وهو يفكر : «اجل ، ليس هناك سوى حصان واحد استطاع ان يكتب هذا » ثم عاد فقال : «حسن ، حسن جدا ، فحول» فيما كان يفكر بكل هذه الكلمات المبهمة الجامعة التخطيطية التي كانت تثبت في اطاراتها الذهبية ذريتهم بنظرة تأملية متباعدة وكان من بين هذه الصور واحدة تتبوأ مكاناً مرموقا هي تلك الصورة الشخصية التي تأملها مدة طفولته كلها ، بشيءٍ من عدم الارتياح والذعر . لانه (اي الاب البعيد) كان يحمل في جبينه حفرة حمراء ينضح منها الدم ويجري في اخدود ملتو طويل عند الصدغ ، متجهاً صوب منحنى الخد ، متقطرا على بطانة بدلة الصيد الزرقاء الملكية ، كما لو ان احداً ، وذلك لابراز الاسطورة الغامضة التي كانت تكتنف ذلك الشخص ولتخليدها ، اذن كما لو ان احدا رسمه بصورة مضرجة بالدم بعد اطلاق الرصاصة عليه ، رصاصة أودت بحياته . كان واقفا هناك غير هياب ، عزوما كالحصان ، لائقا في وسط هالة من الاسرار والموت العنيف (كغيره من النبلاء الاذكياء وجنرالات الامبراطورية المحتقنين والمتزينين وزوجاتهم اللابسات اشرطة سوداء) والغطرسة والطموح والمجد الزائل او الترهات . كان ان صح القول ، قد اخبر جورج ، قبل ان يسمع من سابين بمدة طويلة (ربما كانت هذه مدفوعة بالرغبة الغامضة نفسها التي كانت تجعلها تشير بوضوح الى سقوط الشخص الذي كان يفاوضها ، اعني انها كانت تدفعها عواطف متضاربة ، وربما انها لم تكن تعرف هي ايضا ما اذا كانت بسردها هذه القصص المفضوحة او الفاضحة او المأساوية ، تتوخى الحط من قيمة هذا النبل وهذا اللقب الذي لم ترثه ، او انها تتوخى ايلاءهما المزيد من الاشعاع ، لكي تزداد كبرياء وخيلاء ، مستندة الى القرابة والصيت) كيف نبذ

دي ريكساك لنفسه لقبه النبيل ليلة الرابع من آب ، ان صح التعبير ، وكيف به يحتل بعد ذلك مقعدا في الجمعية التأسيسية ، وصوت على حكم الاعدام بحق الملك وكيف اصبح ، فيما بعد ، نظرا لمعارفه العسكرية ، مستشارا في الجيش ثم بعدها لقي مصرعه بأيدي الاسبان ، ثم بعد ان تنصل عن لقبه مرة ثانية ، جاء لكي يموت برصاصة هشمت دماغه ، اطلقت من مسدس (وليس من بندقية وان بدلة الصيد التي يرتديها في الصورة والسلاح الذي كان يحمله بدون اكتراث في عمق ذراعه ذكراه بأيام طفولته ، وكذلك الاثر الدموي الذي كان ينزل في الصورة الشخصية على جبينه لم يكن بالحقيقة سوى المحاولات الاستعدادية للوحة القهوائية الحمراء التي ، ولما تكتمل حدث فيها شق كبير) . ثم انتصب واقفا بالقرب من مدخنة الغرفة التي اصبحت الان غرفة سابين ، حيث لم يتمكن جورج ، خلال فترة طويلة ، من ان يبحث غريزيا في الحائط وفي السطح عن اثر بندقية الرصاص الضخمة التي اطاحت يوما بنصف رأسه .

واذ كانت عائلة دي ريكساك تعطي لنفسها هذه الصورة العريقة ، خلال الثرثرة القاتلة التي هي ديدن النساء ، وبدون ان يحتاج جورج الى ملاقاتها ، فأنها اي عائلة دي ريكساك ثم دي ريكساك نفسه منفردا وخلفه زمرة اجداده تتدافع وتتراص كأني بها اشباح تحيق بها الاساطير وحكايات الليل وطلقات المسدسات والسندات الموثقة وصليل السلاح التي (اي الاشباح) كانت تتماذج وتتصارع في اعماق اللوحات المتشققة القديمة المزفتة القائمة ثم ان دي ريكساك وقرينته تلك الشابة التي تصغره بعشرين سنة تلك التي كان قد تزوجها قبل اربع سنوات وسط شائعات وهمسات دارت حول فضيحة ، ذلك الزواج والناس تحتسي الشاي مثيرة انفجار غضب واستياء دفينا وحسدا وشبقا، شائعات لابد ان تصاحب احداثا كهذه : كانا اذن (الرجل ناضج جاف ومستقيم الهيئة – بل أنه صلب – لا يمكن النفاذ اليه والمرأة الشابة البالغة من العمر ثماني عشرة سنة كنا

نستطيع رؤيتها في هيئتها الشفافة البعيدة عن الحياء، مع تسريحة شعرها وجسمها وبشرتها التي كانت تبدو مصنوعة من مواد مماثلة ثمينة غير واقعية تقريبا، لا يمكن لمسها تقريبا ايضا كالمواد الحريرية والعطور التي تغطيها. اما هو فقد كان مرتديا معطف فارس احمر (كانت قد حصلت له على استقالة من الجيش) في اثناء استعراض السنوي للخيول او عندما كانا يجتازان، لايصلهما احد وهما داخل السيارة الضخمة السوداء بفخامة ومهابة السيارة الجنازة تقريبا (وكما قد اجبرته على التخلي عن الجيش فانها اجبرته ايضا على شراء هذه السيارة، عوضا عن السيارة الاعتيادية التي كانت تستعملها حتى ذلك الحين) كانا اذن او اقل كانت هي وحدها داخل هذه السيارة تسوقها لانه قدمها لها هدية (ولكن هذه الحالة لم تدم وانما ازعجتها دون شك بسرعة) كانا محاطين، بهالة وهما في الحقيقة من المناعة وعدم الواقعية بحيث انهما كانا يندرجان وهما على قيد الحياة (او في الاقل يندرج هو وحده) في مجموعة الاباء الاسطوريين الذين تجمدوا الى الابد داخل اطار المذهب الكامد) كانا إذن محاطين بهالة...

فقال بلوم: «ولكنك لامعرفة لك بها البتة!. قلت لي انهما ليسا هنا ابدا وانما في باريس او في دوفيل او في مدينة كان وانك رأيتها مجرد مرة واحدة، او بالاحرى لمحتها كعجز حصان، او كأحد الاشخاص الذين يرتدون ازياء ممثلي اوبريت مدينة فينا، عليهم سترة وقبعة رمادية وناظور صغير مثبت في العين وشارب يشبه شارب جنرال طاعن في السن...ترى هل هذا كل مارأيته منها؟ انت؟....»

كان رأس بلوم ايضا اشبه برأس غريق لم يصح جيدا بعد، ولم ينتعش لذا فقد سكت هازا كتفيه. كان المطر قد اخذ يسقط او بالاحرى كانت البلاد والطريق والمروج قد عادت تذوب صامتة هادئة متحللة منصهرة، لتصبح رذاذ يتطاير بدون ان يحدث صوتا. كانت الأشجار والمساكن اشبه بصفيحة من

بلور. اما الان فقد كان جورج وبلوم واقفين على عتبة مستودع الحصيد تحت مخبأ الحائط وهما ينظران الى دي ريكساك مستسلماً لمشاجرة مع رهط من الرجال كانوا يكثرون من الحركات ويحتدون ويتجابهون، فيما كانت اصواتهم تتمازج وكأنهم جوق مرتلين متنافر الاصوات مضطرب، يطلقون صيحات كصيحات اهل برج بابل، وكانت صورة كلامهم الساخرة مع خبث الأشياء التي صنعها الانسان واستعبدها لنفسه وانقلبت ضده وراحت، غير هيابة، تنتقم منه بغدر وقوة، كأني بها تؤدي المهمة التي اوكلت اليها، وهي ان تقف حاجزا امام كل اتصال وكل تفاهم.

وبدأت الاصوات حينئذ تتصاعد، كأن سلم الاصوات بات عاجزا، اذ لم يبق لها (اي الاصوات) امل سوى في قوتها، حتى تحولت الى صراخات يحاول صراخ ان يتغلب على صراخ وان يطغي عليه...

ثم اختفت فجاة كلها معا، تاركة المجال لواحد منها اقواها واعلاها.

ثم ان هذا ايضا كف فاصبح بالامكان سماع صوت دي ريكساك وحيدا، وكأنه حسيس يخرج ببطء وتوأدة، بينما كان وجهه الشاحب (لان الغضب او بالاحرى الانزعاج او مجرد الضجر كان ينعكس على صوته المحايد الخافت العديم النغمة بانخفاض النبرة، ان صح القول، او في تغيير سلبي نوعا ما لان جلده الكامد كان مايزال شاحبا– اللهم الا اذا لم يكن الشحوب والصوت الخافت سوى مجرد ملل رغم وقوفه دائماً مستقيما صلبا، وهو محتذ جزمته البراقة التي لم يكن ايجليزيا بعد قد استطاع صبغها ذلك الصباح جزمة كان عليه ان يصبغها بنفسه، بعناية بالغة وبجرأة موليا عمله هذا العناية نفسها التي يوليها حلق لحيته وتنظيف ملابسه بالفرشاة وعقد ربطة عنقه، وكأنه نسي انه في قرية ضائعة من منطقة اردين، وكأنه نسي انه في حرب، وكأنه هو ايضا لم يقض الليل كله على حصانه تحت المطر) وجهه الشاحب اذن وجهه الذي لم يتورد بالانعاش ولابالبرد وجهه الذي

يتناقض مع الوجه الشديد الاحمرار الضارب الى البنفسجي، اي وجه الرجل الاسمر القصير الذي كان واقفا امامه على عتبة الدار وهو معتمر خوذة مقدمتها من الجلد، ومحتذ جزمة من مطاط مرقعة، ملوحا ببندقية صيد خطرة.

وعندما خطا خطوة وتقدم مبتعدا عن الباب لاحظ جورج وبلوم انه يعرج فقال جورج: « ولكني رأيتها فترة كانت تكفيني لان أعرف انها كانت بيضاء كالحليب. كان ذلك المصباح كافيا. تبا لك. كانت بيضاء كالحليب تماما او كالقشدة المهراقة...» فقال له بلوم : «ماذا؟» فاجاب جورج«ولكنك، ويحك لم تكن صريعا لكي لاتلمحها، أليس كذلك؟ حتى ان الميت ....كان المرء يشتاق ويهفو لان يزحف وان يلحس...» حينئذ صرخ الرجل الاسمر القصير قائلا: «لو تقدمت خطوة واحدة لنزلت !»فتدخل دي ريكساك قائلاً: «هيا. هيا رويدك» فقال الرجل يانقيبي: «لو تقدم خطوة فسوف انزله لامحالة». فقال دي ريكساك ثانية: «هيا». تقدم خطوة. فوقف بين الرجلين، وأحدهم هو ذلك الذي يحمل البندقية والاخر كان نائب ضابط يشبه شبها قريبا جدا صاحب المزرعة بل هو نسخة مطابقة له، كان يحتذي هو ايضا جزمة سوداء من مطاط تكسوها رقع صغيرة، ولم يكن لابساً بزة زرقاء ولكن بدلة رمادية لاشكل لها معها شئ يشبه ربطة عنق تشد قميصه، وعلى رأسه قبعة من لباد لين، بدلا من خوذة، قريب الشبه في ذلك لرجل المدينة، ويحمل بيده مظلة او كان يشبه فلاحا ايضا ولكن يختلف عنه بعض الشئ. وفي وقت مارفع عينيه بسرعة، فرأى جورج ايضا ماكان ينظر اليه هو فوق رأس النقيب. ولكن ربما لم ينظر بسرعة كافية لانه لم يستطع ان يرى خلال احدى نوافذ الطابق الاول من البيت، الستار الذي كان ينزل، ستارا كأنه شبكة، رخيص الثمن كالستر التي تباع في المعارض، ستارا مرسوما عليه شكل طاووس بذيله الطويل الذي يكنس الارض، داخل اطار بشكل معين جانباه المائلان يشبهان درجات سلم يبلغ عددها عدد زردات

الشبكة. واذ تحرك ذيل الطاووس مرة او مرتين تجمد بعد ذلك بينما كانت الجلبة قد عادت فوق (ولكن جورج لم يعد ينظر واكتفى بأن يرصد بينهم، الشبكة البيضاء المائلة الى الرمادي، الجامدة حيث كان الطاووس الزخرفي المختال واقفاً وراء الرذاذ المتساقط خارجاً صامتاً صبوراً ابدياً) تتعالى متنافرة فوضوية شديدة غير متماسكة حماسية: «...سوف انزله لامحالة. ادخل يانقيبي ان شئت انت ولكن هذا الرجل لن يمر من هذا الباب والا انزلته أنا– هيا ياصديقي».

ان السيد المساعد يريد مجردالتأكد من ان هذه الغرفة – ثم قبل كل شيء لم لايؤويهم في بيته لأن بيتا كبيرا فيه غرف كثيرة فارغة يـ... انظر لست اقدر على الدخول في مثل هذه الاعتبارات، بامكاني ان اقود بنفسي نواب ضباطك الى الغرفة. انا لاارفض ايواءهم ولكن هناك في القرية اناساً لديهم ثلاث غرف او اربع فارغة لذا فاني اود ان اعرف لماذا هويـ... وانت كف عن المزاح والا لاانزلك،هل تسمع. لاتبرح مكانك. افلا تسمع ايها الـ..» وفيما كان احدهم يتنكب سلاحه ويصوبه انسل الاخر وراء نائبي الضابط وحتى في تلك اللحظة لم يتحرك الطاووس كما يتحرك اي شيء اخر. فقد كانت واجهة الدار شبه ميتة. وكل الدار شبه ميتة الا تنهدا منتظما رتيبا مأساويا كان يتصاعد من الداخل وقد كان بالتأكيد تنهدا صاعدا من حلق امرأة ولكن ليس منها بل من كورين. ولكنه كان يتعالى من صدر امرأة عجوز ورغم انهم لم يروها استطاعوا ان يتصوروها جالسة على مقعد عمياء سوداء جامدة. تتحسر مرجحة جسمها تارة الى الوراء وطورا الى الامام.

كان يبذل كل ما في وسعه لكي لا يرفع الصوت. او ربما لم يكن له ان يبذل جهدا بل واقفا في الخارج بعيدا كعادته (لا متعاليا اذ لم يكن عنده ذرة من الكبرياء والاحتقار بل مجرد بعيد او بالاحرى غائب) وهو يقول: «دعك من هذا السلاح لانه باستعمال امثاله تحدث الحماقات»، فرد عليه الرجل: «اية

حماقات ؟ هل تسمي هذه حماقات ؟ امرأة نذلة تريد اغتنام فرصة غياب زوجها لتدخل في وضح النهار في بيت ، هوبـ . . .» فزمجر وقال : «هيا ولّوا من هنا .» فأجاب الاخر : «سيدي النقيب ! انت تشهد انه . . . .» – فقال دي ريكساك :«هيا بنا . هيا انتم كلكم شهود انه . . .» فقال دي ريكساك : «بما انه يقول صراحة انه يتطوع لايوائهم جميعا» .

ولكن دون جدوى انتظر جورج لحظة طويلة لانه لم يظهر من النافذة ماخلا الطاووس . وقد ظهر بشكله الابيض الرمادي ، جامدا بينما كان صوت المرأة العجوز ينبعث دون انقطاع من الداخل رغم ان الباب كان موصداً . كانت تسترسل في اطلاق اناتها المنتظمة الرتيبة بصوت عارم لا ينقطع ، مثل نائحات العصور الخوالي ، كما لو ان كل هذا (هذه الصراخات وهذا العنف وانفجار الغضب هذا الذي لا يفهمه احد ولا تمكنه السيطرة عليه وهذا الهوس) لم يكن يحدث في عصر البنادق والجزم المطاطية والرقع الجلدية والبدلات الجاهزة ، وانما في عمق الماضي ، او في عمق التاريخ السحيق ، او خارجا عن الزمن ، او في كل الازمنة ، بينما كان المطر يهطل باستمرار ، وربما كان يهطل منذ الازل ، فيما كانت اشجار الجوز في البستان تتقطر الى مالانهاية : لكي يراها المرء ، كان عليه ان ينظر اليها امام شيء غامق اللون ، او امام ظل او حافة سطح ، بينما كانت قطرات المطر السريعة تمحو اخاديد لا تكاد ترى ، وكأنها خطوط ضعيفة ، كانت هذه القطرات تتشابك رمادية اللون ، كانت الكبيرة منها تلوي ورقة عشب تنتصب فورا بعد هزة قصيرة ، بينما كان المسرح جامدا ، ولكنه يرتعش بين مكان وآخر ارتعاشة خفيفة : كانت الدور ومستودعات الحصيد تحدد معالم الجهات الثلاث تحديدا غامضا بمستطيل غير منتظم ، حول مسقى او معلف حجرى او في الماء المتجمد . كان جورج يحاول ان يغسل بعض الملابس ، فيما كانت يداه متجمدتين متخدرتين ، وهو يفرك الصابون بحافة الحاشية المبقعة ،

حيث كان القماش المبلل يلتصق ويتلون بالوسخ الرمادي الشبيه بالسماء الرمادية ، مع جيوب هوائية محاصرة من تحت ، وهي ترسم التجاعيد والخطوط والبروزات بلون رمادي افتح . وعند امراره الصابون عليها كانت تنكسر لتصبح طيات متوازية وغيما متعرجا . غيما مائلا الى الزرقة ينتشر في الماء . وعندما غسلها بالماء ، اخذت فقاعات زرقاء تتدافع وتتلاحم وتتوالد ببطء شاقة لنفسها طريقا ملتوية منزلقة عبر الطين الاسود الذي اشبعته الحيوانات دوسا ، حيث كان الماء يجري من اثر حافر الـ اخر ، ولكن الملابس خرجت في النهاية رمادية تقريبا مثلما كانت قبل الغسيل فقال بلوم : «لِمَ لم تطلب منها ان تغسلها لك ؟ خشيت ان يطلق عليك زوجها الرصاص ببندقيته ؟» - فاجاب واك : «لست اخشى زوجها مطلقا» ثم لزم الصمت وكأني به ندم على ماقاله . فاطرق ثانية وحنا وجهه الشبيه بوجه فلاح الزاسي ، صامتا ، معاديا ، نحو السطل الذي كان يفرك فوقه شكيمته وركابيه برمل رطب فقال له جورج : «وما ادراك بذلك ؟» اما واك ، فكان يلمع معادن مطيته ولم ينبس ببنت شفه فكرر جورج عليه السؤال : «وما ادراك بذلك ؟ وما الذي تعرفه عن ذلك ؟» لكن واك لم يحرك رأسه ، فيما كان وجهه ينظر الى الاسفل ، الى السطل ، وفي النهاية قال ممتعضا حانقا : «اعرف ذلك»

فضحك مارتن قائلا : «لقد ساعدهم قبل قليل في نقل البطاطا الى الداخل . الخادم هو الذي قال له ذلك :«ان هو الا اخو . .» فقال بلوم «ولكن اين الزوج ؟ هل يتسكع في المدينة ؟» بعد ان عاد واك من احدى الغرف قال : « امثالك يتسكعون ايها الاحمق ، وخوذته على رأسه .» فقال بلوم : لقد نسيت ان تسميني بالقذر . لا لست احمق ، انا بلوم . كان الاجدر بك ان تتذكر هذا فقال جورج : «هيا» فاجاب بلوم : دعك من هذا . اه لو عرفت كم احتقر هذا . . . . «فقال جورج : «اذن الامر على هذه الشاكله . فقد ساعدتهم على ادخال البطاطا والخادم هو الذي روى لك القصة ؟ وكان صوتهم ينطلق من

الغرفة ليخترق المطر الرمادي الذي لم يكف عن الهطول صابرا (وكأنه ملايين الحشرات التي لا ترى وهي تقضم وتلتهم البيوت والاشجار والارض كلها جميعا) بينما كانت الشكائم والركب ترن احيانا رنينا قويا : كانوا مجرد جنود تتصاعد اصواتهم الخافتة الرتيبة الواحد تلو الاخر ، متصادمة متلاحقة متجابهة ، ولكن كما يدور الحديث بين الجنود ، اعني كما ينامون ويأكلون صابرين منفعلين سئمين ، وكأني بهم مرغمون على اختلاق اسباب للخصام او اسباب للكلام . كان مستودع الحصيد لا يزال يبعث رائحة «الشرشف» المبلل بالشوفان . وكأنما حين يفغرون افواههم كان يهب منها ضباب رمادي يتلاشى بعد ذلك فورا .

– ولكن لماذا كان يريد بكل قواه ان يطلق الرصاص ؟

ربما لانها الحرب والكل ...

– هل انت جاد ، الكل ..

: ولكنه اعرج وقد رفضته الجندية .

– شجاعة فائقة . لست اعلم ماذا اعطي لكي اكون انا ايضا كذلك ولا ...

: لا شك ان هذه ليست طريقة تفكيره . فهو يبدو وكأنه يحب البنادق ويرغب في استعمالها . وربما هو مستعد لان يعطي كل شي لكي .....

– والآخر .... ؟

: تريد ان تقول نائب رئيس البلدية ؟

– لاتحاول اقناعي ان في قرية كهذه لاتتكون من سوى اربعة بيوت رئيس بلدية ومساعد رئيس البلدية – ولم لاتقول اسقفا ايضا ؟

– لم اجد كنيسة

– نستدل من هذا انها لاتستطيع الذهاب الى الكنيسة لتعترف ...

– ربما ، قد ....

– لاكاهن ولاصيدلي ولاشبكة مياه . وهذا مما يجعل الامور صعبة للغاية . وربما

كان هذا سبب مراقبته لها وعلى كتفه بندقية .
– ماهذه الحماقات التي تنطق بها ايها الوغد ؟
– ايه . فقد استيقظ واك . كنت اظنك اصم . كنت اتصور انك لاتريد ان تتكلم مع واحد قذر مثلي .
– قلما يهمني ذلك ايه . واذا لم يكن يهمني فبأمكانه ان يطلق علي اي اسم يـ ....
– يالله . كف عن الهذر . واخيراماذا حل بهذا الجواد البجير؟

فنظروا الى الجواد المنبطح على منكبه في عمق الاصطبل : كانوا قد القوا عليه غطاء ، ولم يكن يظهر منه سوى اطرافه الجامدة ، ورقبته الطويلة الهائلة ، كان يتدلى في نهايتها رأسه الذي لم يكن قد بقي فيه من القوة مايكفي لرفعه . لم يكن قد بقي فيه سوى العظام .

وقد كان ضخما مستعرضا . كان شعره مبللا واسنانه الطويلة صفراء ، كانت تكشر عنها شفتاه المنفرجتان . لم يكن قد بقي فيه علامة على الحياة الا في عينيه الكبيرتين ، الحزينتين وفي داخلها ، على سطحها البراق المنتفخ ، كانوا يستطيعون ان يتمرأوا ويرى بعضهم بعضا ، بينما كانت اشباحهم مشوهة تختبئ عند اطراف الباب ، وكأنها ضباب يميل الى الزرقة او كستار او كودقة كانت قد اخذت تتكون على القرنية لتحجب الرؤية عن نظرته الزوبعية الحلوة الشاكية الرطبة .
– جاء البيطري وشرطه بالموسى .
: انا اعرف مابه
– واك يعرف دائما كل شيء . انه ....
: ان مارتن هو الذي ينهال بضربات من خوذته على رأسه عبر كل المراحل التي نقطعها ، فقدضربه كثيرا طوال الليل . واني رأيته يرتكب ذلك . واني لاراهنكم على انه قد كسر شيئا في جسمه .

– ليست هناك طريقة اخرى لمنعه من الكردحة
: لو قرع في اذنيه بضع قرعات جرس فانه ل ـ .....
– بقرع الجرس لاتستطيع ان تمنع الحصان من العدو القصير لانك تفقده صوابه .
: على اية حال لاتجوز معاملة الحيوان معاملة كهذه .
– كما انه لايجوز ان تعامل شخصا هذه المعاملة . ستون كيلومترا قطعها بدون ان يتوقف عن النط ككرة . وهذا لما يجعل الحيوان او الانسان فاقدا العقل تماما .
: بامكان المرء ان يفعل شيئا اخر بدلا من هذا الضرب المبرح بالخوذة . فقال ايجليزيا :
«انا لست فارس سباق ولكني خراط»
– بما انك على هذا القدر من الذكاء ، وانك تحب الجياد الرديئة الى هذا الحد فلم لاتتبادلان حصانيكما . ماعليك الا ان تمتطيه انت فهو لايبحث عن شيءٍ افضل من ان يحيله اليك . فهو ...
: ولكن ماذنب هذا الحيوان اذا عدا عدوا قصيرا .
– لاذنب له مطلقا ولاذنب لمارتن ايضا . كما ان الحالة لاتسره هو ايضا . وليس لك سوى ان تقترح المبادلة .
: ليس لي ان اغير حصاني . انا امتطي الحصان الذي خصصت به . اما الحصان الاخر فهو حصانه .
– صه ايها الـ .....
: يالك ....
– من الافضل لك ان تسكت
: لست صرصرا .
– ذلك خير لك .

:الا تتصور انك قد تخيفني ؟ ربما لااملك علما مماثلا لعلمك ولكنك لاتخيفني .
يكفيني ان ادفعك لكي تقع .
– حاول اذن .
:يالك من ضعيف . حتى انك لاتستطيع ان تقف على قائمتيك . انت نصف
ميت . لعلك تحاول ان تتنطع ....

وواصلوا المشاجرة ، بينما كانت اصواتهم بعيدة عن الفظاظة ، بل فيها بالاحرى شيئ من المرارة يشوبها نوع من الخمول الخاص بالفلاحين والجنود ، او قل هي اصوات لاشخصية تشبه بزتهم الصلبة فيما هم يحتفظون (لم يكد الخريف قد حل بعد ، الخريف الذي عقب صيف السلام الاخير ، الصيف الباهر والفاسد معا الذي كان يخيل اليهم انهم يرونه انذاك بعيدا كواحد من الافلام الاخبارية رديئة الاخراج التي بليت من الاستعمال ، حيث كانت الاشباح ، وسط ضياء يذيب كل شيئ ، محزومة ومحتذية ، تتحرك بطريقة منتظمة ، كما لو كانت عارية .

لم تكن تتحرك بتوجيه من ادمغتها الفظة الخشنة الغبية ولكن بتوجيه آلي يتعذر ايقافه كان يجبرها على التحرك والدوران والتهديد والاستعراض ، كالمجانين يدفعهم فوران يعمي البصر ، تتعالى فيه البيارق والوجوه ، فكأني به هو الذي يولدها ويسيرها ، كما لو ان الحشود تملك شبه موهبة او غريزة لاتخطئ تجعلها تميز في باطنها وتدفع الى الامام بحركة هي حركة الانتقاء الذاتي – او الطرد او بالاحرى الافراغ بالمعنى الطبي – الغبي الخالد الذي سوف يلوح باللافتة والذي سوف تتبعه في ذلك الانخطاف الصوفي والانبهار حيث تطمسها كالاولاد رؤية برازها) . كانت بزتهم تحتفظ اذن بمظهرها الجديد ، البزة التي اتخذوها فراء لهم ، ان صح القول : لااقصد هنا الهدمة القديمة التي بليت ورثت من جراء التدريب ، الهدمة التي لبستها عدة مواليد وعقمت بالدواء الرشاش فلا تصلح لسوى حمل السلاح ، وكأنها زي تنكري متهرئ مستأجرا ومشترى بالتقسيط من بائع البسة

مستعملة ، هدمة توزع على الممثلين الصامتين لكي يرتدوها خلال فترة التدريب ، مع السيوف البيضاء ، مع مسدسات مملأة ولكنها (القيافة والتجهيزات التي كانوا يحملونها على ظهورهم) هدمة جديدة تماما لم يمسسها احد ، وكل هذه الكسوة (قماشا كانت اوجلدا او حديد) من النوعية الممتازة ، كالشراشف التي لم تتلوث ، الشراشف التي تحتفظ بها العوائل بحرص بالغ لكي تكفن بها موتاها ، كما لو أن المجتمع (او الوضع الراهن او النصيب او الحالة الاقتصادية– بما انه يبدو وان امورا كهذه هي مجرد وليدة القوانين الاقتصادية) الذي كان يتأهب لقتلهم كان قد غطاهم (شأنهم في ذلك شأن الشباب الذين كانت الاقوام البدائية تقدمهم ضحايا لالهتها) بأفضل مالديه من اقمشة واسلحة، صارفا بسخاء وفخفخة بربرية اموالا طائلة على اشياء لن تكون يوماً سوى اشلاء حديدية متصدئة ومعوجة، او بضع مزق هائلة تطفو على هياكل عظمية (حية او ميتة).

وفيما كان جورج منبطحاً في ظلام قطار الحيوانات الدامس النتن كان يفكر: «ولكن هل بلغ الامر بنا الى ....؟ انها حكاية عظام معدودة...» واذ واصل التفكير: «آه. لقد ادركت الحقيقة: فقد رقموا اقطاع اشجاري لكي يخطوا المرور في الطريق...وعلى اية حال شيءٌ من هذا القبيلُ». حاول ان يطلق ساقه من جسمه الذي كان يثقل عليها. لم يعد يحس بها الا كشيءٌ لاحراك فيه، كشيءٌ بات غريبا عن جسمه، ولكنه مع هذا لايزال عالقا داخل وركه مؤلما كمنقار من عظم. انها سلسلة من عظام مترابطة متداخلة تداخلا غريبا في مابينها، او سلسلة من المواعين تطقطق وتصر.

كان الهيكل العظمي حسب تفكيره ماوصفناه قبل قليل. ولكنه استيقظ (ربما لان القطار قد توقف – ولكن كم من الوقت مضى على توقفه؟) وكان

يسمعهم يتدافعون ويتشاجرون في الزاوية الواقعة تحت الكوة، تلك الزاوية المستطيلة الشكل الافقية التي كانت جماجمهم تتناطح عليها، وكأنها أخيلة الظل: كانت بقع الحبر السائلة المتحركة تتمازج مع بعضها ثم تتفارق، وكان يرى خلالها جزيئات من السماء الليلية التي لايعتريها تغيير في أيار، فما كانت النجوم البعيدة الثابتة راكدة لاتبرح مكانها، باكرة كالعذارى، تتراءى تارة وتتوارى طورا، في الفجوات التي كانت تنفتح وتنغلق بين الرؤوس، وكأنها سطح جامد بلوري حصين، كانت تنزلق عليها بدون ان تترك أثرا او لوثة تلك المادة المائلة الى السواد اللزجة الصارخة الرطبة التي كانت تنبعث منها اصوات باتت شاكية غضبى، أعني بها انها أخذت تتخاصم الان بشأن أمور حقيقية مهمة كالهواء مثلا (فالذين كانوا في الداخل كانوا يكيلون الشتائم للذين كانت رؤوسهم تحجب الكوة) او الماء فالذين كانوا عند الكوة كانوا يحاولون التماس رجال الدورية الكائنين في الخارج ان يذهبوا ليجلبوا لهم الماء بالبراميل) وأخيرا كفَّ جورج عن انتزاع مايسمى ساقه وتحريرها من الفوضى الجهنمية التي كانت فيها هذه الاعضاء التي كانت تدوس بكل ثقلها عليها. فبقي هناك زاحفا في الظلام محاولاً ملء رئتيه بالهواء الثخين الملوث الذي لم يكن يبدو وكأنه ينقل رائحة او نتانة الاجسام الخناقة، انما كان ينتن ويعرق هو ايضا. لم يكن الهواء شفافا، ولايقع تحت حاسة اللمس كعادته، ولكن سميكاً اسود، حتى انه كان يخيل اليه انه يستنشق شيئا يشبه الحبر، ولكنه في الواقع لم يكن سوى المادة نفسها التي اشتقت منها البقع المتحركة على اطار الكوة البقع التي كان عليه ان يحاول الامتلاء منها (وهي الرؤوس وجزيئات السماء الصغيرة) املا ان يستفيد في آن واحد من احد الرفوف المعدنية التي كانت تتوغل فيها، كضربات سيف سريعة براقة خلاصية تنطلق من النجوم ثم يعاود الكرة. حتى كأن كل ماكان يستطيع عمله هو الاستسلام لوظيفة ورق الترشيح هذه، ان صح التعبير – وفكر قليلا: «على اية حال، لقد قرأت في

مكان ما ان السجناء شربوا بولهم...» وبقي بلا حراك في الظلام، يشعر برائحة العرق الأسود وهو يتغلغل في الرئتين ثم في الوقت نفسه كان يسيل فوق جسمه، بينما كان يتصور انه يرى جسمه الجامد كجسم تمثال عرض الازياء، غير هياب كأنه جلد وعظم، يتقدم مترنحا لايكاد يلمحه احد (اعني ان الوركين كانا يقومان بحركات تحاكي حركات الحصان وأعلى الجسم- الكتفان والرأس - مستقيم وثابت، كما لو انزلق افقيا على سلك حديدي) أمام اعماق الحرب المتوهجة بينما كانت الشمس الساطعة تقذف بشعاعها على زجاج النوافذ المتكسر، فتولد الآف الاشعاعات المستطيلة الشكل الباهرة، تنبسط كالسجاد على الشارع الطويل المقفر الذي كان يلتوي ببطء، بين واجهات بيوت الآجر المتكسرة النوافذ والخالية، في بحر الصمت الباهر الذي قاطعه اطلاق المدفعين الوحيدين المتتالي. وقد كان ضجيج الانطلاق (في مكان ما ذات اليمين داخل البساتين) والوصول (كانت الشحنة تقع عشوائية فوق المدينة المهجورة المائتة حيث كان يسقط ماتبقى من حائط متداع في غيمة من غبار وسخ، كان يسقط متثاقلا على الارض) يتناوب بانتظام وحشي لاجدوى من ورائه ولافحوى له، بينما كان الفرسان الاربعة يواصلون تقدمهم (او الاحرى كان يبدو عليهم وكأنهم جامدون، كما في احدى الحيل السينمائية التي لانرى فيها سوى الجزء الاعلى من الاشخاص وهم في الواقع واقفون على مسافة واحدة من الكاميرا، فيما كان الشارع الطويل الملتوي امامهم - احدى جهتيه مشمسة والاخرى في الظل، يبدو وكأنه قادم او انه يتوسع لاستقبالهم، كأحد الزخارف التي يستطيع المرء صبغها وتشذيبها، ماتبقى (على مايبدو) من الحائط المتداعي نفسه انهار عدة مرات، وكانت غيمة الغبار المتكونة على اثر الانفجار تتقارب وتنتفخ وتتضخم مدركة ارتفاع الحائط المتبقي ومتجاوزة اياه، فيما كانت الشمس تضرب بشعاعها قمة الغيمة الغبارية التي اخذت تعتمر خوذة صفراء انتفخت وتصاعدت الى الاعالي، حتى تلاشت

الغيمة كلها تماما على يسار الفارس الاخير، فيما كانت واجهة دار تترنح هناك، في الوقت نفسه، في جزء الشارع الذي كشفته واجهات اليمين، حيث أخذ عمود الغبار والانقاض الجديد يحوم (وقد ظهر وهو يتفتح ويتضخم قليلاً مثل كرة الثلج، ولكنه كان يغترف مادته من احشائه نفسها، على خلاف كرة الثلج، بحركة وئيدة حلزونية منتشرة متدافعة متراصفة) متزايدة الحجم كلما تقترب – او يقترب منها الفرسان الاربعة–، وهكذا دواليك) فأخذ يفكر: «ولكن حتى لو سقط ضعف هذا الوابل من القصف، لما تنازل وجعل هذا الحصان يعدو. ربما لان مثل هذا الامر لايفعله احد. او لانه سبق ان اكتشف حلا أمثل، او لأنه حل المشكلة حلا نهائيا واتخذ قراره.

مثل ذلك الانسان – الحصان او ذلك الغبي المتكبر قبل مائة وخمسين عاما، اذا استعان بمسدسه الخاص لكي ... ولكنها مجرد كبرياء – ليس غير واذ كان يلهث لهاثا ضعيفا في الظلام، واصل يكيل الشتائم لها بصوت خافت: كان شخصه الاصم والاعمى والصلب يتقدم امامه مديرا له ظهره، متوغلا في ادخنة خرائب الحرب.

وكان الآخر يظهر من وجهه، ولكن بدون حراك، مهيبا صلبا جامدا داخل اطاره الكامد، مثلما كان قد رآه طوال سني طفولته، مع فارق واحد هو ان البقعة التي كانت تنتشر عمودية متمزقة، ابتداء من الصدغ وتنزل الى الرقبة الناعمة، وكأنها رقبة امرأة، في جيب القميص، لكي تلطخ سترة الصيد. لم تكن آنئذ تحضير اللوحة الحمراء التي كشفها الصبغ المقشر، بل شيئا معتماً حبيبيا يسيل ببطء، كما لو انهم احدثوا ثقبا في اللوحة وادخلوا من الخلف شيئا يشبه المربى الثخين الداكن، فصار يتحرك ويسيل سيلانا بطيئا على سطح اللوحة الاملس، بينما كانت الخدود وردية. ناهيك عن الدنتلا والقطائف. فيما كان

الوجه الجامد الذي لايهاب شيئا ولايهاب احدا وكأنه وجه احد الشهداءالمرسومين في اللوحات القديمة ، كان يواصل نظره المستقيم الى امام ، وعليه امارات التفاهة والاستغراب وعدم الايمان والعذوبة ، وكأنه وجه اولئك القوم الذين سقطوا صرعى بعد قتلة شنيعة ، وكأني بهم تلقوا في اللحظة الاخيرة ايحاء بشيءٌ لم يخطر ببالهم قط ، وهم بعد على قيد الحياة ، ان يفكروا فيه ، اعني بدون شك ، شيئا يخالف تماما مابأمكان الفكر أن يدركه ، شيئا عجبا عجابا ، شيئا ...

لكنه لم يكن ينوي ان يتفلسف ولا ان يبذل جهداً لكي يحاول ان يفكر بما لم يكن الفكر قادرا على ادراكه او تعلمه ، ذلك لان المشكلة كانت تكمن في مجرد محاولة تحرير ساقه مما كان فوقها . ثم انه قبل ان يطلب منه ما اذا كان يعرف الوقت بالضبط ، سأل نفسه عن الساعة قبل ان يباشر الرد عليه . ولكن ماجدوى معرفة الوقت . هذا ماقاله في نفسه ، معتقداً ان الوقت على اية حال ، لايفيدهما بشيءٌ لانهما لن يخرجا من هذا القطار الا بعد ان يكون قد قطع مسافة معينة ، وان مسألة تنظيم سير القطار لم تكن مسألة وقت بالنسبة اليهما ، ولكن مسألة تنظيمية هي من اختصاص السكة الحديد لا اكثر ولا أقل من قيامه عند عودته بنقل صناديق فارغة او مواد تالفة ، أشياء تأتي في زمن الحرب بعد كل الاولويات .

وفيما كان يشرح لبلوم ان الزمن ليس سوى معلومة بسيطة تتيح لك ان تتوجه تبعا لوضع ظلك وليس وسيلة تمكنك لان تعرف هل حان الوقت لأن تأكل او لأن تنام لأنه بقدر تعلق الامر بالنوم ، فأنهم كانوا قادرين على ان يناموا . اذ لم يكن لهم شيءٌ آخر يفعلونه . على ان اطرافا عديدة غريبة متداخلة ومتراكمة لم تكن في الماضي تسحق احد أطرافك أو في الاقل ما كانت تتعارف عليه الناس بأنه طرفك على الرغم من كونه اصبح عديم الحس او نوعا ما منفصلا عنك ، اما

موعد تناول الطعام فكان سهلا تجديده او الاحرى تقريره ، ليس لانك تشعر بالجوع ، كما يجري عادة عند الظهر او في الساعة السابعة مساء، ولكن عندما يحل الوقت الحرج الذي لايستطيع بعده العقل (وليس الجسم لان قدرة الجسم على تحمل الجوع اكبر) ان يتحمل ، دقيقة اكثر ، فكرة - او عذاب - امتلاك شيءٌ يمكن اكله : اخذ يتلمس في الظلام اذن، حتى نجح في ان يخرج من تحت رأسه (مما يدل على ان فكرة كسرة الخبز كانت نوعا ما تلازم عقله دوما) المزودة الرخوة التي كان ممسكا بها بحرص شديد ، فأخرج منها ، وكأني بها رزمة محشوة بعبوة ناسفة ، شيئا شخصته اصابعه وهي تجسه (كان شيئا خشنا وهشا او شكلا بيضويا تقريبا ومسطحا جدا) بأنه الغرض الذي كانوا يفتشون عنه ، غرض اخذ على عاتقه مهمة تقويمه (دائما بواسطة اللمس) اصوب تقويم وتعيين شكله وابعاده ، الى ان اعتقد انه حصل على المعرفة الكافية التي تمكنه من المباشرة في كسره كسرتين متساويتين محاولاً ، (دائما كما لو تعلق الامر بشيءٌ من قبيل الديناميت) ان يلتقط منها تدريجيا الكسر الغبارية الحجم التي كان يتوقع سقوطها على راحة يده وكأنها تدغدغ يده برفق دغدغة لايكاد يشعر بها فيما كان يوزعها في النهاية بين يديه على حصتين متساويتين ، ولكنه لم يكن قادرا ، بعد فراغه من التوزيع على ان يمضي ابعد من ذلك اعني ان يتدرع بالشجاعة وحرمان النفس وعزتها ، لكي يعطي لبلوم الكسرة التي كان يتصورها الكبرى وانما فضل ان يمد اليه في جنح الظلام يديه كليهما فيما بسط صاحبه احدى يديه للبحث عن الكسر. وبعد ذلك حاول ان ينسى باسرع وقت (اعني ان ينسى معدته التي في اللحظة التي وقع فيها اختيار بلوم على حصته ، وقع فيها التواء وهيجان ، وتشكِ من الالم حتى لكان غضبا وحشيا ونواحا اصابا معدته) انه عرف ان اختيار بلوم وقع على الحصة المثلى (اعني بها انها لم تكن تزن اكثر من حصته بخمسة غرامات) فحاول اذن الا يفكر لاول وهلة الابالكسر الناعمة التي كان يلقمها فمه من

راحته ، وبعد ذلك بالعجينة الصمغية التي كان يلوكها ابطأ لوك ممكن ، محاولا ، ايضا ان يتصور ان فمه ومعدته هما فم بلوم ومعدته ، وكان يَصرّ على ان يفهم الاخير . ان الذنب كان ذنب الشمس التي اختفت في ذلك الحين ، وكان يرى انه حتى لو لم تختفِ الشمس ، لم يكن ليأمل ان تتكلل عمليتهما بالتوفيق «لأني كنت اعلم علم اليقين ان ذلك مستحيل ، و لا وجود لمخرج اخر وفي نهاية الامر سوف يقبضون علينا ولكن كل هذا لم يكن يؤدي الى نتيجة على اننا حاولنا وحاولت وواصلت حتى النهاية متظاهرا بها بالاعتقاد بأن العملية ستنجح مكابرة غير يائسة لكنها ان صح التعبير من قبيل المراءاة ، مخادعا نفسي كما لو انني كنت امل ان اجعل الناس تصدق ان ما كنت اعتقده ممكن بينما كنت اعلم علم اليقين انه مستحيل ، فلقد كنت اتخبط وكنت ادور في حلقة مفرغة من الدروب المنتشرة عبر تلك الأسيجة المتشابهة كلها خلف السياج الذي لقي عنده موته ، حيث كنت قد لمحت في لحظة معينة ، بريقا اسود لسلاح يلمع قبل سقوطه وانهياره كتمثال انفصل عن قاعدته فمال ذات اليمين . حينئذ قفلنا راجعين ، وانطلقنا نعدو خببا ونحن شبه مستلقيين على متني جوادينا لكي نضيع على العدو فرصة التصويب نحونا ، فما كان يطلق النار علينا ونحن نسمع صوت الرصاص الوضيع المميت الذي لاجدوى منه ينتشر في الريف المشمس الواسع وكان الاطلاق صادرا من مسدسات كاذبة كالتي يلهو بها الصبيان . فقال ايجليزيا : «لقد اصابني» ولكن واصلنا عدونا

فقلت له : «هل أنت متأكد وفي اي مكان ؟»فاجابني : «واصابني الوغد في فخذي»

فقلت له : «هل تستطيع الاستمرار في العدو ؟ » حينئذ ضعف الرشق ثم انقطع كليا

وبدون ان يتوقف عن العدو ، والى جانبه يعدو حصان يمسكه بيده لم يتركه

لحظة واحدة امرّ اصابعه على فخذه الى الوراء ثم نظر اليها ، وكنت انا ايضا انظر ، واذا هي ملطخة بالدم قليلا .
فسألته : «هل تشكو ألماً ؟» لكنه لم يرد عليّ بل إستمرَّ يمرر اصابعه على فخذه التي لم اكن قادرا على ان أراها . واذ كنا ننظر الى حصننا كنا نعجب للحس الخاص الذي تتمتع به حيث انني لا اتذكر اني رأيت هذا الطريق قبلا اللهم الا اذا كان هو الطريق الذي كنا نبحث عنه . وبينما كانت تواصل عدوها مالت الحصن الثلاثة ذات اليمين ، كلها معا في آن واحد فصرخ ايجليزيا . فنزلوا من مطاياهم ولم يعودوا يسمعون شيئا سوى تغريد الطيور وشهيق الحصن العالي فقلت : «ما الامر اذن ؟ » ثم عاد فنظر الى يده فتأودَ على سرجه ولكني لم اكن اقدر على ان ارى لان اصابته كانت في فخذه الايمن ، ثم اتخذ هيأة الراكب الاعتيادي على صهوة جواده فكان شكله مهموما ناعسا أو بالاحرى اخبل ومستاء . فمد يده الى جيبه ليستل منه منديلا وسخا فاذا بدم في المنديل وعندما اخرجه كانت هيئته لاتزال اشبه بهيئة اخبل سيئ المزاج . فقلت له : «هل الاصابة بليغة ؟ » لكنه لم يرد عليّ بل هز كتفيه وأعاد المنديل الى جيبه وكان مظهره مظهر الخائب والحانق لكونه لم يجرح جرحا حقيقيا ولان الرصاصة خدشته فقط .
كانت ظلالنا الفروسية تمشي من شمالنا متخذة شكل السياج المنحوت بالكوس وبما ان الموسم كان ربيعا فأنها لم تكن حيث طالت كثيرا وكأني بالريف ، في تلك الفترة حديقة تغمرها المياه . ماتلك الشجيرات او الادغال او بالاحرى الصنوبرات المخروطية ؟ اعتقد انها حقول مزروعة بالخضر أو هي حدائق مصممة تصميما هندسيا على الطريقة الفرنسية ترتسم فيها منحنيات رائعة متداخلة او هي روضات او ملتقيات غرام الماركيزة المتنكرين بزي الرعاة او الراعيات يبحث احدهما عن الاخر بحثا عشوائيا ، يبحثان عن الحب عن الموت المتنكر هو ايضا بزي الراعي في متاهة الدروب والشعاب.» ربما كان بإمكاننا ان نلقاه ، أو ربما

كان شاخصا هناك ، عند منعطف الدروب متكئا على سياج هادئ امين. جامدا اميناً في زيه زي الصيد المتكون من قطيفة زرقاء ، مع شعره المعفر بالغبار وبندقيته حول رقبته، هناك حول ثقب في وسط جبهته وصدغه كانت تسيل منهما بدون انقطاع ، مادة أشبه بصور القديسين أو تماثيلهم ، تلك الصور التي تشرع العيون فيها بالبكاء والجروح بالسيلان دما ، مرة او مرتين كل قرن ، بمناسبة الكوارث العظمى كالزلازل وكأمطار النيران ، أعني بها ذلك المربى الاحمر القاني ، كما لو أن الحرب ، كما ان العنف والقتل قد ايقضاه وبعثاه ، ان صح التعبير ، لكي يقتلاه مرة ثانية ، وكما لو أن رصاصة المسدس التي أطلقت قبل ذلك بقرن ونصف استغرق مسارها كل هذه المدة من السنين لكي تصيب هدفها الثاني ولكي تضع الحد النهائي لكارثة جديدة ... »

وفيما كان مايزال شبه مختنق ، في تلك الظلمات الخانقة ، خيل اليه انه يراه فعلا مرتحلا وغريب الاطوار في ذلك الريف الاخضر الشبيه بالمآتم التي يلتقيها المرء احيانا وهي تتقدم وسط الحقول كحفلة تنكرية ماجنة يخيم عليها النفاق – كأية حفلة تنكرية – لواطية بعض الشيء ، ربما لأنها (كالسيدة المسنة الوحيدة التي باكتشافها الحذاء العسكري الذي يتجاوز التنورة والشعر القاسي الذي بات يغطي وجنتيها ، تفهم بغتة وهي مذعورة عندما يقدم لها الحساء الذي اعدته الخادمة العجوز القاسية الوجه قليلا والتي استخدمتها عند الصباح ، انها في الحقيقة رجل ، فتدرك حينئذ ادراكا يتعذر تغييره انها سوف تلقي مصرعها في الليل) لانك كنت تلاحظ فوق الطيات الناصعة ، حذاءي الكاهن الضخمين ورجلي الشماس الصغير الوسختين الذي كان يمشي مرتّلا بصوته القبيح ، بدون ان يلتفت الى أي اتجاه ، اذ ازورّ نظره الى اجمات التوت ، كان صليب النحاس العالي المغروز في بوق حمالة السيف الجلدي التي كانت تتدلى الى اعلى «الخشلة» *

* الخشلة : وهي اصلا البيضة الفارغة (المترجم)

(بحيث انه يبدو ممسكا بيديه بحركة صبيانية غامضة فظة رمزا بريابيا – وبرياب هو اله الباه عند الذكور – فيما كان يتأرجح فوق حقول الحنطة كصاري مركب غارق شكل المسيح النحاسي وتطريزات بدلة القداس الفضية ، وهي تحدث بريقا معدنيا قاسيا ، في الهواء البخاري ، حيث يبقى بعد ذلك بوقت طويل عطر جنائزي يحترق بالدياميس والقباب .

اذن كان الموت يتقدم عبر الحقول ببدلته الثقيلة المصممة للحفلات الكبرى تطرزها التخاريم محتذيا جزمة القتلة . اما هو (أي ريكساك الاخر ، ريكساك الجد) كان ماثلا هناك ، وكأنه احد المشاهد المسرحية او احد الاشخاص الذين ينتفضون من حفرة اصطيدوا فيها على اثر ضربة عصا يقوم بها احد المهرجين خلف شاشة بطلقة مسدس مخصص لاحداث الدخان وكان انفجار قنبلة او قذيفة ضائعة قد أخرجته من الارض التي كان مطمورا فيها ، او رمت به من ابعاد الماضي الغامض وسط غمامة قاتلة نتنة ، ليست من الغبار في شيءٍ وانما من البخور الذي ربما يميط عنه اللثام بانتشاره لكي يظهر لابسا حلة لاتتفق مع التاريخ (بدلا من القبعة المظلية الغبراء التي تكون على رأس الجنود القتلى) حلة ارستقراطية مهندمة ، حلة صياد القطا ، كان وقف وقفة من يستعد للتصوير ، حيث الزمن – الانحطاط – كان قد اصلح في وقت لاحق (وكأنه مصلح دعوب أو بالأحرى حريص) مانسيه او الاحرى مالم يحسب الرسام حسابه اذ وضع (وبالطريقة نفسها التي أخذت بها الرصاصة ، اي بأزالة قطعة من الجبين بحيث انه لم يكن تصحيحاً بالاضافة ، كما يحدثه رسام ثان كلف فيما بعد امر التصحيح ، ولكن ايضا باحداث ثقب في الوجه – او الطبقة اللونية التي كانت تحاكي ذلك الوجه – لكي يتراءى واضحا ماكان تحتها) هناك بقعة حمراء دموية كلطخة كانت تبدو تكذيبا مأساويا للاجزاء الاخرى من الصورة : او عذوبة – لابل وهنا – ، عيون الغزالة وهذه الملابس الرعوية المهملة المألوفة

وتلك البندقية التي هي ايضا كانت تشبه احد لوازم الرقص أو الدبك لأنه ، ربما لم تكن عدة الصياد الذكرية هذه - السلاح وحزام الجلد الاحمر الذي كان ينتظر الحيوانات الميتة وخليط من الفراء والريش المبقع شبيه برسوم الطبيعة الميتة التي تتكدس فيها الارانب والدراج والحجل - لم تكن هذه العدة هناك الا لكي تهيئ له وقفة للتصوير على غرار الناس الذين يقفون لكي يتصوروا في ايامنا وسط المعارض فيدخلون رؤوسهم عبر الثقوب البيضوية التي تحل محل وجوه بعض الاشخاص كالطيارين الوهميين والمهرجين والراقصات وجوه رسمت على قماش بسيط . فنظر جورج مبهورا بعض الشيئ الى اليد السمينة قليلا الانثوية والمرتبة ، اليد التي كانت ابهامها قد ضغطت وهي في حيرة ليلة بعيدة ، على استراحة السلاح المسدد ضده (هي ايضاً كان قد رآها وهي مصابة بالرصاص : احد المسدسين منقوشي الاسطوانة الراقدين رأسا لقدم في وسط عدة تسودها البلبة فيها الاصباغ وعلب الرصاص واوعية البارود واللوازم الاخرى الموضوعة حسب اصنافها ، كل في مكانه شبيه بحفرة في شرشف اخضر ، كسطح البليارد اكله العث داخل علبة خشبية حمراء موضوعة فوق خزانة الصالون المفتوحة ابوابها على مصراعيها ، أيام استقبال الضيوف والمغلقة في الايام الاخرى ، خشية الغبار ، واذ كانت يده تمسك السلاح الذي كان ثقيلا على يديه الصغيرتين رفع ديك البندقية (ولكي يقوم بهذه الحركات ، كان عليه ان يستخدم كلاً من الاخمص المنحني المحصور بين ركبتيه وابهاميه مجتمعتين ، للتغلب على المقاومة التي كان يلاقيها من الصدأ ومن النابض) وإذ وضع اسطوانة البندقية الى جانب صدغه واذ ضغط ، كانت اصبعه المتشنجة قد ابيضت من كثرة الجهد المصروف ، حتى حدث الصوت اليابس الذي لا يحمل معنى (كانوا قد استعاضوا عن الصون بقطعة خشبية مكسوة باللباد) الصوت المميت الصادر من ديك البندقية الذي مزق صمت الغرفة ، تلك الغرفة نفسها التي اصبح يسكن فيها

والداه – التي لم يطرأ عليها أي تغيير ماخلا – ربما ورق الجدران او ثلاثة او اربعة اشياء – آنية وأطر الصور الفوتغرافية المصباح الكهربائي – وضعت والأحرى اقحمت هناك ، بغية الاستفادة منها جديدة جدا كأنها خدم اضافيون يزهون بزيهم ويتألقون ولايطيقهم احد حرس استخدمهم عن طريق مكتب الاستخدام ليؤدوا الخدمة لدى جمعية للاشباح : فالاثاث اللامع نفسه كان هناك ، والرسوم الجدارية نفسها المدخنة نفسها المبنية بالرخام الابيض العروق التي اتكأ عليها ريكساك قبل ان يتطاير مخه (على مايروم اي على ماترويه سابين كان القيل والقال من اختراع الناس . او انه القصة من تزويفها لكي تجعل المشهد اخاذا – كلما كانت تروى القصة) تلك المدخنة التي تصور جورج دي ريكساك غالبا جالسا عندها ورجلاه محتذيتان جزمة ملطخة بالطين ، يتعالى منها الدخان لجلوسه قرب النار وهو يعرضها امام الموقد مشكلا زاوية قائمة وكان احد كلابه عند قدميه ، ويده الصغيرة السمينة المدللة تبرز من كم احد قمصانه المطرزة كبيرة الطيات تحمل هذه المرة شيئا ليس مسدسا ولكن (هو الذي لم يتلقَ تربية ولم يتعلم شيئا اخر سوى سياسة الخيل والاسلحة البريئة) ولكنه شيءٌ خطر ايضا وقابل للانفجار (بمعنى انه طلقة المسدس لم تكن سوى النتيجة الحتمية لما كان ينوي فعله) :

كتابا ، ربما واحدا في المجلدات الثلاثة والعشرين التي كانت تشكل المؤلفات الكاملة تروسو ، حيث كان التوقيع (بالاحرف الاولى) نفسه على كل صفحة واقية ، توقيع يشبه الخط الكارولنجي المتسم بالكبرياء والاستئثار ، وهو يكتب بريشة اوز كان يتصور انه يسمع صريرها على الورق المحبب المصفر عبارة لاتتغير هي : هذا الكتاب – كان حرف الهاء مشوها ضخما كأنه ودعة عملاقة وتحت هذه العبارة عبارة اخرى هي : يعود اليّ غير مفرقة ، ثم تعقبها احرف تصغر شيئا فشيئا لتكوّن اسم هنري الملفوظ على الطريقة اللاتينية ثم تاريخ الاستنساخ :

. ١٧٨٣

واذا كان يتخيله ويراه وهو منكب من تلقاء نفسه على قراءة المجلدات النثرية الثلاثة والعشرين واحدا بعد اخر ، مع مافيها من المبكي والعذري والغامض وهو يلتهم دروس الموسيقى الجنيفية المهمة ، دروس النغم والتربية والتفاهة وتدفق العبقرية ، تلك الثرثرة المحرقة التي كانت ديدن ذلك المتسول الذي يتدخل في كل شيْ . ذلك الموسيقار الاستعراضي الكثير البكاء الذي قد يهمس في النهاية كلامه المشؤوم الجاف في اذن هذا ال ـ... (واذا بصوت بلوم يعلو قائلا : حسن ! قد وجد اذن او الاصح انه وجد وسيلة عثر بها على مايسمى بموت مشرف ، كان يردد ويفعل كما تقول انت طبقا للتقليد الجاري في عائلته ماكان قد فعله قبل خمسين عاما دي ريكساك اخر كانوا يسمونه حسب اعتقادي ريكساك فقط لانه كان قد اسقط حرف الجر دي بغية الحصول على المزيد من النيل والاقامة والظرافة ، هذا الحرف الذي ذهب احفاده بعده يبحثون عنه ويلصقونه باسم العائلة بعد انْ اضفوا عليه لمعانا بواسطة جيش من الخدم والمرافقين يرتدون الزي الموحد ماكان قد فعله ريكساك آخر عندما انتحر باطلاق رصاصة على رأسه (اللهم الا اذا جاءته الطلقة عمياء وهو ينظف مسدسه ، وهذا أمر شائع الحدوث ، ولكن في حالة كهذه ، لاتبرز مشكلة او بالاقل لاتحدث مشكلة مثيرة بما فيه الكفاية لكي تطرق امك اذانك بها وآذان المدعوين ، فلنسلم اذن بأن المسألة كانت مسألة انتحار) لانه ان صح القول ، كان قد جعل من نفسه زوجا مخدوعا : لاأقصد هنا مخدوعا من كائن انثوي خبيث مثل حفيدته البعيدة ولكنه ان صح القول مخدوعا من دماغه نفسه ، من افكاره – وان لم تكن له افكار فمن افكار الاخرين – التي اوقعته في تلك المكيدة القذرة كما لو عند ، انعدام المرأة (ولكنك الم تقل لي ايضا ان مع كل هذا كانت هناك امرأة ...) اذن بالاحرى كما لو انه بسبب عدم ارتياحه لان يتحمل امرأة ، اضطرب

واشتبكت في رأسه الافكار والصور ، مما شكل له بالطبع ، هو رب مزرعة من تارن ، خطراً اكبر من الزواج .. فقال جورج : «بالطبع . بالطبع . بالطبع . ولكن كيف السبيل الى المعرفة ؟ ...» وان يفكر في الوقت نفسه بهذا التفصيل او بهذا الامر الغريب [illegible] لم يكن يحكى في نطاق العائلة الا عن طريق الهمس (اما سابين فكانت تقول انها لاتصدقه .

ولاصحة له وان جدتها كانت قد اكدت لها دائما ان القصة مجرد حكاية نميمة نشرها الخدم الضالعو [illegible] ركاب الاعداء السياسيين – كانت جدته تقول ان غير المتسريلين اعني بهم [illegible] ار الفرنسيين ، نظرا لنسيانهم انه كان الى جانبهم ، اعني انه لو انتشرت النمائم حوله بشأن ظروف وفاته عن طريق النمامين فأن هؤلاء الثلابين لايمكن ان يكونوا الا من انصار الملكية – وهذامن شأنه ان يؤكد تأكيداً جزئيا في الاقل صحة اقواله : اعني ان مصدر هذه الشائعات يرقى في اغلب الظن ، الى فريق الخدم ، وذلك بفعل القانون الذي يقضي بان يكون الناس المرتبطون بأناس اخرين بوشائج الخدمة اقوى الانصار – وذلك كتبرير لحالتهم – لمجتمع هرمي التكوين ، بحيث انه لو كان انصار العهد الملكي المباد – كما كان فعلا شديد الاحتمال قد فتشوا عن حلفاء ضد ريكساك فقد وجدوا بدون شك افضلهم بين خدمه ، أي خدم ريكساك) ذلك الظرف صحيحا كان أو خاطئا ، كان يضفي على القصة مسحة غامضة هاتكة لايمكننا تصورها : او صبغة من قبيل الرسوم التي تحمل عناوين مثل «العشيق المفاجأ او البنت غير العذراء» التي كانت ماتزال تزين جدران الغرفة : هرع الفراش الى مصدر الطلق الناري مسرعا وهو يرتدي ثيابا شيطانية وقميصه متدلي نصفه خارج سرواله الذي لبسه عندما قفز من سريره . وربما كانت وراءه قائمة ، خادمة عليها قلنسوة الليل ، شبه عارية ، احدى يديها امام فمها لكي تخنق صيحة والاخرى كانت تحاول بقلة لباقة ان تمسك بالثوب الذي ينزل من كتفها وقد كشفت نهدها

(وربما انها لم ترفع يدها لكي تخنق صيحة : الصحيح ان اصابعها المطوية كالصدفة كانت امام شعلة شمعة ثانية هذا ما يفسر ظهورها بتلك الهيئة مهما كان مكانها بعيدا لانها لم تكن قد اجتازت العتبة بعد وهي في ظل الممشى) تحاول جاهدة حمايته من تيار الهواء الذي يحدثه فتح الباب (كان بصيص الشعلة يمر بين اصابعها حتى لكأنها تريد ان تظهر في وسط كل اصبع ظل العظام الخفيف الذي يغطيه لحمها الوردي الشفاف) : اذن فيما كانت تحمل بأحدى يديها الرداء الليلي الذي لايكاد يكسو صدرها والشمعة التي تحملها بيدها الاخرى ، بحيث ان وجهها الفتي الحائر اصبح نيرا من الاسفل كمسرجة صف انوار المسرح ، انقلبت الظلال اي انها انتقلت من اسفل الاشكال الى اعلاها ، فأصبحت شفتها السفلى في الظل ، وكذلك حرف الالف واعلى الخدين والجفنين العلويين والجبهة فوق الحاجبين فتقدم الخادم وكان يرى من ظهره .

كانت ساقه اليمنى مندفعة الى الامام نصف مثنية اما اليسرى فكانت منفرجة الى الوراء (اي ان ثقله كله كان يرتكز على اليمين : لم تكن حالة مشي او سباق وانما كانت وضع راقص بعد قفزة قام بها) وضعاً يُفَسر افصح تفسير ماحدث قبل قليل : فقد تهافت الجسم والكتف الايمن الى امام مقابل لوح الباب ، والرجل اليمنى منطوية ومرفوعة من الأرض واذ قامت الرجل اليسرى بالاندفاع الاخير ثم – في المحاولة الثالثة او الرابعة – استسلم لوح الباب او قفله بالاحرى وسط جلبة انتزاع المزلاج ، وتطاير الخشب المتكسر ، وفي تلك اللحظة اصبح الخادم وكأنه مقذوف بالمنجنيق فاقد التوازن ، ساقط على رجله اليمنى المنطوية فيما كان يبدو وكأنه سحب وراءه رجله اليسرى المتمددة تماما التي كانت قدمها وربلتها على خط واحد وعقبها مرفوعة والرجل (حافية وذلك لأن الخادم لم يتمكن من ان يرتدي سوى ذلك السروال) لاتلامس الارض الا باطراف اصابع قدمه ، فيما كانت ذراعه اليمنى في تلك اللحظة ، ترفع عالية الشمعة التي

اصبحت تقريبا في مركز خلفية اللوحة ، حتى ان الخادم بات واقفا في مكان يعاكس الضياء ، وان الجزء الذي تمكن رؤيته من جسمه - اعني ظهره -كان تقريبا في الظل الذي رسم بالأزميل بواسطة خطوط متقاطعة متفككة نوعا ما وقد اتخذت شكل الاحجام ، بحيث ان هذه الاحجام والاشكال لو شوهدت عن كثب ولاسيما شكل مقدمة الذراع فالعضلة تبدو وكأنها مكسوة بشبكة اشبه ماتكون بالزردات التي تتراص حيث يكون الظل اكثف) فقد كان الضوء كله مركزا ان صح التعبير على الجسم الضخم المستلقي تحت المدخنة وكأنه يمتص الضوء راسما قوسا خفيفا كابيا عاريا لان الحقيقة هي هذه (او الاسطورة او على ماترويها سابين او النميمة التي اخترعها اعداؤه) : انه وجد منزوع الثياب تماما . فقد خلع ثيابه في اول الامر ، قبل ان يطلق الرصاصة على رأسه بالقرب من هذه المدخنة التي كان جورج وهو طفل او يافع فيما بعد قد امضى امسيات كثيرة ، وهو يبحث غريزيا وهو واقف عند زاوية المدخنة في الحائط وفي السقف (ولو انه ادرك ان الغرفة اعيد صبغها مرارا والصق عليها الورق الجداري مرارا بعد الحادثة) عن اثر الرصاصة في الجص متصورا مستذكرا الحدث ، معتقدا إنه يشاهد وقوعه في تلك البلبلة الليلية الشهية لذلك المشهد الظريف : ربما كان ثمة مقعد او منضدة مقلوبان والملابس كأنها ملابس عشيق لاصبر له وملقاة ومبعثرة هنا وهناك ، بسرعة البرق الخاطف فيما كان جسم الرجل المرهف التقاطيع القريب الشبه الى النساء ممدداً ضخما غريبا ، وكان ضوء الشمعة يداعب بشرته البيضاء الشفافة وكأنها من العاج او بالاحرى هي مائلة الى الزرقة وفي منتصفها ذلك الدغل او تلك الباقة ، تلك البقعة الداكنة القطرانية التي لم تكن تبدو واضحة وقد كانت اللوحة مشوبة بالاضطراب والغموض والرطوبة والجماد والفتنة والنفور التي تصعب معرفة مداها ..

وكنت اسائل نفسي هل كان يبدو في تلك اللحظة وهو ايضا متعجبا منزعجا

قليلا اعني به وجه واك الغبي ، عندما انتزع من على حصانه واردي قتيلا ، ورأسه مائل الى الاسفل يحدجني بعينيه المفتوحتين وفمه المفغور فوق ذلك المنحدر .

ولكن رأسه على اية حال كان يشبه دائما رأس غبي. وبالطبع فأن الموت لم يرتب له الامور من هذه الناحية وانما بالعكس زاد في الطين بلة . لان تلك التقاسيم الحائرة المصعوقة بشخوص فكرة الموت المفاجئ ، افقدت الوجه كل حركة ، تلك الفكرة التي ماعاد يعرفها كمفهوم تعودنا العيش ، بموجبه ولكن كمفهوم صاعق في حقيقته الطبيعية بعنفه وعدوانيته ، اطلاقة رصاص وحشية همجية لايغامر الخوف فاعلها غير متزنة ظالمة مجْحفة ، والغضب الاحمق المذهل للامور التي لاتحتاج الى اسباب لكي تذهل احدا كحالة ذلك الذي يضرب برأسه على عمود الكهرباء وهو لايدري ، فيما هو غارق كما يقال في الافكار ، عندما يطلع على خبث الحديد مع مافيه من الحماقة والتمرد والهمجية فالرصاصة اطاحت بنصف الرأس ، ولربما كان وجهه يعبر في تلك اللحظة عن الدهشة وعن الشجب ، وأقول هنا وجهه فقط لان روحه على مااعتقد كانت قد اجتازت ، منذ وقت طويل ، العتبة التي لم يعد شيئ يدهشه بعد اجتيازها او نحيب اماله بعد فقدانه آخر اوهامه اثر محاولة الفرار من الكارثة . اذن كان قد تهاوى في العدم حيث لم تفعل الرصاصة شيئا سوى انها ارسلت جثته لكي تلحق بروحه : ومنذ وقت غير يسير لم أعد أرى سوى ظهره . لذا فقد تعذر علي ان اعرف ما اذا لم تكن قد فارقته كل قدرة على التعجب والألم بل التفكير او بالاحرى تركته حرا طليقا بحيث ان ماكان يتحكم بالحركة المحالة او التافهة التي أستل بها سلاحه ذلك ولوح به ، لم تكن روحه لأنها بدون شك كانت قد فارقت الحياة في تلك اللحظة . اذا كان الشخص قد صوب عليه من خلف السياج وعلى أعلى منطقة من جسمه . يحتاج المرء الى وقت اقصر لكي يرشقك بعشر رصاصات من رشاشة

في جسمك من ان يقوم بسلسلة من العمليات التي تبدأ بتناول السلاح باليد اليمنى ، قدام الفخذ الايسر ثم بامتشاقه ورفع شفرته . ولكن بعضهم يقول ان الجثث قادرة احيانا على اداء افعال أنعكاسية كالتقلصات العضلية العنيفة جدا والمنسقة تنسيقا كافيا كتحريكها مثل البطة التي يقطع رأسها ومع ذلك تستمر في المشي محاولة الهروب ، قاطعة بشكل همجي مسافة عدة امتار قبل ان تسقط السقطة المحتومة : ان هي الا قصة اعناق مقطوعة بما ان الرواية أو الاسطورة العائلية التلقية حسبما يمليه التقليد ، جاءت تخلصا من المقصلة وان القتل الذي حدث كان أضطراريا . كان عليهم في ذلك الحين ان يغيروا شعارهم بان يستبدلوا اليمامات الثلاث ببطة لارأس لها . انا اتصور انه قد يكون افضل رمز وأوضح ، على أية حال ، بما انه يمكن القول ان لا هذا ولا ذاك في كل الاحوال بقي محتفظا برأسه : مجرد بطة لا رأس لها مُلوحة بسلاحها رافعة اياه ، وهو يلمع تحت الضياء ، قبل ان تسقط على منكبها ، والحصان والبطة كانا هناك خلف الشاحنة المحروقة وكأن احدا من الناس أجهز عليهما ، كما في الدعابات التي يسحب فيها احدهم السجادة فجأة من تحت احد الاشخاص ، كانت الاسيجة في تلك المنطقة تتكون من اشجار الزعرور او النيرية على ما اعتقد ، اوراق صغيرة منقوشة او بالاحرى انبوبية الشكل كما يقال عند الحديث عن كي القماش (او ربما مغضنة) مثل ياقة صغيرة في كل جانب من ضلع الورقة ، كانت ظلالنا العالية تتصاعد فوقنا كدرج قائم الزوايا ، افقية وعمودية ثم ترجع وتصبح افقية بينما كانت خوذتي تنتقل على القسم المستوي من أعلى السياج ، والجياد الثلاثة (كانت وقتئذ تتنفس بجهد اقل ومنخرا الجواد الذي كان يمتطيه ايجليزيا كانا متمددين ينفتحان ويلتصقان مثل كشتبانين ضخمين مرتعشين ، تتخلل جدرانهما الداخلية عروق صغيرة حمراء منتفخة تتفرع كتفرعات البرق) كانت تتوسط الطريق شاغلة عرضه بالكامل ، فأنحنيت لكي اداعب عنق الحصان ، ولكنه كان مبللا كله في

المنطقة التي كان العنان يحتك به ، كما كان مغطى بلعاب رمادي من العرق ، وحاولت امرار يدي على فخذي فشخر وقال : «يالك من نذل !» : فأجبته : «هل ذلك يؤلمك ؟» لكن لم يرد علي بينما كانت اسارير وجهه تنم عن مزاجه السيئ وكأني به يضمر لي السوء فقال اخيرا : «لا ، اعتقد ان الاصابة بسيطة» فقال : «ياللوغد . هل رأيت ذلك ؟» ثم رأيت ظلينا هذه المرة امامنا . « ياللحماقة . مَنْ هولاء ويريدون منا ماذا ؟ » كانوا واقفين في مفرق الطريق ، وكانوا ينظرون الينا ونحن نتقدم فيما هم ساكنون . كانوا في هيئة الذاهبين الى القداس او الخارجين منه ، وهم بأبهى حللهم ، وكأنهم حضروا او سيحضرون حفلة عيد .

كانت النساء يرتدين حللا غامقة ومعتمرات قبعات ، بعضهن يحملن في ايديهن مظلات سوداء أو حقائبهن السود ايضا ، وكان بعض الرجال يحملون حقائب او سلالا مستطيلة الشكل مصنوعة من السوحر ، واحدى قبضتي اليدين على غطاء السلة المثبت بعصية صغيرة ذات قفل تنزلق داخل ممر صغير . وعندما غدونا بالقرب منهم قال لنا احدهم : «غوروا من هنا» . كان وجههم بدون تعبير . فقلت لهم : «هل لمحتم مرور خيالة ؟ » ولكن الصوت نفسه ردد قائلا : «ولوا من هنا . غوروا من هنا» . توقفت الجياد الثلاثة ، وكانت ظلال الخوذ تصل الى مداسهم الاسود تقريبا ، مداس يوم الاحد . فقلت : «نحن ظللنا الطريق ووقعنا اليوم في كمين . لقي النقيب مصرعه» . ونحن اذ كنا نبحث اذا بأمرأة طفقت تصيح ثم تعالت الضوضاء : «انهم في كل مكان . روحوا من هنا . لئن وجدوكم معنا لقتلونا» . فردد مرة اخرى ايجليزيا قائلا : ياله من نذل !

ولكن بدون ان يرفع صوته ، بحيث اني كنت اسائل نفسي ان كان يقصدهم هم أم الشخص الذي اطلق الرصاص علينا ، ولكني لم اكن استطيع ان اعرف هل كان يتكلم بصيغة الجمع ام المفرد . واتذكر انني ، في تلك اللحظة ، سمعت هدير الشلال الذي كانت تحدثه (الفرس) في الوقت الذي كانت تتحرك قليلا

لكي تفرج بين فخذيها . فانحنيت لكي أخفف الوطء عن ظهري ، وبقيت منبسطا الى امام انظر الى الارض وكان البول الاصفر يبهر نظري ، وكان اقرب الرجال هناك قد ابتعد عنا ، ربما لكي لاتتوسخ ثيابه «العيدية» وكان البول يتعرج على الطريق الترابية الحجرية ، وكأنه تنين تغطيه فقاعات والرأس متردد يتلمس ويتحسس طريقه ذات اليمين وذات الشمال ، فيما كانت هيئة البول تنتفخ . ولكن سرعان ماكانت الارض تمتصه . ولم يبق سوى بقعة داكنة رطبة متعددة الاطراف حيث كانت تنطفئ نقاط دقيقة لامعة كرؤوس الدبابيس الواحدة تلو الاخرى . حينئذ نهضت قائلا : «هيا بنا ننطلق ، لن نمكث هنا .» دفعتها قليلا . فتنحوا جميعهم ، يفسحون لنا المجال لان نمر ، وعليهم مسحة من المهابة والصلابة والعداء في حلتهم الفاخرة . فقال ايجليزيا : «هؤلاء الفلاحون انذال» . ثم سمعنا صراخا وراءنا ، فالتفت واذا هم لم يبرحوا مكانهم بعد . كانت امرأة تصيح . اما الاخرون فقد كانوا محتفظين بسحنتهم العدائية العابسة نفسها . فقلت وانا احدجها في تلك اللحظة ، بنبرة شاجبة لصياحها : «ماذا تقول ؟» كان ايجليزيا ايضا قد التفت ، بينما كان قد اطبق يده على فخذه ، فكررت عدة مرات ، الحركة نفسها بذراعها . وقال : «لنتجه الى اليسار لان ذلك خير لنا من ان نذهب هناك وندخل في متاهة» . فطفق جميعهم يتكلمون ويقومون بحركات تتوافق مع ماكانوا يقولون . وفي الوقت نفسه سمعت اصواتهم الغضبى المتناقضة . ثم وجدت ماكنت ابحثه قبل لحظة ، منذ ان رأيتهم غريبي الاطوار محتفلين ، بحللهم التي لم تكن حلل عيد وانما حلل الحداد . ولهذا خطرت ببالي فكرة مراسم الدفن التي نشاهدها سوداء متصنعة في طرق الريف الخضراء (كان يواصل التلويح بمظلته وكأني به يشير الينا ان انسحبوا وكأنه يواصل صياحه : اليكم عنا ، روحوا من هنا . اليكم عنا !) . قال ايجليزيا : «قالت لنا توجهوا الى اليسار» ولكن ظلالنا كانت تسبقنا . كنت أُراها وهي تتقدمنا وكأنها مركبة على

عكاكيز بهلوان فقلت :«ولكن ، ان واصلنا في هذا الاتجاه فاننا سنرجع الى ... » فقال ايجليزيا : «بما انها قالت اننا سوف نضل الطريق لو رحنا في ذلك الاتجاه ، فذلك لانها ربما اعرف منا ومن غيرنا به» . غابت الشمس وتوارت الظلال . فنظرت مرة اخرى وراءنا فتواروا خلف السياج . وبغياب الشمس كان الريف يبدو اسير الموت ، مخذولا ، مرعبا بجموده الهادئ المألوف وهو يخبئ الموت الهادئ المألوف المثير الشبيه بالغابات والاشجار والمروج المزهرة ...

ثم ادرك ان ماكان يشرحه لم يكن يشرحه لبلوم (بلوم الذي كان قد لقي حتفه قبل ثلاث سنوات ، اعني انه كان يعرف عنه انه قد مات ، لان كل ماكان قد رآه كان مايلي :

الوجه نفسه هذا الذي رآه في هذا الصباح المطير الرمادي في مستودع الحصيد ، ولكنه اصغر حجما واكثر انكماشا واتعس يمتاز بأذنيه الضخمتين الواضحتين اللتين تبدوان وكأنهما كبرتا بقدر ماكان الوجه قد اعتوره الضمور والتلاشي ، وبنظرة المحموم الصامت البراق نفسه الذي كان ينعكس فيه الضياء الاصفر الداكن المنبعث من المصابيح التي تنير ذلك الخصّ ، انارة كافية لما كانوا يؤدونه من اعمال : فتح العيون والجلوس على مضاجعهم والبقاء على هذه الحالة مدة دقيقة .تقريبا شبه اغبياء ، الى ان يتوصلوا ككل صباح الى معرفة المكان الذي كانوا فيه والحالة التي كانوا عليها معرفة صحيحة ، وبعد ذلك ينهضون ويقفون مجرد وقوف ، بدون ان يفعلوا شيئا سوى شد شريط احذيتهم (بما انهم لم يعودوا يعرفون في ذلك الوقت مامعنى خلع الثياب باستثناء يوم الاحد للبحث عن العمل والقصعة) نفض الغبار الذي سقط على التبن ليلا وارتداء معاطفهم لكي يصطفوا خارجا في الليل منتظرين الفجر ، حتى يتم تعدادهم فردا فردا تماما كالقطيع : اذن مايكفي من ضياء للقيام بتلك الاعمال ، ولكي يتمكن من رؤية المنديل الذي كان يمسك به بلوم امام فمه . هذا وان المنديل كان اسود ولكن

ليس من جراء الوسخ ، اعني انه لو كانت المصابيح اقوى لكان بامكانه ان يرى انه كان اسود ولكنه كان في نصف شبه الظل أسود لاأكثر ولاأقل . كان بلوم ملازما الصمت باستمرار مع ملاحظة وجود شيء في عينيه يمزق الاكباد ، شيء يتلألأ يدعو الى اليأس والاستسلام . فمزق جورج ستر الصمت قائلا : «ولكنك لست سوى محظوظ بكل ماهذه الكلمة من معنى ! . بأمكانك ان تقول بأنك ابن دلال : التضميد من ناحية والشراشف ولسوف يعيدونك الى اهلك لانك غير ... يالك من محظوظ !» ، اما بلوم فكان يحملق فيه بدون ان يرد عليه ، وعيناه تلمعان في شبه الظل سوداوين واسعتين شبيهتين بعيون الاطفال . فكرر جورج عليه القول : «يالك من محظوظ ! . ماذا اعطي لكي اخشخش وابصق قليلا انا ايضا : بصقة بسيطة لااكثر من بصقة . آه لو كنت اقدر . ولكن حظا كهذا ليس من نصيب امثالي ...» اما بلوم فكان يحدجه دائما بدون ان يرد عليه ولم يره بعد ذلك قط ، اذ ادرك اذن ان الشرح الذي كان يحاول تقديمه لم يكن لبلوم ، فيما كان يفعل كل هذا ، وهو يبصق في الظلام ولا للشاحنة ايضا ، فالكوة الضيقة التي كانت تحجبها الرؤوس او بالاحرى البقع المتدافعة الصارخة ، ولكن الان كان يستطيع ان يلمس رأسا واحداً فقط بمجرد رفعه يده كأعمى يشخص الاشياء ، بل حتى انه لايحتاج الى تقريب يده لكي يتعرف في الظلام على الهواء فهو كان يشعر بفتور الجو والنفس وهو يستنشق ، النفس المنبعث من وردة الشفاه السوداء والوجه بأكمله وكأنه وردة سوداء مائلة الى وجهه وكأنها تتوخى ان تقرأ فيه وتتكهن ... ولكنه امسك بمعصمها قبل ان تمسك هي بمعصمه ، وقبض كالطير على اليد الاخرى ، فيما كان نهداها يدوران على صدرها : تصارعا لحظة . ففكر جورج حتى بدون ان يهم بالضحك . العادة هي انهن هن اللواتي لايردن ان يشعل الضوء . ولكن الضوء كان وافراً في الليل . فانحنت على منكبها وخرج رأسها من النافذة التي كانت تميط اللثام عن النجوم ،

وتمكن من تلمس البصيص البارد الذي كان يلتصق كالحليب على صفيحة وجهه ففكر في نفسه : «حسن جدا . انظري».فشعر بثقلها ، ثقل كل لحم هذه المرأة ووركها يسحق رجلها بثقله ، وركها المتألق كالفسفور في الظلام . كان يراها شفافة ايضا في المرأة مع الصنوبرتين المنتصبتين الى جانبي جبهة الخزانة . فقالت له : «ايه واصل حديثك معه» . فأجاب : «مع من» ؟ فقالت : «ايه – تكلم ولكن على اية حال لا معي» فأجابها:«اذن مع من؟» فقالت:«ولكن حتى لو لم اكن سوى مومس عجوز ، أفهل تفقد نضارتك ؟»فأجاب : « ماذا تقولين؟» فقالت: «لان التي كنت تبحث عنها ليست انا أليس كذلك ، انها ...» فأجابها : «يالله ، لم افعل شيئا سوى اني كنت احلم بك مدة خمس سنوات» فقالت : «انا ؟ » . فأجابها : «اذن والحالة هذه بمن كنت احلم قولي لي ؟ » فقالت : «لا اقول بمن ولكن من الافضل ان تقول لي بماذا . يبدو لي ان ذلك ليس امرا تصعب معرفته . يبدو لي انه ليس من الصعب جدا ان يتخيل الانسان بماذا يستطيع ان يفكر مدة خمس سنوات ربوات من الرجال المحرومين من النساء . بأمكانهم ان يفكروا تقريبا بما يمكننا ان نراه مرسوما داخل كابينات التلفونات او داخل المغاسل والمقاهي . ارى ان ذلك امر طبيعي . وأرى ايضا انه امر طبيعي للغاية . ولكن في رسوم كهذه لايصور الرسام ، الوجوه وانما يتوقف عموما عند وصوله الرقبة ، هذا اذا فكر في الوصول الى الرقبة ، عندما الشخص الذي استعان بالقلم او بالمسمار لكي يحك الجص اجهد نفسه في رسم شيء آخر او ان يصعد الى ماهو أعلى منه . »فأجابها قائلا:«سبحان الله ، يافتاح يارزاق . اول امرأة نفاجأ بها ! » فقالت له : ولكن هناك كنت تحت قبضة يديك (فأطلقت في الظلام مايشبه ضحكة او صوتا جعلها تهتز قليلا ، بل يهتزان كلاهما ، ويهتز صدراهما الملتحمان والنهدان ، بحيث انه كاد يخيل اليه انه يسمع صدرها يرن داخل صدره ، وانه هو ايضا يضحك ليس في الحقيقة ضحكا ، بمعنى انه لايعبر

عن أي فرح : ولكن مجرد حركة لا ارادية قوية كالسعال مثلا ترن في داخلها كليهما في آن واحد ثم تتوقف ثانية :) على الاصح انت ، لانكم كنتم ثلاثة ، انجليزيا وانت والذي يسمى ، يسمى .. فقال جورج : «بلوم» فأجابته : ... هذا القزم الذي كان معكم وكنتم قد وجدتموه ...

ثم ان جورج لم يعد ينصت اليها ولم يعد يسمعها . فقد عاد الظلام فأحتواه في احشائه يخنقه ، وعلى صدره ثقل غير ثقل لحم المرأة الدافئ ، ولكن مجرد هواء ، وكأني بالهواء راقد هناك لاحياة فيه او ان قوة الجاذبيةهناك اصبحت مضروبة في عشرة اضعاف او مئة ضعف ، او جثة الهواء الهامدة الثقيلة الفاسدة ، جثة الهواء الاسود المتمدد بكل وزنه عليه وفمه مطبق على فمه . ولكنه حاول يائساً ايلاج النفس الذي يشبه طعمه طعم الموت والفساد في رئتيه ، واذا بالنفس بالهواء يدخل : كانوا قد فتحوا الباب ثانية فدخلت الاصوات والاوامر الغرفة مع دخول الهواء . وكان جورج في تلك اللحظة يقظان ويفكر : «ولكن هذا مستحيل . يستحيل ان يواصلوا تحميل افراد آخرين . لسوف ...» واذا بحركة عنيفة ، بصدامات وتدافع وشتائم في الظل ، ثم انزلق الباب ثانية فأرتدت ضبّته الى الوراء ، فأطبق الظلام ثانية ، لاتشعر فيه بسوى التنفس وبالافراد الذين كانوا قد صعدوا ربما يسائلون انفسهم مستعجلين عن الوقت الذي قد يقضونه داخل الشاحنة بدون ان يغمى عليهم ، او ربما كانوا ينتظرون مجرد انتظار (ربما كانوا يتصورون انهم لن يمكثوا هناك الا بضع دقائق ، فقد كانوا مرتاحين) انتظار الوقت الذي سيفقدون فيه وعيهم ، فقد كانت الانفاس تحدث في الظلام ضجيجاً مستمراً كصوت الصفعات ، ثم ان احدهم (بعد ان اعياه انتظار حدوث ذلك) اعني به ذلك الذي صعد وهو يتكلم ويقول (ولكن بدون غضب وانما بنبرة منزعجة) : «بأمكانكم في الاقل ان تفسحوا لنا المجال لنجلس ، أليس كذلك ؟ » فأجابه جورج : «من الذي تكلم ؟ » فرد عليه الصوت : «جورج ؟ »

فأجابه جورج : «أجل، من هنا ، من ... يالله : اذن استطاعوا ان يأخذوك ! اذن والحالة هذه ...» واصل حديثه فيما كان يحاول ان يتقدم حابيا في اتجاه الباب ، رغم الشتائم بل حتى بدون ان يشعر بالضربات التي كانوا يلقمونه اياها . ثم ان الوقت الذي كان يتلقى فيه صوت بلوم الذي بات قريبا منه وهو يقول له : «ابق مكانك . لن تمرا» فرد عليه جورج :«ولكن ياناس . هذا صديقي ...» فأجابه ابن مارسيليا (لان اصل صاحب الصوت من مرسيليا) : «اليك عنا من هنا» .

فطفق جورج يكابر محاولا ان يقف على رجليه . ثم انه بعد ان اصبح نصف واقف ، أحس بثقل يضاهي طنا من الحديد اعترض صدره ، وكأنه البرق الخاطف : «سبحان الله ، مستحيل . اتراهم ادخلوا الحصن ايضا . ياالهم من ... » واذا به يسمع بصفيحة الحديد ترن عندما ناطحت رأسه (او عندما ناطحها رأسه – اللهم الا اذا لم تكن هناك صفيحة حديدية او أن رأسه رن وحده) وكان صوت بلوم الذي اصبح قريبا منه يقول خافتا : «ياالهم من اوغاد» كان بأمكان جورج ان يسمعه يوزع في الظلام بصبر ، ولو انه كان يفعل ذلك بسرعة ، اكبر عدد ممكن من الركلات واللكمات . كان جورج ايضا يحاول ان يضرب ، ولكن لم يكن يجيد الضرب ، لان ذراعه وقدمه كانتا تجابهان للتو شيئا ، بحيث انهما لم تكونا تضربان بقوة كان هناك دون شك قليل من الهواء ليمكنهما من مواصلة العراك . لانه فجأة ، وكأن اتفاقاً ضمنياً حصل بينهما وبين خصومهما (اي بينهما وبين هذا الظلام الدامس الذي كانا يحاولان فيه ان يكيلا او ان يتلقيا الضربات) فتوقف العراك فقال ابن مرسيليا ، أنهم سوف يتلاقون يوما فقال بلوم : «اجل سوف نتلاقى» فرد عليه ابن مرسيليا : «هل صورروك يوما ؟ » فقال : «أجل لقد صورتني انت . فقال المرسيلي : «ابق خبيثا ماشئت ، انتظر ان تشرق الشمس ، انتظر ان تخرج من هنا» . فأجابه بلوم : «اجل صورني» .

لاشك انه لم يكن هناك هواء يكفيهما لان يتبادلا الشتائم فقال بلوم : «هل الامور على مايرام ؟ » فتلمس جورج مزودته فكانت قطعة الخبز ماتزال فيها مع القنينة التي لم تنكسر وقال : «اجل ، الكل على مايرام . » ولكن شفته كانت اشبه بقطعة خشب . فشعر حينئذ بشيء ما يسيل من فمه ، فأخذ يجس شفته بأنامله فأستكشفه بحذر وفكر في نفسه : «حسن . كاد الامر ينتهي بي الى ان اسائل نفسي هل خضت غمار الحرب فعلا . ولكني على كل حال وفقني الله في اني اصبت بجرح وهرقت بضع قطرات من دمي الثمين ، بحيث سيكون لي ماأرويه وما احكيه فيما بعد ، وسأتمكن من القول ان كل المبالغ التي انفقوها لكي يجعلوا مني جنديا لم تذهب عبثاً . رغم خشيتي ان انفاقها لم يجر حسب الاصول وعلى الوجه الصحيح ، اعني ان عدوا حصل عليها فسدد صوبي وهو في هيئة الرامي ، راكع ومنتعل حذاء مسمر الكعب ، ولو انه ليس مؤكداً ، ولو اني لست اكيدا من قدرتي على المفاخرة والمباهاة فيما بعد بشيء يستحق الفخر ، كالاصابة بجرح من أحد اترابي . لانه كان من المفروض ان يكون الذي ادخل في الشاحنة شيئا كالحصان مثلا ، الا اذا كنا نحن الذين دخلناها خطأ لان مهمتها الاصلية كانت نقل الحيوانات ، او الا اذا لم تكن غلطة البتة او انهم ملاؤها ، وفقا للغرض الذي صممت من اجله ، بالحيوانات ، بحيث اننا كنا قد نصبح مايشبه الحيوانات بدون علم منا . يخيل الي اني قرأت يوما قصة من هذا القبيل ، قصة اشخاص تناسخوا على حين غرة واستحالوا من عيدان الى خنازير او اشجار او حصى ، وكل هذا بفضل بضعة ابيات شعر لاتيني .... » وما زلت اعتقد ان هذه الابيات ليست مخطئة تماما . خلاصة القول ، ان الكلمات تنفع احيانا ، بحيث انه في كشكه يستطيع بدون شك ان يقنع نفسه انه لو رتبها ونضدها بأوجه مختلفة ، لتمكن احيانا لو ساعده الحظ في ان يصيب المرمى . علي ان اقول له ذلك . لانه سوف يروقه . سأقول له«اني سبق ان قرأت باللاتينية ماحدث لي .

وهذا يقلل من استغرابي ودهشتي نوعا ما ويزيد من طمأنينتي ، لاني اعرف ان ماكتبته قد سبقني فيه غيري بحيث ان المبلغ الذي انفقه علي هو ايضا لكي يفهمني اياه لن يكون قد راح كله هباءاً . أجل. لابد ان ماسأقوله له سوف يروقه سيكون هذا بالطبع ... له ثم انقطع عن الكلام . ربما كان مايشرحه هامسا في الظلام لم يكن في اذن المرأة التي كانت مضطجعة الى جانبه ، لايراها أحد ، كما لم يكن في اذن بلوم ، فقد قال في همسه انه لو لم تختف الشمس لكانوا عرفوا من اية جهة كانت تمشي ظلالهم : لانهم اصبحوا لايتسابقون على الريف الاخضر او بالاحرى ان الطريق الريفية الخضراء كانت قد انتهت بغتة ، اما هما (هو وايجليزنا) فقد بقيا هناك ابلهين موقوفين متكئين على حصانيهما على قارعة الطريق ، بينما كان يفكر حائرا يائسا نافرا بعض الشيء (كالمحكوم عليه بالاشغال الشاقة الذي أرخى له الحبل فتيسر له أمر اجتياز الساتر الاخير ، مستجمعاً قواه متأهبا للقفز ، فأدرك في نهاية الامر انه وقع على رجلي سبحانه الذي كان ينتظره) : «ولكني وجدت ذلك يوما في مكان ما . اعرفه . ولكن متى ؟ واين ؟ ... »

من تراه اعطى الله فكرة خلق الكائنات ذكوراً واناثاً وجمعها في اتحاد صميمي ؟ فالرجل ، هاقد اعطاه المرأة . لديها ثديان في صدرها ومضيق صغير بين ساقيها . فأذا لقحت بقطرة من زرع الرجل فسوف يولد منها كائن ضخم ، : هذه القطرة الصغيرة المسكينة ستصبح لحما ودما وعظما واعصابا وجلدا . لله در ايوب اذ يقول في الفصل العاشر من سفره : ألم تكن قد صببتني كاللبن وخثرتني كالجبن ؟ فلله ، في اعماله هذه ، شيئ غريب . ولو سألني رأيي عن تكاثر بني البشر لنصحته في الاكتفاء بمدرة التراب ، ولكنت اشير اليه بأن يثبت الشمس كمصباح في سمت السماء لتنير الارض ونحصل على نهار أبدي .

مارتن لوثر

وبعد لحظة عرفه : فأنه لم يكن كومة طين بارزة المعالم يابسة ولكن (فقد كانت القوائم عظيمة مربوطة على هيئة شخص يصلي . وكان الهيكل العظمي نصف مكسو بطبقة من صلصال – وكأني بالارض قد بدأت تعيده اليها ترابا – وتحت متنه القوي الهش كانت سحنته وشكله شبيهين بالحشرات وبالقشريات في آن واحد) حصانا ، او على الاصح ماقد كان يوما حصانا (يصهل ويرعى في المروج الخضراء) ليعود الآن او أنه سبق ان عاد الى ارضه الاصلية ، بدون ان يكون ظاهريا بحاجة الى ان يجتاز مرحلة التفسخ الانتقالية أي مرحلة التحول او الاستحالة الجوهرية السريعة ، وكأن هامش الزمن الضروري عادة للانتقال من عالم الى آخر (من العالم الحيواني الى العالم المعدني :).قد اجتيزت دفعة واحدة . «ولكنه فكر في نفسه معتقدا ربما غدا او قبل ايام وايام قد انتقلنا هناك دون علمي . اما هو فيفوقني جهلا في هذا . لانه كيف يستطيع ان يقول المرء كم من الوقت مضى على وفاة رجل ، بما ان أمس والآن وغدا بالنسبة اليه أمر واحد لم يبق له وجود ، أي لم تعد تشغل باله البتة ... » ثم لمح الذباب . لم تكن لطخة الدم الكبيرة المحببة اللامعة التي كان قد رآها اول مرة ، وانما تجمهرا قاتما . ففكر في نفسه : «لقد تجمع الذباب بهذه السرعة . ولكن من اين يخرج هذا الذباب كله ؟ » إلى ان ادرك ان عدده لم يكن بتلك الضخامة (التي تكسو اللطخة) وان الدم كان قد شرع في الجفاف ، بل اخذ يكمد ، حتى اصبح بنيا اكثر مما هو احمر (كان هذا التغيير الوحيد الذي طرأ منذ ان رآه لأول مرة ، بحيث ان الوقت الذي انصرم لم يكن سوى بضع ساعات على الارجح ، او ربما ساعة واحدة بل اقل من ساعة ، وفي تلك اللحظة عرف ان الظل الذي تلقيه زاوية الحائط المبني بالاجر الذي كان يحد الطريق كان يغطي الاطراف الخلفية للحصان التي باتت الان تحت ضوء الشمس الساطعة ، اذ كانت قطعة الظل التي يلقيها جزء الحائط الموازي للطريق تكبر تدريجيا . ففكر في نفسه : «ولكن ظلالنا كانت قبل قليل

تمتد الى يميننا . وهذا يعني ان الشمس قد اجتازت محور الطريق اذن ... » ثم كف عن التفكير ، او بالاحرى عن محاولة الاحتساب ، واكتفى بالفكرة الثالثة : « ولكن كم يغير هذا من الامور ؟ ماترى ان يغير فيه هذا الآن ، حيث هو الآن ...») كان ذباب الكلب الازرق الاسود يتسارع على حافة اللطخة او على ماكان ثقبا او حفرة قنبلة أخرى أكثر من كونه جرحا ، حيث كان الجلد المحزز قد بدأ بالانكماش كالورق المقوى الذي يذكرك بلعب الاطفال التي قطع عنها رأسها او تمزقت . فأخذ يظهر كل مافي جوفها ، فاغرا مهتوكا دامسا لشيء لم يكن يوماسوى شكل بسيط يحيط بالفراغ . كما لو ان الذباب والدود قد انهيا عملها ، اعني انهما التهمتا كل ماكان بالامكان التهامه بما في ذلك العظام والجلد ، بحيث لم يبق شيء (كفقوعات الحيوانات المفرغة من لحمها من الداخل اوكالاشياء التي قرضتها الارضة من داخلها) سوى غطاء هش رقيق من الطين اليابس ، لايزيد سمكه على سمك طبقة من الصبغ ، لااكثر ولااقل ، فارغ لااكثر ولااقل . هذه الفقاعات كانت تأتي لتنفجر على سطح الطين ، مولدة صوتا ناشزاً ، باعثة رائحة الفساد الضعيفة وكأنها تصعد من اعماق بعيدة لايسبر لها غور .

ثم رأى ذلك الشخص بمعنى انه رآه من أعلى حصانه ، وظله المتحرك المداهم يطلع من بيت ، وهو يركض في اتجاههم على الطريق وكأنه سرطان : تذكر جورج انه تعجب في اول الامر من الظل لانه ، على ماقال ، مديد وارف مستو ، بينما كان هو وايجليزيا يريان الرجل من قمة رأسه الى أخمص قدمه . بحيث انه كان لايزال ينظر الى الظل (وكأن الظل بقعة حبر تنقلت بسرعة على الطريق دون ان تترك اثرا او على قطعة قماش لماع او مادة براقة) وهو يحرك كلابتيه تحريكا لايفهمه احد . بينما كان الصوت يوافيه من نقطة اخرى . فكأن الصوت والحركات نوعا ما منفصلة عن بعضها متفرقة . الى ان رفع رأسه واكتشف الوجه الذي كان مقبلا اليها ، وعليه مسحة من التيه والخيلاء المبتهلة . فتوصل جورج

حينئذ فقط الى ان يفهم ماكان يقوله الصوت (اعني ماتلفظ به ، لانه أخذ يتلفظ بشيءٌ آخر . بحيث انه عندما رد على الصوت كان الرد مع فارق زمني ، وكان ماكان يصرخ به الاخر يمضي وقتا لكي يصل اليه ولكي يخترق جدران التعب) سمع صوته الذاتي يخرج (او الاحرى يندفع من صدره بجهد) مبحوحا ، خشنا اسمر صارخا هو ايضا . وكأني بهم جميعا مضطرون لان يزمجروا حتى يسمع بعضهم بعضا ، ولو ان المسافة كانت بضعة امتار (وخلال لحظة او أقل) بين الواحد والاخر . ولو انه لم يكن هناك ضجيج اخر سوى رشقات مدفع (لان الشخص كان بدون شك قد شرع يصرخ منذ ان لمحها ، كان يصرخ وهو ينحدر مسرعا على درج مدخل البيت ، وهو لايبرح يصرخ بدون ان يدرك ان الصراخ قد قلت ضرورته بمقدار ماكان يدنو منهم كانت تفسر حاجته الى الصراخ ، ربما لانه لم يكف قط عن الهرولة ، حتى عندما وقف بلا حراك ، لحظة تحت قدمي جورج ، وهو ممتط حصانه ، واشار باصبعه الى المكان الذي كان يختبئ فيه الرامي ، ربما كان مايزال يركض في عقله ايضا ، ولم يشعر بانه قد توقف ، بحيث انه بات مستحيلا عليه ان يعبر عن نفسه بطريقة اخرى سوى الصراخ ، شأنه شأن انسان اسير لحركة معينة) فزمجر جورج ايضا قائلا : «مضمدون ؟ » لماذا ؟ هل نشبه المضمدين ؟ هل لنا سواعد المضمدين «كان الحوار الذي جرى بينهما صارخا عارما غاضبا ، وهما على الطريق المشمسة الفارغة (ماعدا تضاريس النفايات والفضلات الموزعة على حافتي الطريق ، وكأن فيضانا اوسيلا عرما صاعقا قد وقفا ثم نضبا على الفور ، في تلك المنطقة ، فتركا على جانبي الطريق هذه الاكوام – اشياء ، حيوانات ، بشرا موتى – التي يتعذر تمييزها والوسخة ، الجامدة ، اكوام ترتعش ارتعاشا خفيفا في وجه طبقة الهواء الحار الذي كان يهب على سطح الارض تحت شمس ايار) من الاعلى الى الاسفل ومن الاسفل الى الاعلى ، بين الفارس وهو على صهوة جواده والرجل المهرول الذي عاد يصرخ :

«ضمادات ... نحتاج الى ... هناك اشخاص انزلوا من مطاياهم . اليس لكم ؟ ألستم ... » فأجاب جورج : «ضمادات ؟ يالله . من اين نـ ... «ثم طفق الشخص يعدل اتجاهه لكي يرجع الى داره . وما ان تباطأ قليلا حتى صرخ ثانية وكأنه فريسة لغضب يائس : اذن مالي اراكما هنا شاخصين كالمغفلين على فرسيكما وسط هذا الطريق .

الا تعلمان انهم يطلقون الرصاص على كل عابر سبيل ؟ »فهز ذراعه ثانية والتفت وهو مايزال يركض مشيرا الى نقطة في مكان ما وهو يصيح : «هناك شخص مختبئ وراء زاوية الكوخ ». فأجابه جورج : «اين ؟» وصل الشخص في تلك اللحظة الى نهاية المنعطف الحاد الذي رسمه بركضه قبل ان يرجع الى داره فوقف قريبا منهما – ولكن صدره كان يعلو ويهبط بالتأكيد ، دون شعور منه ، وبسرعة ، لاهثا مبادرا الى الصراخ بين صرخة وصرخة : «تماما وراء زاوية هذا الكوخ المبني بالطابوق هناك» : فنظر بنفسه صوب اتجاه اصبعه وزمجر بحنقه الذي سار عليه وبيأسه وبرضاه : «انظر ! فقد خرج قبل لحظة وعاد فاختبأ ، اما رأيته ؟» فاجابه جورج : «اين ؟ » ثم تحرك الشخص وانطلق ثانية والتفت وصرخ مغتاضا : «يالك من ... : بيت الآجر هناك : فأجابه جورج : «ولكن البيوت كلها من آجر» . فقال الشخص : «يالك من مغفل ! » فأجابه جورج : «ولكنه لم يطلق رصاصة» فصرخ الشخص (عندما اخذ يبتعد هاربا ووجهه متجه نحوهما لكي يرد عليهما ، بحيث ان كل جسمه التوى كمفتاح سدادات القناني ورأسه ينظر في الاتجاه المعاكس وجذعه – اعني سطح صدره – منتصب على محور الدرب ووركاه (سطح الوركين) مائلان ، لو قورنا بالصدر ، مما جعله يركض في خط ملتو كالسرطان ثانية ، ويبدو وكأنه يجر كالاخرق رجليه وراءه وساقيه ، وهو يوشك باستمرار ان يتعرقل ، بينما كانت ذراعاه منفرجتين تواصلان الاكثار من الحركات) وقال : «يالك من غبي لن يطلقوا عليك

الرصاص من هناك . فهو ينتظرك حتى تقترب لكي يرميك ! » فأجابه جورج : «ولكن اين ! » فرد عليه الشخص وهو مخف رأسه تحت ابطه : «يالك من مغفل ! » فأجابه جورج صارخا بأعلى صوته : «ولكن يالله اين الجبهة اين هي ...» فتوقف الشخص حينئذ لحظة مشدوها متذمرا منتصبا هناك ، ووجهه متجه صوبهما وقد كتف ذراعيه ويصرخ كالمهووس : «الجبهة ؟ يالغبي ! الجبهة ؟ لم تعد هناك جبهة ايها الغبي ، لم يبق شيئ ! » فكتف ذراعيه الممدودتين ، ثم انفرجتا ثانية لتحتضنا كل شيئ : «لم يبق شيئ ، أما تسمع ؟ لم يبق شيئ ! » وبعد ان استنشق جورج الهواء ملئ رئتيه (عندما ادار الشخص الاخر ظهره واستأنف ركضه ، حتى كاد يصل الى درج مدخل البيت ، حيث كان قبل ان يخرج وحيث سيكون بعد قليل) قال : ولكن وبعد كل هذا مالذي ينبغي عمله ؟ اين يمكننا ان ... فأجابه الشخص : «افعلوا مثلي ! » وانزل ذراعيه المرفوعتين ووجه معصميه الى الداخل ، بحيث ان اصابعه الموجهة اليه تبدو وكأنها تدعو الفارسين لان يفحصا بدلته التي كانت تشير اليها يداه من الاعلى الى الاسفل فزمجر قائلا :«اليكما عنا من هذا المكان . أهربا بالزي المدني . ابحثا عن ملابس في احد البيوت واختبئوا ! » ثم عاد فرفع ذراعيه وانزلها بعنف باتجاههما وكأني به يدفعهما ليدخلهما في البيت . لكن جورج وايجليزيا بقيا على صهوتي حصانيهما في وسط الطريق المشمسة ، تحيط بها من حافتيها منازل متفرقة ، طريق مهجورة تماما ماخلا الحيوانات الميتة والموتى والاكوام المجهولة هويتها الجامدة المتباعدة في الافق القصي التي كانت هناك ، والتي اخذت تتفسخ تفسخا بطيئا تحت الشمس . فنظر جورج الى زاوية بيت الآجر ثم البيت الآخر الذي توارى فيه الشخص ثم عاد ، فنظر الى زاوية البيت الملأى بالخبايا . ولكنه سمع وراءه وقع حوافر الجياد . فالتفت واذا ايجليزيا يمشي خببا ، الى جانبه حصانه يمشي خببا ، وقد اتخذ الجوادان طريقا عرضية مختصرة من جانب اليسار

هذه المرة فامتطى جورج جواده هو ايضا ، وهو يركض لاحقا بايجليزيا فسأله : «اين انت ذاهب ؟ » فشخر ايجليزيا بدون ان ينظر اليه وعلى وجهه امارات العبوس والفظاظة : «أنا ذاهب لافعل ماقاله لنا . سأبحث عن اطار بالية وسأختبئ» فقال له جورج:"اين ؟ ثم ماذا بعد ذلك ؟»فلم يرد عليه ايجليزيا. وبعد لحظة كان الحصانان مربوطين في اصطبل فارغ. فضرب ايجليزيا الباب – مغتاضا – بأخمص بندقيته ، الى ان ادار جورج مقبض القفل بسهولة فانفتح الباب واذا حولهم الجدران وشبه الظل ، اعني بذلك فسحة مغلقة منتهية (لا يعني انهما لم يتعلما خلال فترة اسبوع مايكفيهما لكي يعرفا قيمة الجدران وصلادتها والثقة التي بامكانهما ان يولياها اعني تقريبا الثقة التي بامكان المرء ان يوليها فقاعة صابون – مع فارق انه عندما تنفجر فقاعة الصابون ، لايبقى منها اثر سوى قطيرات ناعمة تصعب رؤيتها ، بدلا من كدس الآجر والعوارض الذي لايمكن فك رموزه ، كدس رمادي قاتل يعلوه الغبار : ولكن ذلك قلما كان يهم . المهم لم يكن هذا ولكن همهما كان عدم امكانهما البقاء خارجا ، وانهما كانا محصورين بين اربعة جدران وسقف فوق رأسيهما) ومايلي : اربعة عصيات خشبية صفراء بلون البول منحوتة على شكل الخيزران وكانت اطرافها مشدودة تتجاوز زوايا المرآة التي كانت جوانبها الاربعة تؤطر وجها لم يره قط ، ضعيفا هزيل التقاطيع عيناه محمرتان وخداه تكسوهما لحية لم تحلق منذ ثمانية ايام . ثم فكر في نفسه : «ولكن هذا انا» ولم يزل ينظر الى وجه المجهول ذاك مسمرا في مكانه ، ليس من فرط دهشته او اهتمامه ، وانما من شدة تعبه ليس غير. فقد كان ، ان صح التعبير ، متوكئا على صورته الشخصية واقفا هناك متصلبا داخل ثيابه ، (وهو يفكر في هذه العبارة الفظة المهينة التي كان قد سمعها يوما : «انت تقف لان لك سراويل مصمغة») فأمسك ببندقيته الصغيرة من سبطانتها واخمصها يلامس الارض وذراعه متدلية قليلا الى ورائه ، وكأني به يمسك بشيئ يسحبه وراءه

كسلسلة في رقبة كلب ، حل بعض الماجنين الكلب ، فيما هو يمشي ، او كسكير يحمل قنينة فارغة بينما يتكيء بجبينه على زجاج نافذة باحثا عن النسيم العليل . فسمع ايجليزيا وراءه ، وهو يفتح الخزانة ويفتشها ، ملقيا على الارضية دون هدف ملابس نسائية ورجالية . ثم توارى وجهه كما توارت المرآة وبقي المستطيل الذي كان ماثلا امامه إطاراً للباب الذي كان واقفا فيه شخص ضامر الهيئة رأسه كرأس الجثة ، اصفر مزود بعدسة مكبرة لايزيد حجمها على حجم حبة حمص ملتصقة على خده الايمن عند منطقة الشدقين .

لابد انه تذكر ذلك جيدا فيما بعد : تلك البشرة الصفراء والعدسة المكبرة التي كان يستعملها باستمرار والارومات الصفر المغروسة هي ايضا بغير انتظام ملتوية في الفم ، تلك الارومات التي رآها عندما انفتح الفم ، تلك الجثة فقال : «مكانك يا ! ...»ثم قرب يده مبعدا سبطانة البندقية الصغيرة المسددة صوب بطنه ، فاخذ جورج يلاحق بعينيه اليد الهزيلة وهو ينظر الى مقود بندقيته الذي كان بشكل نصف دائرة ، بمعنى انه كان يخفض عينيه في الوقت نفسه الذي كان يشعر من ذراعيه بضغط السلاح على جسمه . فلمح هذا السلاح بالدهشة نفسها والمباغتة المعهودة نفسها التي شعر بها ، باكتشافه قبل لحظة ، وجهه المجهول في المرآة .

وحاول دون جدوى ان يتذكر كيف قفل راجعا ونظم مؤخرة بندقيته وصوبها ، بينما طفقت عضلاته تتقلص وتحاول ان تقاوم الصولة وان توجه السبطانة مجددا صوب الرجل . ثم كف عن المقاومة فجأة معيداً البندقية الى كتفه . فاستدار نصف استدارة وبحث بعينيه عن الكرسي الذي كان يعرف انه قد رآه قبل ذلك بلحظة . فجلس وكان اخمص بندقيته الصغيرة مرتكزا على الارض ، ملتصقا بلفافات ساقه ، ويده اليمنى تحملها ثانية من سبطانتها ، لم

يكن يحملها في طرفها تماما ، بالطريقة التي يحمل بها الشيخ الجالس عصا او عكازا ، بمعنى ان البندقية كانت بمثابة مسند او مرتكز للذراع ، ومقدمة الذراع واليد اليسرى مستويتان في وضعهما على الفخذ الايسر تماما كالرجل الشيخ ، حتى انه لم يشته الضحك بينما كان يفكر في نفسه : «فليقولوا ان هذا ربما يكون اول قتيل على يدي . ربما كانت هذه اول اطلاقة بندقية تخرج من يدي في هذه الحرب ؛لإنزال هذا الـ ...» ثم شعر بالتعب عندما هم بالوصول الى النهاية ، فسمع في حلم نهاري ، الجثة وفارس السباق وهما يتعاركان . فقد كان الرجل يصرخ امام الخزانة المفتوحة والثياب مرمية متناثرة على الأرض ويقول : «ثم وقبل كل شيء من الذي سمح لكما بالدخول من ...» فأجاب الصوت المسالم الرنان العذب الهادئ اللاعدواني الذي لم تكن فيه ذرة من التسرع وانما كان مليئا بالقدرة الزاخرة الصبور على التعجب ، القدرة التي كان يبدو ايجليزيا ممتلكا اياها : «انها الحرب يابابا . ألا تقرأ الصحف ؟ » .

لم يظهر الرجل (الجثة) وكأنه يسمع ، بينما كان يجمع الثياب ويفحصها واحدا واحدا ، كما يفعل بائع الالبسة المستعملة ، قبل ان يقدر لها سعرا اجمالياً تخمينيا ، قبل ان يلقي بها الواحد بعد الاخر على السرير ، وهو يكيل لهم الشتائم ، ناعتا اياهم بالنهابين . حتى سمع جورج (ربما الجثة ايضا ، لانه توقف بغتة عن العربدة ، وجمد في مكانه ، وهو نصف منحن وبيده ثوب امرأة او في الاقل شيء رخو لاشكل له رآه على خلاف الملابس الرجالية ، لم يكن ليتمكن من أن يتخذ معنى او أن يشبه شيئا الا اذا كان على جسم امرأة ، حتى لو كان هذا الجسم نفسه لدنا وعديم الشكل) الضجيج والوقعة المزدوجة القصيرة لحركة مؤخرة البندقية وهي في رواح ومجيء . كان ايجليزيا في تلك اللحظة ، هو ايضا يحمل بندقيته الصغيرة المسددة على صدر الرجل وهو يقول بصوته الشاكي (بل المنتحب المتزعج اكثر من كونه مجرد متأثر المستسلم اكثر من كونه متهددا) : «واذا

أنزلتك ؟ هل تستقدم الشرطة ؟ بأمكاني ان انزلك بدون ان يثير هذا اية مشكلة . ماعلي الا ان اضغط على هذا الزناد ، لكي تضاف جثة اخرى الى عدد الجثث الاخرى التي بدأ الانحلال ينخر فيها على هذه الطريقة . ان جثة اخرى اكثر أو أقل ، فذلك لن يغير شيئا البتة في الحساب» . احترز الرجل من القيام بأية حركة ، بينما كان يمسك بيده قطعة القماش اللدنة التي لايلقيها أبداً وقال : «هيا ياصاح . هيا . تعال . فلن نـ...» كان جورج مايزال جالساً على كرسيه ، وهو بهيئة الرجل العجوز يعرض جسمه امام الشمس على مقعد ، داخل احد الملاجئ ، بينما كان يفكر : «انه لقادر على ان يفعل ذلك» . ولكنه كان دائما بلا حراك . حتى انه كان يفتقر الى القوة على فتح فمه ، ماعدا القوة على التفكير بتثاقل . «ان هذا ليحدث ضجة مرعبة لاتطاق» . واذ كان يتأهب ويستجمع جسمه منتظرا اطلاق النار والانفجار ، سمع صوت ايجليزيا وهو يتشكى قائلا : «اذن كف عن النحيب . فاننا لم نكسر لك شيئا ، وكل مانطلبه هو ملابس لكي نتخفى فيها»..

ثم خرجوا (ثلاثتهم ومن بينهم الرجل الهزيل وايجليزيا وجورج – وكانوا يرتدون زي عمال المزرعة . أعني أنهم لم يكونوا يشعرون بأية منغصات . وانما كانوا مستبشرين ، وكأني بهم ، وهم يخرجون من قوقعتهم الثقيلة التي كان يشكلها الشرشف والجلد والاحزمة . يشعرون بأنفسهم عراة تقريباً عديمي الوزن في الهواء الخفيف) يطفون في ذلك المتسع ، في ذلك الفراغ والخلاء القطني ، وهم محاطون من كل الجهات بالضجيج او بالاحرى بالحسيس الهادئ ، ان صح القول ، الذي تخلفه المعركة . وفجأة طلعت ثلاث طائرات رمادية ، تحلق على ارتفاع منخفض طيرانا غير سريع ، تشبه السمكات تطير متوازية طيرانا افقيا ، مع تفاوت طفيف في الارتفاع كان يجعلها تتأرجح وتصعد وتهبط صعودا وهبوطا لايكاد المرء يشعر بها الواحدة تلو الاخرى ، تماما كالسمكات المتموجة في

التيار وهي تقصف الطريق هناك (كان ايجليزيا وجورج والانسان الشبيه بالجثة واقفين لايبرحون مكانهم ولكنهم لم يكونوا يفتشون عن مخبأ ، واقفين في الطريق الفارغ وكان السياج يحجبهم حتى منتصف صدورهم وهو ينتظرون . ففكر جورج : «لم يبق هناك سوى الموتى . يالغبائهم . انهم يطلقون النار على .... لايمكنهم على اية حال ان يأملوا بقتلهم مرتين») . كانت الرشاشات تحدث طبطبة مكائن الخياطة ، طبطبة مضحكة لايقتنع بها احد ، بطيئة جدا لايكاد صوتها يشبه صوت محرك ابطأ المضخات كهذا : طب .. طب ... طب ... ضائعا ، مخنوقا ، غريقا في الريف الواسع الجامد (لم يكن المرء من حيث كانوا يبصر شيئا يتحرك على الطريق) تحت السماء الواسعة الراكدة .

وبغتة هدأ كل شيْ : البيوت والبساتين والمروج المشمسة والاسيجة والغابات التي كانت تحجب الافق من ناحية الجنوب ، وصوت المدفع الهادئ يسمع ذات اليسار ، يحمله الهواء الحار الهادئ العايل المسالم هناك صبوراً كعمال عكفوا على هدم دار غير متسرعين لاأكثر ولاأقل .

وبعد ذلك بقليل ، اذا بجدران اخرى تحيط بهم او انها لم تكن جدرانا ، كانت شيئا فشيئا مغلقا على كل حال . فجلس جورج طوعا ، فيما حاول فمه ولسانه وشفتاه ان تقول : «أفضل ان آكل شيئا . فاذا كان لديكم شيْ يؤكل فأني ... لكن طلبه لم يسعف . فنظر بيأس عاجز الى الرجل الذي يشبه وجهه وجه الجثة وهو يتحدث مع المرأة الواقفة بجانب المائدة . ثم راحت المرأة وعادت فوضعت امامه القدح فأترعته (كان مخروطيا ناعم الحجم مقلوبا واسع الفوهة رفيع القاعدة) بشيْ شفاف عديم اللون كالماء .

ولكنه هم بنفثه حالما وصل الى فمه ، لشدة حموضته وحرافته . غير انه لم ينبذه وانما إبتلعه وعندما ارتشف طوعا محتوى القدح الثاني العديم اللون الشفاف الحريف المحرق بعد ان اترعته ، حاول مجددا (او على الاصح حاول ان يحاول)

ان يقول انه يفضل اكل شيئ من الطعام ولكنه ، واليأس القاتل نفسه مستحوذ عليه ، اقتصر على ملاحظة ان الامر (اي طلب الطعام) يتعدى تماما قدراته . لذا فقد اكتفى بالانصات (او بمحاولة الانصات) لما كانا يقولانه . كما اكتفى بافراغ ما في المخروط الصغير المملوء سائلا عديم اللون محرقا .

وساءل نفسه هل سبق ان شرع الذباب يطن فوقه طنينه على الحصان الميت ، وفكر في الطائرات ثم عاد ففكر : «ولكنهم لم يستطيعوا قتله مرتين ؟ » حتى فهم انه اصبح سكران وقال : «لقد التبس علي الأمر بمعنى اني لم اعد اعرف جيدا اين كنت ولا ماذا كان يجرى او هل كنت افكر فيه (هو الذي اخذ يتفسخ تحت اشعة الشمس وكنت اسائل نفسي عن موعد تغلغل النتانة فيه ، وهو لايكف عن التلويح بسلاحه في معمعة طنين الذباب السوداء) .

ام في واك ، ورأسه منحن على السطح المنحدر يحدجني بشكله المغفل وفمه المفغور على مصراعيه فمه الذي كان الذباب ساعتئذ جاثما عليه ، ناعم البال . لان مقاومته كانت قد انتهت بدون شك حيث انه كان قد فارق الحياة منذ الصباح عندما اردى الشخص المسلح الاخر احدنا قتيلا في ذلك الكمين . وفكر : ياللاغبياء ، يالكم من اغبياء ، يالهم من اغبياء ، معتقدا ان الغباء او العقل ، في نهاية الامر ، لم يكن لهما دخل في كل هدا ، أود ان اقول ، فيما نتصوره أنه نحن اي تلك القدرة التي تجعلنا نتصرف ونكره ونحب ، بما ان جسمنا ووجهنا يستمران في التعبير عما كنا نتصوره خاصا بعقلنا . فسواء كنا عشاقاً او بسلاء او جبناء او قتلة فهل ياترى توجد السجايا والاهواء خارجاً عنا ثم تأتي لتأوى بمعزل عنا تطلب رأينا داخل هذا الهيكل العظمي الفظ الذي تمتلكه هي . لانه حتى الغباء نفسه كانت عليه مسحة من النعومة والدقة ، وان صح التعبير ، من الذكاء المفرط لاتسمح له بأن يكون صفة لواك ، ربما اذن لم يوجد واك الا لكي يكون واك الغبي . على كل حال لم يعد بمقدوره الان ان يدرك ذلك . واك

ياله من ابله مسكين ! : تذكرت اليوم ذلك العصر الممطر الذي كنا فيه نستمتع باستفزازه ونحن نتشاجر بغية قضاء الوقت حول ذلك الحصان المريض .

لم تكن الشمس والحرارة كالان . واني اتصور لو انها كانت قد ماتت لكانت قد تحللت وذابت وتفسخت كالجثث النتنة . كان المطر يهطل بدون انقطاع . فشرعت أفكر آنئذ باننا كنا كالعذارى او كالجراء الصغيرة رغم الشتائم والنداءات التي كانت تخرج من افواهنا ، عذارى لان الحرب والموت وأود ان اقول كل هذا ...» (كان ذراع جورج يرسم نصف دائرة ، ويده تتنحى عن صدره كاشفة تحتهم داخل السقيفة المضطرب ومن الجهة الاخرى ، زجاج نوافذ وسخا والقاطع الخشبي المزفت لسقيفة اخرى مماثلة كائنة خلفهم – لم يكونوا يستطيعون رؤيتها ولكنهم كانوا يعرفون انها هناك – وكانت هذه السقائف المتشابهة قائمة هناك كل عشرة امتار تقريبا ، فوق السهل العاري في خط مستقيم واحد ، متشابهة كلها ، متوازية على جانبي ماكانت تظن الناس انه شارع او شوارع تتقاطع في زوايا قائمة ، مشكلة تخطيطا شبيها بلعبة الدامة .

كانت كل السقائف في اتجاه واحد ، منخفضة معتمة مستطيلة تفوح منها رائحة البطاطة النتنة الفاسدة ورائحة الفضلات البشرية الطافية عبر الهواء باستمرار مشكلة ، بدون شك – في رأي جورج – فوق المربع الواسع الذي كانت تفوح منه ، غطاء محكما غائطيا عنيدا شائنا ، حتى لكأنهم ، على حد قوله ، سجناء للمرة الثانية : اولا لانحباسهم داخل هذا السياج المعد من الاسلاك الشائكة والممتد على اعمدة الصنوبر غير المقشر . وثانيا لأنهم سجناء قدراتهم (وسفالتهم : سفالة الجيوش المدحورة والمحاربين المهزومين) . كان جورج وبلوم كلاهما جالسان وارجلهما متدلية على حافة مضجعيهما ، وهما يحاولان ان يتصورا أنهما ليسا جائعين (لقد كان هذا مايزال سهلا جدا لانه يسهل على الانسان ان يتوصل الى اقناع نفسه بأي شيء كان عندما يناسب هذا الاعتقاد امنياته : ولكنه

يكون من الصعوبة بمكان بل مستحيلا ان يقنع به الجرذ الذي كان لايني يلتهم بطنيهما (بحيث ان بلوم قال ان للانسان في زمن الحرب خيارا واحدا بين حلين : ان يموت وتأكله الديدان او ان يعيش ويأكله جرذ جائع) . فكشطا قعر جيبيهما آملين ان يجدا فيهما بقايا منسية من التبغ . فجمعا خليطا هائلا من كسر الخبز وبقايا حشوات القماش المترسبة في زردات الخياطة ، حتى لتسائل نفسك أبالامكان تدخين ذلك أم أكله : اعني انهما كانا يتناقشان (اي جورج وبلوم) حول مدى موافقة الجرذ على ابتلاع تلك الاشياء . ثم خرجا اخيرا : بالنفي وقررا ان يحاولا التدخين : وكان حولهما ضجيج مستمر وضوضاء موحلة مبهمة – احاديث ومساومات وخصومات ورهانات وبذاءات ومفاخرات وتبادل الشتائم – كالتنفس (لم يكن هذا الضجيج ينقطع قط حتى اناء الليل ، ولكنه كان يصم نفسه بنفسه احيانا ، وكأنك تحت الرقاد نفسه تستطيع الاستمرار في رؤية هذا الانزعاج الدائم والتحرك العقيم الذي لاجدوى منه لحيوانات في قفص) الذي كان يملأ السقيفة .

كما كانت ثمة موسيقى واوركسترا وكمان رديئ ونفحات مستطردة تنبعث من داخلها، واوتار موزونة على آلات تتكون من بيدونات فارغة وقطع الالواح الخشبية واسلاك حديدية مقطعة (لابل بانجوات اي قيثارات جلبوها وحفظوها هناك الله اعلم كيف) تتعالى متقطعة من اعلى الضوضاء (ثم تنغمر مختنقة منصهرة متوارية بين الضجات الاخرى– او ربما كان المرء هناك ينساها، او مجرد انه لايعود يشعر بها) وكان النغم نفسه والرنين المتكرر والردة نفسها تتصاعد وتتردد رتيبة متشكية بكلامها اللامعقول ورتابتها المستطردة المرحة الملأى بالحنين:

ياجدنا : ياجدنا :

نسيت حـ: صا: ن: ك:

وعقب هذا للتو بنبرة اعلى:

ياجدنا: ياجدنا:

وكأنه ابتهال وتوسل وتضرع أو ملامة تهكمية هجائية او تذكير أو تحذير أو شيءً لاعلم لنا به، لاشيءَ، دون شك، سوى كلام لايحمل معنى. فالنوطات الاستطرادية الخفيفة اللامبالية كانت في غمرة ترداد لايكل ولايمل، وكأني بالوقت هو ايضاً لايبرح مكانه، كوحل او حمأ راكد. وكأنه محبوس تحت ثقل غطاء النتانة الخنّاق التي تفوح رائحتها من الاف والاف الرجال العفنين داخل مهانتهم المنقطعين عن عالم الاحياء، ولكنهم مع كل هذا لم يدخلوا عالم الاموات بعد: فأن صح التعبير، بين بين، وهم يسحبون كالجراحات المنهكة بقايا بدلاتهم المضحكة التي كانت تخلع عليهم شكل قوم الاشباح، او الانفس المحجورة أعني بها المنسية او المنبوذة او المشجوبة او الملفوظة من الموت والحياة معاً. وكأن لاهذه ولاذاك له تعلق بهم. حتى لكأنهم باتوا يتحركون ليس في اطار الزمن وأنما في اطار (فرمول) اي مطهر قوي رمادي لابعد له، أو في اطار العدم او المدة المجهولة التي تخترقها بين الفينة والفينة تلك الردة الحنينية، ترداد هذه الكلمات الخالية من معنى المستطردة الاكتئابية:

ياجدنا: ياجدنا:

نيست حـ: صا: نـ: ك:

ياجدنا: ياجدنا:

وأنتهى الامر بجورج وبلوم الى ادخال قطعة ورق رقيقة مسطحة عديمة الشكل بين شفاههما كانت بمثابة غلاف لحشوة قماش او نفايات اكثر من كونها غلافا لتبغ، كانت ارق ومسطحة اكثر من عود تنظيف الاسنان. وفيما كانا يستنشقان الدخان الحريق الذي يزكم الانوف قال جورج:

(...كل هذه القذارة لم تكن قد قطعت وحطمت فينا بعد ماهو بمثابة غشاء البكارة لدى الفتيات عندما ينفتح الجرح، غشاء لن نجده بعد الى الابد، تلك

البكارة وهذه الرغبات البتولية الطازجة التي ترقب الفتاة التي لحناها، الاتتذكر عندما كنا نرصدها رافعين رأسينا دون انقطاع باتجاه تلك النافذة، ذلك الستار المشبّك، عندما تصورنا أنها تحركت قلت لك هل رأيتها. هاقد نظرت وأُرتنا نفسها ثم اختفت ثانية. وانت اين رأيتها؟ اما انا فقد رأيتها، تالله، خلال تلك النافذة. وانت اين رأيتها؟ أنا رأيتها اخيراً هناك عند البيت المبني بالآجر فقلت لي انت: «أنا لاأرى شيئا» فقلت لك: «مايزال الطاووس يحرك ذيله. كان هناك طاووس منسوج في الستار المشبك بذيله الطويل المزدان بعيون كثيرة كنا نستهلك عيوننا من فرط الرصد ونحن نواصل المضايقة لامور تافهة. حاول واك ان يتصور ويتساءل لمعرفة جيشان الاهواء الخفي: لم نكن في وحل الخريف. لم نكن في أي مكان. كنا قد انتقلنا الى فترة، ماقبل الالف سنة او الالفين او بعدهما، في عز الجنون عندما كان ملوك الاتريد اليونان يتسابقون عبر الزمن، والليل الغارق بالمطر يخيم على مطايانا الملتهبة حوافرها، بغية الوصول الى مخدعها ومباشرتها لكي نجدها دافئة نصف عارية بيضاء كالحليب ، في ذلك الاصطبل، وتحت ضوء ذلك المصباح: اتذكر أنها حملته لاول وهلة ورفعته الى طرف ذراعها. ثم وفيما شرعنا نحن نحل السروج، خفضته رويداً، رويداً ربما لأنها كانت تعبة، بحيث ان الظلال كانت تدور تدريجياً على محياها ثم تختفي متوارية، وكأنها لم تنتظرنا هناك الا لكي تتوارى عنا فورا بعد ذلك، ونحن في بدلتنا العسكرية التنكرية المبللة كالحساء ننصت في الصباح الرمادي الاسفنجي للصيحات والاصوات والغضب الغامض ولهؤلاء التراجيديين المرتدين بدلات العمل الزرق التي تغطيها مظلات، وهم يتخبطون في زيهم واحذيتهم المطاطية السوداء المرّصعة برقع حمراء فيما كان الاعرج المغضوب عليه يحمل بندقية الصيد التي كنت اتصور دائماً انه قتل نفسه بها، أثر حادثة، خرجت الرصاصة منها تلقائياً فضرجته بدمائه واخذ الدم ينساب الى صدغه (كانت فترة تنطلق فيها الرصاصة تلقائياً وتفرقع في وجهك بدون ان

تعرف لماذا) ولكنه ربما كان يريد مجرد أن يطلق رصاصته، شأنه في ذلك شأن الجميع. فقال واك: «تحسب انك ذكي. اما انا فلست سوى فلاح مسكين- لست سوى يهودي انا ولكن» فقلت له: يالك من غبي، يالك من ابله، يالك من مغفل «فأجابني: ولكن كوني من الريف او يهودي المدينة لايبيح لك ان...» فقلت: الله!. يالك من غبي، يالك من ابله. اما واك فقال: انك لاتخيفني، هل تدري. فأجبته: «يالله». وبعد ذلك صعدنا الى ذلك المقهى الواقع عند محيط القرية اعني عند مستطيل الوحل الاسود حول المسقى الذي داسته الجياد والبهائم، المسقى الذي كان بمثابة ساحة. جلسنا ثم عادت فملاءت الاقداح ووضعتها امامنا. فقلت انا: «لا، لاأشتهي شكراً. لان رأسي كان يدور. اتذكر انها كانت صالة واسعة، سقفها المنخفض مبلط، وجدرانها مصبوغة باللون الازرق الذي نخره ملح البارود. كان فيها قرابة عشر مناضد وبيانو آلي وخزانة غرفة طعام منخفضة طويلة. وعلى الحائط كنت تقرأ قانون منع السكر العلني، وقد اصفرت الورقة التي كان مدوناً عليها ذلك القانون واكتست بذرق الذباب وبأعلانات المشروبات الروحية والبيرة مع الغيد الحسان المحمرة شفاههن فما يتكلفن الحركات او مناظر مصانع البيرة المصورة بالطائرة من أعالي الجو، يتصاعد الدخان من مداخنها، حيث تظهر سطوحها الحمراء او لوحتين مطبوعتين بالحجر الملّون تمثل احداهما مركيزات يرتدين ثياباً زاهية الالوان في حديقة متلاشية المعالم، والاخرى تمثل جمهرة من الاشخاص يرتدون زي عصر الامبراطورية الفرنسية في صالون اخضر ذهبي، ترى فيها الرجال منحنين على اكتاف النساء المستندات على متكآت مقاعدهن، وهم دون شك يغازلونهن كما كنت ترى ايضاً احد ملفات الصحف المجدول من السلك الحديدي المتصدي. وعلى الخزانة الانفة الذكر وعاء تحيط بعنقه ياقة صغيرة مكشكشة ومثلومة. ولكننا لم نذهب هناك طلباً للشرب وانما لمشاهدة الفتاة وتلك الفوضى وتلك الصرخات وذاك الصخب

الملتف حول ذلك اللحم الذي لحوه مجرد لحظة واحدة وتلك القصة الغامضة التي ظنوا ان امرها مشكوك فيه وانفلات العنف هذا الحانق القاتم في عز انفعاله، وذلك الاعرج والشخص الاخر اللذين كانا يحتذيان مداساً متشابهاً مرقعاً برقع تصطدم بالوحشية وعدم الاتزان هذا. كانا غريبين عنهما وعنا وغير مفهومين بالنسبة اليهما. والينا، فيما كان ماجرى لهما قد تعداهما واجبرهما على ان يحذر كل صاحبه، وهما يرميان بنفسيهما في التهلكة، بمعنى ان احدهما كان مستعداً (او لاهثا بالاحرى تحرقه الرغبة، او الاحرى الحاجة او بالاحرى الضرورة) لارتكاب جريمة. والاخر كان هو ايضاً متأهباً لان يكون الضحية، وذلك رغم جبنه والخوف المشهود الذي كان يجعله يستتر وراء ظهر شخص آخر، بينما كان دي ريكساك حكماً بينهما او كان يبذل قصاراه لتهدئتهما وهو متبرم صبور غائب لايمكن اقتحام اسراره وهو بينهما. هو الذي كان للالم او بالاحرى للمعاناة في نظره شكل يختلف عن اقرانه او اترابه، شكل فارس سباق مع رأس مهرج. لم نسمعه قط يرفع صوته مرة ضده، شكل كان يلزمه على مرافقته كظله، مثلما كان يفعل الآشوريون القدماء، حيث كان القوم يذبحون فوق جنائزهم حورية او حصاناً او عبداً عزيزاً لكيما لاينقصهم شئ ابداً، ولكي يكونوا مخدومين في العالم الاخر الذي يواصل فيه هو وايجليزيا بدون شك تبادل حديث صامت شحيح حول الموضوع الوحيد الذي ربما يستهويهما كليهما، اعني بذلك موضوع وجبة شوفان او حدوث سخونة في العرقوب. وبهذا يكون قد نجح في النصف الاول من البرنامج اعني قتلها هو والحصان معاً. ولكن هيهات ان ينجح في النصف الثاني الذي كان يعلق عليه الامال لكي يسترسل في النقاش الى ابد الابدين بشأن التهاب رسغ الفرس او افضل النعال. ثم يدير الرسن في اللحظة الاخيرة فيتركه فريسة للذباب، تحت اشعة شمس آيار التي تعمي الابصار حيث تلألأ حديد السيف المسلول لحظة، ثم اترعت لي مرة اخرى قدحي المخروطي الصغير بشراب

ثمر العرعر، وهي تقدمه لي بطريقة اصولية هادئة مشهودة، اعني انه يطفح قليلا كما هي العادة. بحيث ان سطح السائل ينتفخ مكوناً بفعل قاعدة الاواني المستطرقة– اعتقد ان هذا هو اسم الظاهرة– انتفاخاً خفيفاً كالعدسة على حافة القدح المرتجف، فيما كنت ارفعه بحذر شديد حتى شفتي، ويدي ترتجف، والضوء الفضي يتألق ويرتج مع السائل عديم اللون الذي كان يسيل على اصابعي ويحرقني اذ كان ينحدر في حلقي...»

فقال له بلوم: «مالذي تحكيه؟ هذه هي المرة الاولى التي اجد فيها شخصاً يمضي مشوار اسبوعين لكي يصحو من سكرته....»

توقف جورج فجأة، فيما كان يمشي. فحدجه وهو حيران لايصدق خبره. فبقي كلاهما هناك وسط الضوضاء المستمرة بحيث انهما لم يعودا يسمعان حتى هدير البحر.

فقال بلوم : «لم يكن المشروب من ثمرة العرعر هذه المرة» كان قد اشتعل ورقها المشمع اعني انه تقلص الى انبوب لايتجاوز قطره سنتمترا ، انبوب مسطح فارغ ابيض او الاحرى رمادي ، في المكان الذي ضغطت عليه شفاهها ، ثم عاد فأصبح اصفر تدريجيا ، فبنياً ، فسننا ، وممزقا ، واسود ، ورغم كونه يعرف انه لم يبق شيئ يمكن الحصول عليه منه ، فأن جورج حاول تلقائيا ان يأخذ مصتين او ثلاثا ، ولكن عبثا ، فلم ينبعث سوى صوت مزعج من سدادة .

ثم قرر اخيرا ان يأخذ من شفتيه عقب السيكارة الهزيل المشوه ، ولكن بدون ان يهم برميه ، وانما بقي يتفرس فيه حيران ، متوقعا فرصة مصه مصة اومصتين على حساب عود ثقاب ثمين وهو يقول : «ها ! ماذا ؟» فأجابه بلوم : «لم يكن من ثمرة العرعر ، وانما من قبيل المشروبات الساخنة . لقد كنت قبيح الشكل فأتخذت من هذا ذريعة لكي تصعد الى مقهى القرية ، اعني انك لم تكن تكترث

لقبح شكلي او لجماله ، وانما بالاحرى اعتقد انك تتصور من قبيل المجد الباطل محاولة جعل صاحب المقهى يعترف بحجة البحث عن غرفة لصاحبك المسكين قبيح الشكل الذي كان يستحيل ايواؤه في مستودع للحصيد ، تكثر فيه التيارات الهوائية ، في الوقت الذي كان جل مايهمه هو التقاط النمائم المشاعة ضد هذه البنت وهذا الاعرج اما بشأن صديقك المسكين ...» قال جورج : «آه ، حسن ، حسن ، حسن ، حسن ... » ثم عاد فارتشف فنجان القهوة والظلام يضرب اطنابه ، وسحاب البخار ينبعث من ثغريهما عند كل كلمة ينبسان بها ، لاتكاد العين تراه إلا في الضوء المعاكس ، عندما يمران عبر ضوء نافذة منيرة صفراء) فقال بلوم : «لو كان حدسي صحيحا فأن هذا الاعرج رائد الرماية بالبندقية يعاني من الغرام» . فسكت جورج ، فيما كانت يداه في جيبه ، يحترز من السقوط في الوحل الذي لاتراه العين . فقال له بلوم : «ذلك المساعد بمظلته وحذائه المرقع ! عاشق القرية ! .

من تراه كان يصدق هذا ؟ هو وقدح الحليب هذا ...» فبادره جورج قائلا : «انك تخلط الحابل بالنابل : ليس معها ولكن مع اختها» ، فأجابه بلوم : اخـ ...يه . وبعد خنق شتيمة في فمه ، تدارك نفسه وهو يمسك بكتف جورج ، فترنحا هنيهة ، وكأنهما ثملان ، ثم طفقا يمشيان وسط الظلام الجامد يتصببان عرقا ، والظلام يشتد حلكا ، كلما كانا يبتعدان عن المرآة وعن الابواب وعن النوافذ المنيرة ، حتى يبلغ بهما الامر الى ان لايرى احدهما الاخر ، والى ان لايعود شيئ يمثلها سوى صوتهما ، فيتجاوبان في الظلام ويتبادلان عدم اكتراث كاذبا وانشراحا كاذباً ووقاحة الفتيان الكاذبة هذه :

– لم اعد افهم من الامر شيئا .

– أنت اذن اشد حماقة من واك . اني لأراهنك انه فهم منذ وقت طويل .

– أشد حماقة من واك . خير ، خير . ولكن كرر ذلك ، كان (اقصد هنا

المساعد ، ذلك الشخص الذي راح في ذلك الصباح ، وهو متدرع بمظلة وبالجبن الذي يمتاز به وبوقار الضابط ، يستهزئ ويتحدى قرينه الذي كان هو ايضا يحمل بندقية) ينام مع شقيقته التي كانت زوجة ذلك الاعرج – أليس صحيحا ؟

– أجل

– ولكنهم سكنة ريف ولايصح ان ؟

– أجل .

– أخواتهم والمعزى اليس صحيحا ؟ يبدو انهم اذا تعذر حضور شقيقاتهم ، يفعلون ذلك مع معزاهم . هذا ماتدعيه الناس على اية حال . لعلهم لايجدون في ذلك حرجا ولافرقا .

– لم يكن رجل المقهى يبدو شديد التمييز بين امرأته وكلبه .

– لعله كلب استحال امرأة .

– لعله .

– انهم يعرفون توجيه النصيب السيئ الى غيرهم . ولكن لسوء الحظ هذه المعرفة تزول . لقد كانت ملائمة لهم .

– اذن فقد قلب عنزته الى بنت او شقيقته الى عنزة . فقال فولكان : اعني ان هذا الاعرج تزوج فتاة معنزة الرجلين وكان الجدى يأتي يواقعها في بيتها ، اليس كذلك ؟

– هذا ما قاله .

– لقد كان اذن حليب عنزة ؟

– من ؟

– تلك التي كانت في هذا الصباح في الاصطبل ، تلك التي تختبئ وراء ذلك الطاووس الخرافي ، تلك التي اغرقتك رؤيتها في ذلك الهذيان المبرم الشاعري

الباهض الثمن بما انه كان عليك ان تدفع ثمن نصفي ليتر من البيرة عن سكير البار حتى تـ ...

ياالله ، انك بالتأكيد اشد غباء من واك . فقد قلنا لك الف مرة انها كانت زوجة اخيه .

(لايستطيعون رؤية المطر وانما سماعه فحسب وتصوره وهو يهطل ، صامتا صبورا ماكرا ، في وسط ليل الحرب الحالك ، مبتلا من كل جهة فوقهما وعلى رأسيهما ، حولهما وتحتهما ، وكأني بالاشجار اللامرئية والوادي اللامرئي والتلال اللامرئية والعالم اللامرئي بأسره تذوب كلها شيئا فشيئا ، وتتفرق شذر مذر ، لتصبح ماء أولا شيئا او ظلاما دامسا جامدا . فأرتفع صوتاهما المطمئنان طمأنينة كاذبة والساخران سخرية كاذبة وتغالبا وكأنهما يريدان التشبث الواحد بالاخر ، وان يطرد احدهما الشياطين بواسطة صاحبه ، وهو يطلق التعاويذ لابعاد الخراب الاعمى الصبور الذي لانهاية له . فأخذت الاصوات تصرخ وكأنهما صوتا حبيبين متبجحين يحاولان استمداد الشجاعة :)

تبا لك ! أي أخ . تبا لك ! واخيرا ماهذه الحكاية ؟ اذن كلهم اشقاء وشقيقات اي انهم تيوس ومعزى . اذن تيس وعنزته . وهذا الاعرج الشيطان الذي تزوج العنزة التي كانت تتعاظل مع اخيها التيس الذي ..

– ولكنه بعد ان قضى منها وطرا طردها او بالاحرى طلقها .

– طلـ ... كيف تقول ذلك ؟

– طلقها .

– لاتمزح . اذن الحال كما في المسرح .

– نعم .

– حسن جدا . اذن فقد داهمها (فولكان) وقبض عليهما كليهما مطبقا عليهما الشبكة و ...

–كلا فقد قال الشخص انها كانت ملأى
– ملـ ...
– قال انها كانت ملأى كالبقرة . الا تفهم، هل تريد ان ارسمها لك .
– لقد قلت ان الامر كان يتعلق بعنزة . ولم يكن يحتاج الى جداء تبيعها في المعرض ؟
– لعله كان يؤثر بيع عرجان صغار .
– لعله . وبعد ذلك كرر الاخر العملية .
– من ؟
– التيس .
– نعم ولكن هذه المرة مع امرأة ذلك الذي هو جندي .
–لعل معزى العائلة تعجبه .
– لعل . ولهذا السبب يحرسها الاخر ببندقية .
– ولهذا فأن هذه البندقية قد تتوق الى ان تتحرر منه وتنطلق تلقائياً . يالله . ياللظلام الدامس . هاقد وصلنا . هو ذا النور .

(واذ رأيا الاخرين جالسين لايبرحون ، مكانهم حول الحصان المنازع ، ينيرهم المصباح الموضوع على الارض ، التفتوا عندما دخل جورج وبلوم ، فانقطعت اصواتهم وحملقوا في القادمين ، فادرك جورج حينئذ انهم كادوا ينسون الحصان ، وهم يسهرون عليه سهر العجائز على الموتى . كانت جلستهم نصف دائرية ، على نقالات او سطول ، وهم يتندرون باصواتهم احادية الوتر الشاكية الخرقاء باقاصيصهم المألوفة التي تدور حول الحصاد الذي أتلفه سوء الاحوال الجوية ، وحول اسعار الحنطة الشمندر وحول وصفات توليد البقر ، وحول المآثر الهرقلية التي كانت تقوم بتعداد اكداس التبن واكياس الحب المحمولة والحقول المزروعة ، بينما كان رأس الحصان الراقد على منكبه يبدو متمددا ، تحت

بصيص نور المصباح المنخفض ، ويتخذ هيئة كوارث مرعبة ، ومنكباه المحلقان يرتفعان وينخفضان بسرعة يملآن الصمت بنفسه ، وعينه المخملية الضخمة تعكس دوما نصف دائرة الجنود ، وكأني به أصبح يجهلهم ، ويستشف خلالهم شيئا لايستطيعون مشاهدته فقد كانوا كالاشباح الصغيرة المتقلصة التي كانت ترتسم وتنطبع على عدسة عينه الصغيرة انطباعها وارتسامها على صفحة الكرات السمراء الذهبية التي تبدو وكأنها تقتنص وتتنشق ، في منظور مشوه يدفع الى الدوار ، وتبتلع في داخلها ، العالم المرئي كله بأسره . وكأني بالحصان غاب من هناك ، رافضا تاركا مسرح هذا العالم لكي يجيل طرفه ويركزه على رؤية داخلية تدعو الى الراحة اكثر من جيشان الحياة المستمر ، وعلى حقيقة هي احق من الحقيقة . فقال بلوم : «ماخلا حقيقة الموت . هل هناك حقيقة اخرى أحق ؟» (اخترق جماعة الجالسين بدون ان يتكلم ، وراح صوب سلم الهرى يتلمس في الظلام ، مبرطما في الشوفان لكي يعيد النظام الى لحافه) فقال جورج :

«حقيقة وجوب تناول الطعام . ألست تنتظر الحساء ؟ » فاجابه بلوم وهولايني يتمتم بين اسنانه قائلا : «تصورني قبيحا مضطرب الهندام . فقد ساعدتك حالتي مساعدة كافية لجعل صاحب المقهى يعترف . وكل هذا في سبيل فتاة مزرعة لاوحتها مدة خمس دقائق تحت بصيص مصباح . يخيل الي اذن انك كنت تستطيع في الاقل ان تتذكرها ، أليس كذلك ؟ » فقال له جورج : «اذا كان عليك ان تموت فتمالك نفسك في الاقل بعض الوقت ، حتى يكون موتك مجزياً ،» فاجابه بلوم : «ما الأفضل : الموت بردا ام الموت مطرزا بوسام ؟ » فقال جورج : «امهلني أفكر . الموت عشقا ؟ فأجابه بلوم :

«لاوجود لمثل هذا الموت الا في الكتب . ولطالما قرأت انت كتبا» ثم باتا ثانية في الظلام الدامس وكان صوتاهما يتجاوبان :)

– لماذا ؟

– لانه يدري انه سوف يموت .
– لايعرف شيئا البتة .
– بلى انه يعرف بالفطرة
–كم من امور تعرفها بالسليقة ؟

– اعرف في الاقل واحدا الا وهو انك تزهقني .
– حسن . ماتراه اثمن في رأيك جلد حصان ام جلد انسان ؟
– انت تعرف ماهي البورصة . فالامر يتعلق بالظروف .
– على ان هناك اشارات .
– يخيل اليّ ان كيلو لحم الحصان اثمن في الوقت الحاضر من كيلو لحم الانسان .
– هذا ماكنت اتصوره انا ايضا .
– عليك ان تفكر بعقلية هؤلاء الفلاحين الذين يقيّمون البضاعة بالوزن .
– هذا صحيح لأن كيلو واحدا من الرصاص يزن اكثر من كيلو ريش ! كل الناس تعرف هذا !
– كنت اتصور انك مريض
– لم تخطئ . دعني أنم واستسلم للراحة .

ثم هبط جورج السلم ، وعاد فاقتحم رويدا رويدا برجليه ، نور المصباح المصفر الذي كان يصعد الى ساقيه وصدره ، وانتصب وسط النور ، وهو يغمز بعينيه غمزات خفيفة ، فيما كان يحس بألحاظها مسلطة عليه (اذ لم يبق سوى اثنين : ايجليزيا وواك) وبعد وقت يسير قال ايجليزيا :

«ماذا حل به ، هل هو مريض ؟ » كانا مشرئبين صوبه بعيونهما المتسائلة الواجمة ، ووجهاهما يسبحان في النور المسرحي الذي يطلقه المصباح الموضوع على الأرض ، وكأنه يذكّرنا بفزّاعة الطيور . فقد كان وجه ايجليزيا اشبه برجل

سرطان البحر . (انفه وذقنه وبشرته الجافة قليلا) هذا اذا كانت لرجل السرطان عينان . وقد كانت تقاطيع وجهه الابدي الاكفهرار والاكتئاب ، ابدي الاكفهرار والاكتئاب ، لاسيما انه لم يعرف قط ماهو الحزن وما هو الفرح . كان ثمة واك بوجهه المستطيل الغبي ، وبهيكله العظمي الجامد ، بهيئة القرد المقعي وبيديه المضطربتي الابعاد المشققتين وقد تداخلها الطين وكأنهما خشب متجزع القشرة او ادوات مستهلكة وهما متدليتان لا حراك فيهما بين ركبتيه . فهز جورج كتفيه . واخيرا قال واك بصوته ، صوت المغفل : «هذه الحرب» بدون ان يستطيع احد ان يعرف هل كان يفكر ببلوم المريض او بالحصاد والغلات المفقودة او بالاعرج المحتقر الذي يشهر بندقيته ، او بالحصان او بالبنت التي لازوج لها ، او لعله كان يفكر بهم هم الثلاثة الذين كانوا هناك وسط الليل ، حول ذلك المصباح ، او حول البهيمة التي كانت تحتضر وعيناها شاخصتان تروعان من ينظر اليهما، وتصبران صبرا مرعبا ، ورقبتها كانت تبدو متمددة وهي تسحب العضلات والرسغ ، وكأني بثقل الرأس الضخم كان يجرها خارج المحمل في الظلام ، حيث تهرول الجياد الميتة وقطيع الافراس العجوزة البليدة السوداء المكلفة بمهمة عمياء ، تجاهد مسرعة للتسابق ، قاذفة برؤوسها الخاوية الى امام ، وسط عاصفة من طقطقة العظام وخبب الحوافر المتصادمة : اشبه بكوكبة افراس بليدة شاحبة يمتطيها فرسان شاحبو اللون هم ايضا موتى ، شظاياهم لايكسوها سوى جلد ، يتمايلون باحذيتهم الضخمة وبمهاميزهم المتصدئة التي لاجدوى منها ، تاركين وراءهم خطا من الهياكل العظمية البيضاء التي يبدو ان ايجليزيا يحدق فيها متأملا ، وقد دخل في صمته الازلي ، وعينيه الكبيرة الشبيهة بعين السمكة تعلوها امارات الحيرة والصبر والاهانة ، وهي الامارات الوحيدة التي عنت له في تلك اللحظة ، او الوحيدة التي علمته الحياة اياها ، ولعله تعلمها ايام كان يتنقل من اجتماع الى اخر في الاقاليم ، راكبا هذا الحصان الشموس او ذاك

حصان السباق الرديء اللذين لايمكن توقع خير منهما ، على حلبات السباق التي غالبا ماكانت مجرد حلبات ليس غير مع رموز لمنابر خشبية نصف منخورة واحيانا لاوجود للمنابر اطلاقا ، وانما مجرد مرتفع أو سفح تل كانت الناس تتسلقه مع ثلاث سقائف من صفائح قريبة الشبه باكواخ حمامات ، مع مكتب مقصوص بالمنشار لتسلم الرهانات ، ورهط من الشرطة مكلف بمنع باعة الحيوانات والقصابين الملأى جيوبهم بحزم من الاوراق النقدية والمزارعين الذين كانوا بمثابة جمهور ، يمنعونهم من محاكمة الفرسان الخاسرين محاكمة صورية . بينما كان يركض غالبا تحت المطر ، نازلا من جواده المبلل المتسخ من اخمص القدم الى قمة الرأس ، حاسبا نفسه راضيا تمام الرضى ، او استطاع الخروج فقط بسرواله الوسخ ، لكنه غير ملوث يغسله بنفسه مساء في مغسلة غرفة فندقه . هذا ان لم يفعل ذلك في مسق احد الاصطبلات التي ارادوا ان يحجزوا فيها مربطا لفرسه مع وسادة من تبن تكفيه مؤونة النوم في الفندق ، واحيانا مع مجرد صندوق من الشوفان . هذا لم يكن ايضا قد دَيَّس معصمه اوشظية رجله او لم يتلق سوى الشتائم بدلا من الضربات . وقد كان يعود فيلبس في احدى الكابينات داخل ناقلة الافراس ، وقد لف معصمه بلفافة عتيقة سوداء سواد حائط مصنع تقريبا ، ومطاطة تقريبا ايضا ، مثل شبكة دم سائل ، دون ان يحذر ولو قليلا ، تماما مثلما لم يحذر (او ربما لم يشعر) بقبضة اليد التي آفلحت في المرور فوق اكتاف الشرطة او بينها ، حتى بدون ان يكترث هو (ايجليزيا) اوهم (الشرطة) واحتمال عدم الاكتراث اقوى عند الشخص صاحب تلك القبضة بالاسباب او بالاحرى بصحة الاسباب التي قد تكون عند المعتدي ، على ان السبب الحقيقي والصحيح الوحيد كان ان ايجليزيا قد ركب حصانا خاسرا لا أكثر ولاأقل : وقال : «لأنهم كانوا قلما يعبأون بالباقي ، كل الباقي ... » (كان هو ايضا جالسا على حافة مضجعه ، وساقاه متدليتان ، ورأسه محني وقد غرق كل كيانه في احدى المسائل

الغامضة الدقيقة التي كانت تبدو في الظاهر ضرورية ليديه ضرورة الغذاء للمعدة ، كان يستثير هذه المسائل عند الحاجة ، عندما لم يكن له ان يدهن رسنا او يصقل ركابا (كان جورج يحاول دون جدوى ان يتذكر فرصة واحدة يراه فيها غير مشغول ، اعني انه لايسحق او يحطم احدى عدد الرواحل او احدى الجزم او ماشئت من اشياء من هذا القبيل) اما الان فقد كان مايعالجه خيطا وابرة وزرا يخيطه ، بحرص بالغ في سترته وسط ذلك القطيع السيئ الهندام الرث الثياب . حيث كان ألهم الوحيد لكل واحد وللجميع تعليق زر مفقود او خياطة منفرطة . فقال وهو مايزال منهمكا في عمله : « ... لم تشهد الناس قط شخصا راهن على السباق يعتقد انه خسر ماله او نقصته الشجاعة او لانه اختار حصانا رديئا بدلا من اعتقاده انهم سرقوه منه اثر المؤامرة ...» ادرك جورج حينئذ انه مازال يتأمل في عقب السيكارة ، او بالاحرى بالورقة المصفرة المدعوكة . فهز رأسه كمن استسلم للرقاد توا ، فيما امتلأت اذناه ثانية (وكأني به رفع يديه اللتين كانتا مطبقتين عليهما) بالصخب الموحل المتنافر الدائر داخل السقيفة . ثم قرر اخيرا رمي مالم يبق فيه اية علامة لعقب سيكارة . وقال : «من حسن حظك انت انها كانت تهوى ركوب الخيل . والاّ لأستطاع احد القصابين الصغار يوما ان يضرب بكل قوته ، أليس كذلك ؟ » فأدار ايجليزيا كل وجهه نحوه ، ولكن بدون ان يرفع رأسه ، فتفرس فيه ورقبته معوجة ونظرته شزراء ، وعليه امارات الحيرة والذهول التي تلازمه ابد الدهر (لم تكن امارات شك او عداء وأنما مجرد الحيرة والاكفهرار) . ثم كف عن النظر اليه . وتنفس الصعداء وهو يفحص الزر الذي اعاد خياطته ، فسحبه ثم طفق يضرب سترته براحة يده ، فيما كان يطويها وهو يقول : «أجل . ذلك محتمل . ربما كاد الحظ يكون اوفر لو اكتفت بالنظر اليها وهي تهرول ... ، ثم بعد ان أكمل طي سترته اربع طيات ، لفها بأعتناء ، فتوسدها ثم نزع حذاءيه ، وضعهما عند حافة سريره ، وارتكز على ردفيه

واستلق . وفيما كان يجتذب معطفه قال : لو اوقف هؤلاء الحمق جلبتهم عسانا نستطيع ان ننام ! » ثم التفت الى جانبه ورفع ساقيه وأغمض عينيه ، فيما كان وجهه المبقع الاصفر المحروم من النظر عديم التعبير ،وكأنه قد قُدَّ من ورق مقوى ، من مادة غير حساسة ، ميتة ، ربما بسبب القدرة التي كان يتمتع بها ، قدرة عدم التفكير (وعدم الكلام ايضا) اكثر مما هو ضروري فقط . وعندما قرر ان ينام (لاعتقاده ان افضل مايفعله المرء عندما يكون خالي البطن وقد انجز كل صغائر حاجاته من ازرار وترقيع وتنظيف هو أن ينام) لم يعد يفكر البتة ؛كان وجهه الشبيه بوجه المسايف قد اصبح محايدا تماما وغائبا شبيها بأحد اقنعة الموتى الازتيكيين او الانكاويين متربعا ، لاحراك فيه ، لايخترقه لافكر ولانظر ، خاليا على سطح الزمن ، اعني وسط ذلك الانزعاج والاكفهرار الذي لاحدود له والذي كانوا ينامون في ظله ويستيقظون وينبطحون وينعسون ثم يصحون بدون ان يطرأ اي تغيير على رتابة حياتهم . اذ لايميزون بين الامس واليوم والغد ، ولايشعرون بالوقت وانما بالمكان فقط (كصفيحة لوحة زادها المللمع والوسخ وعتمة يكشف عن اسرارها رسام لاحق محاولا ومجربا في هذه النقطة منها او تلك وعلى قطع صغيرة مختلف انواع المنظفات) ذلك المكان الذي كان جورج وبلوم يعيدان بناءه شيئا فشيئا ، قطعة فقطعة ،كلمة صوتية فكلمة صوتية منتزعة الواحدة تلو الاخرى بالحيلة والخداع (فقد كان قوام التكتيك ، نوعا ما ، اجباره على النطق ، عن طريق طرح شتى اشكال المعاني الضمنية ، امامه والافتراضات الى ان ينتهي به الامر الى الاعراب عن ضجَره وعبسه وسلبيته واستسلامه) كل القصة منذ اليوم الذي كان يلبس فيه في احد المنازع الرديئة التي خلع فيها ملابسه وعينه محمرة وشفته مفطورة جريحة عندما اقترح عليه المدرب الذي كان دي ريكساك قد استخدمه ، ان يركب الفرس بضع مرات (لانه ظاهريا لم يكن فارسا رديئا : لعل الحظ لم يسعده ، لحد ذلك الوقت وقد كان المدرب يعرف هذا) الى اليوم

الذي وجد فيه ان الشخص الذي استخدمه قد استبدل ، وقد جرى كل هذا الأن امرأة او بالاصح صبية قد قررت ذات صباح ، ان تقتني هي ايضا اصطبلا لخيول السباق ربما خطرت الفكرة ببالها على اثر قراءة احد المجلات التي تبدو فيها النساء الورقيات الجامدات بشكل طيور طويلة الساق ، لسن متزينات وانما متهدمات فقدن انوثتهن وكأنهن قد استحلن بفعل الرجل الى مجرد خيوط حريرية :

شبح مقطع بارز المعالم ، وقد انتصبت اظافره وعقباه بحركات حادة ، له حوصلة تشبه تماماً حوصلة الطائر الطويل الساق كالنعامة ، تيسر له ليس الهضم فحسب ، ولكن ان يستأثر ايضا باختراعات مبتكر ازياء مشهور بكرهه للنساء ، وان يحولها ، نوعا ما ، الى عكس ماكان يرمي اليه مبتكر الازياء : ليس شبحا بالغ التعقد مسطحاً جامداً ، وانما هو تجانس الحرير والجلد والحلي واللحم الزغبي الطري بحيث ان الجلد والحرير البارد والحلي الصلبة تبدو وكأنها اصبحت هي ايضا شيئاً فاتراً طرياً حياً .. –كان قد قرأ ذا ت يوم ان الاناس الانيقين حقا كانوا يفرضون على انفسهم وجوب اقتناء إصطبل سباق لانها من الواضح تماما انها لم يسبق لها ان رأت حصانا طول حياتها وقد روى ايجليزيا عنها إنها اعقدت العزم يوما على ان تتعلم ركوب الخيل هي ايضا : كان دي ريكساك قد ابتاع لها متعمداً حصاناً اصيل . وكان ايجليزيا قد رآها تأتي ، كل يوم صباحا خمسا او ست مرات مكلفة وحدها ما يضاهي ثمن الحيوان الذي كانت تحاول ركوبه . اما هو الذي كان في الحقيقة بعمر والدها كان يبذل قصاره لكي يشرح لها ان الحصان ليس تماماً سيارة سباق مكشوفة السقف كان يشرح لها ذلك بهيئته التي لاتتأثر بشيء ، المطبوعة على الصبر والحياد كما ان الحصان ليس خادماً ولا يسلك سلوك الخدم ولايطيع طاعتهم : أن هذه الحال لم تدم (ويقول ايجليزيا لعل ذلك لأنه لم يرق لحيوان قط ان يركب ظهر حيوان اخر كما لم يرق له ايضا ان

يشتم رائحة حيوان اخر على ظهره اللهم الا في ملاعب السيرك ، لانه بعد ان أسقطها من على ظهره مرة او مرتين عدلت عن رغبتها) تماما مثلما لم يدم تحمسها للسيارة الايطالية وعليه ومنذئذ ، بقي الجواد نصف الاصيل في الاصطبل ، مما اضاف رقما جديداً الى عدد الخيل التي تساس وتتنزه ، واذا ماعن لها ان تخرج يوما بسراويلها الفروسية وجزمتها التي كانت اغلى من الحصان الذي كان من المفروض انهن سمحن لها بركوبه فذلك لأنها كانت مدفوعة بدون شك بداعي لذة عرض نفسها وهي راكبة على الحصان نصف الاصيل الذي كان ينتظر ساعة او ساعتين (كان هذا عموما معدل الفترة بعد تسلّم النداء التلفوني بوجوب تهيئته) قبل وصولها وهي تضيع الوقت داخل الاصطبل ثم تنصرف (لاتنصرف غالبا في سيارة السباق التي لم تعد تلتذ بها كثيرا وانما داخل مايشبه سيارة نقل الموتى الكبيرة كالغرقة ، يقودها سائق ، وعلى مقعدها الخلفي كانت جالسة صغيرة الحجم كأنها برشانة القداس (اعني كأنها شيْ غير واقعي ، ذائب ، لايمكن تذوقه ولاتمكن معرفته ولا أقتناؤه الا بواسطة اللسان والفم والابتلاع) في قلب احد شعاعات عرض القربان الضخمة والثمينة) بعد ان كانت توزع قطعة او قطعتين من السكر. وطالبت برؤية الحصان يركض ، قبل موعد هرولته يوم الاحد التالي. واذ كانت تطالب بذلك كانت تحمل بيدها مقياس زمن من الذهب الخالص الذي لم تكن ، لحسن الحظ تحسن استعماله.

وحكي ايجليزيا انه عندما رآها للمرة الاولى حسبها طفلة أو صبية استخرجها دي ريكساك يوم الاحد من المدرسة ، وقد كانت مرتدية لضعف حال والدها ، ملابس امرأة بالغة (وقد كان هذا يفسر الشعور بالانزعاج الذي لايوصف الذي ينتاب المرء لاول وهلة عندما يرى شيئا يبدو قبيحا مزعجا بشكل يتعذر وصفه ، كمثل هؤلاء الصبيان المتنكرين المرتدين ملابس مستنسخة من ملابس الكبار والشبيهة بملابس تحاكي البالغين ملابس اجرامية بحق الطفولة والوضع البشري في

آن واحد) وقال ان ذلك اثار في نفسه الدهشة اكثر من أي شيء اعني به ذلك الشكل الطفولي البريء الطري السابق للبتولية ان صح القول ، بحيث انه امضى وقتا لكي يدرك ويحصل عنده الاقتناع – وقد استحوذ عليه نوع من الحيرة وأحس بتصاعد الغيظ والتشكك والوحشية في دخيلته – بأنها لم تكن امرأة فحسب ولكن امرأة من اطغى النساء انوثة رآها في حياته بل حتى في خياله : وقال «حتى في السينما لم أشهد لها مثيلة ! » (كان يتحدث عنها ليس كما يتحدث الرجل عن امرأة امتلكها واقتحمها وعانقها بين ذراعيه وهي تتنهد مذعورة ، وانما كحديثه عن احدى المخلوقات الغريبة ولاأقصد غريبة عنه هو ايجليزيا الذي رغم كونه استأثر بها وواقعها واعتلاها وانما هي التي استأثرت به وواقعته واعتلته بسبب وضعها المالي والاجتماعي) ولكن غريبة من الجنس البشري بأسره ومن ضمنه النساء الاخريات) مستخدما عند الحديث عنها ، الكلمات نفسها تقريبا والفواصل الكلامية نفسها التي تستخدم عند الكلام عن الاشياء التي كان يندرج بينها نجوم السينما (الذين يفتقدون كل واقع ماخلا الواقع الوهمي) والجياد او الجبال والسفن والطائرات التي ينسب اليها الانسان الذي يرى بواسطتها تجلي قوى الطبيعة التي يحاربها بردود فعل (كالغضب والخبث والخيانة) : كائنات (كالحصن والإلهات المرسومة على السليلوئيد والسيارات) هجينية الطبيعة غامضة ليست بشرية تماما ليست اشياء تماما ، توحي بالاحترام والاحتقار في آن واحد عندما تجتمع فيها عناصر تكوينية (حقيقية او افتراضية) متفرقة بشرية وغير بشرية – ولعله ، لهذا السبب كان يتكلم عنها بطريقة النخاسين عن حيواناتهم ومتسلقي جبال الالب عن رحلاتهم خشن النبرة ولطيفها فجها ولذيذها . كان صوته عندما كان يذكر اسمها يعبر عن دهشة فيها وصمة من الشك يشوبها قدر من الاعجاب والشجب معا ، تماماً كما حدث عندما جاء اذ وصلت الجياد الى احد الاشواط ليتفحص جواد بلوم بدون ان يفلح في اكتشاف وجود اورام على

ظهره ، اورام كان سببها طريقة تسريح بلوم للحصان وركوبه بعينيه الكبيرتين الدائرتين الجاحظتين التأمليتين الحائرتين بعض الشيء وهما تحدقان في الفراغ . عندما كان يتكلم وهو ينظر ، مطلقا قرار الشجب نفسه الذي كان ينظر به الى متن الحصان ، ولكن بدون ان يكشف فيه الجراحات التي كان مفروضا وجودها في جسمه ، ذلك الشجب الذي يأتي على ذكره او بالاحرى الذي كان يستسهل انتزاع الناس ذكراه وصورته منه اي ما قد يمنعه حياؤه الطبيعي امام بسطاء الناس المقترن بالاحترام (وليس بالخنوع ، بما انه لم يخطر بباله قط ان يلتفت الى المكان الذي يسقط فيه دي ريكساك ، ولكن الحياء المقترن بالخوف) الظاهر لرؤسائه لو كان قد اقتنع اقتناعا صريحا من الطبع اللاانساني او الخارج عن النطاق الانساني الذي كانت تتصف به الكورين حيث قال : «كان يجب ان اشاهد ذلك ! واعجبا ! عند ذلك فقط فهمت لماذا كان يستخف بما كانت الناس تفكر أو لاتفكر به او تقول او لاتقول عنه انه ابوها ، وان يتركها تستمتع بتعذيب الجياد وقتلها لمجرد الاستمتاع بالضغط على مقياس الزمن وتحريك ردفيها داخل سراويلها وبناطيلها الفروسية التي لم يكن يتمكن من دفع اثمانها الا نقدا ، في الوقت الذي كان يفضل التوصية بخياطتها عند الخياط بأسلاك الذهب لو كانت له امكانية صنع بناطيل من ذ ... » فقال بلوم : «صحيح . واعتقد انه لو استطاع العثور على خياط قادر على ان يحفظ هذا لها ، داخل صندوق حصين مع قفل من أحد أقفال الأمان ، الاقفال الرقمية التي يكون هو الوحيد الذي يعرف ترتيب ارقامها ، في الوقت الذي نرى ان اول القادمين واول الارقام التي تأتي امام أي شخص وأول مفتاح يجده يفي بالغرض) فأجابه جورج :

«أفلا تسكت » وقال لايجليزيا : «هل مشت الامور على مايرام بعد حادثة المهرة ؟ اني لا اراهنك ان ذلك فعلا هو الذي جعلها تتخذ القرار وانها بعد ذلك ...» فأجابه ايجليزيا : «كلا ، قبل . فهي ... اعني نحن ... اعني انه من

أجل ذلك عقد العزم على ركوبها في السباق . لاني أظن انه ارتاب من شيْ ما . لم نفعل ذلك ألا مرة واحدة . ولم يتمكن أحد من رؤيتنا قط . ولكني اعتقد انه أحس ان في الامر عوجا . او ربما انها دبرت امورها لكي تتكون عنده نصف الصورة ، حتى لو أنه طردني لاني أعتقد ان ذلك لم يكن ليغير فيه شيئا . او ربما انها لم تتمكن من ان تتمالك نفسها من النطق بكلمة واحدة او بملاحظة واحدة ، اذن فقد اراد ان يركبها ... » وبدون استطراد طفق يحدثهم عن المهرة والفرس ، مستخدما الكلمات نفسها التي استخدمها في حديثه عن المرأة وقال : «هذا النذل (ورغم انه أشار بهذه العبارة الى دي ريكساك ، فأنه لم يكن ثمة مايعني الشتيمة . وانما العكس) . فقد كانت تعني العبارة استنهاضا وترقية وتشريفا له ، لرفعه الى مراقي فارس سباق ، اعني الاعتراف له بسجايا الفارس . ومن ثم ، فأن ذلك ينسيه انه كان يوما سيده يستخدم عند الحديث معه ، كلمة بمعناها المألوف الاعتيادي وليس السيْ ، كلمة عليها مسحة خفيفة من الملامة الطفيفة ، مسحة يلجأ اليها عند كلامه عن أحد اقرانه ، اعني أحد انداده ، وهو يقول بصوت تشوبه الشكوى والنواح تقريبا ونبرة الطفولة تقريبا ، صوت كان يضعه في الطرف المعاكس لوجهه القاسي الكاريكاتوري وجه السياف ، بأنفه الشبيه بشفرة سكين وبشرته او بالاحرى جلده الاصفر المصاب بحبيبات السفلس :) هذا النذل ، سبق ان رددت له مراراً ، انه لايجوز اكراهها وانما ايهامها ايهاماً متعمداً ، وان ماعليه الا ان يتركها على سليقتها ، مع حملها قدر الامكان على ان تنسى ان هناك شخصا على متنها ، وبذلك ستعدو تلقائياً . قلت انه : «ليس لك انت ان تعلم نفسك الركوب . انك تمسك بها ضاغطا عليها بشدة . ليست مجموعة فرسان السباق مباراة جياد : فالامور تجري تلقائيا ، عند اجتياز المواقع التي لايريد الفارس اجتيازها ابد الدهر بطريقة مغايرة . اذن لاحاجة الى الامساك بها بهذه القوة . بالنسبة الى الاخريات ، ليس لهذا اهمية تذكر ، ولكنها

هي لاتطيق تحمله . فقد توارت عن وجهه عندما كان في التدريب ... »

وهذه المرة ، تمكن جورج من رؤيتهم تماما . كما لوكان حاضرا معهم ، هم الثلاثة (في تلك الفترة كان قد مر ردح من الزمن على ذهاب المدرب المساعد القديم ، بدون ان يعلم احد بالضبط عن طريق الكلمات اليسيرة التي استطاع استحلابها من ايجليزيا هل كان المدرب نفسه فعلا ، المدرب الذي ، نتيجة لسوء معاملة كورين لافراسه ، كان قد رفض الاستمرار بسياستها أي الافراس ، وهل كانت كورين التي فعلت كل شيء من اجل طرده لانه بعد ذهابه ، حسبما قال ايجليزيا وعندما تولى هو بنفسه التدريب كفت عن المجيء للاشراف على هرولة الحصن هرولة لا انضباط فيها ولا انتظام بمجرد الاستمتاع بلذة الضغط على مقياس الزمن وعندما رآهم ثلاثتهم على او أمام المقعد الخشبي مع الغلام الصغير الذي يشبه رأسه رأس المصاب بالاستسقاء واطرافه اطراف دمية ووجهه المتغضن قبل أوانه والمنتفخ مع جيوب تحت عينيه ونظره الوسخ المتقيح الجاحظ يتمرس وهو لما يبلغ الرابعة عشرة بخبرة ابن الستين او ما يقارب ذلك ولربما أسوء من ذلك .

كان الغلام يبذل قصاراه لكي يوقف الفرس فيما كان ايجليزيا مقعيا ليشد له سيور حذائه أما هي ودي ريكساك فكانا واقفين ينظران اليه وهو يواصل الشد فقالت هي بدون ان تحاول تحريك شفتيها وهي لا تزال تحملق في ايجليزيا متحدثة بصوت لا يكاد احد يسمعه غاضبة : ما تزال انت مصرا على هذه الحماقة هل تركبها فعلا ؟ فأجابها دي ريكساك : «اجل» فانغمر جسمه بالعرق لاخوفا ولا تخوفا وانما لمجرد ان الجو كان خناقا ثقيلا في عصر احد ايام حزيران العاصفة التي كانت تجعل الفرس ترقص في مكانها . كان العرق يتلألأ بقطراته اللامعة على جبهته وكان يجيب دون ان يلتفت بدون ان يرفع نبرة صوته لم يكن لا وقحا ولا مثيراً ولا عنيدا عندما كان

يقول نعم فقط وهو يراقب حركات ايجليزيا الذي كان مقصيا تحته فقال له قولا ولكن بصوت عال : «لا تشدها شدا قويا» : فصفقت كورين مغتاضة برجلها على الارض وردت قائلة ما معنى كل هذا ؟ وما الذي تنويه ؟ فاجابها :«لايعني شيئا ولست انوي سوى ان اركبها» . فقالت له : «ألاتسمعني وتتركه يركبها . لماذا ؟» فأجابت :«ماذا تعني وتنوي .» فقال : « لماذا ؟»فأجابت : «للاشيْ ، لان مهنته هي انه فارس سباق على ما اعتقد ، أليس كذلك ؟ ألست تدفع له مرتبا من اجل هذا الغرض ؟»فاجابها : «ولكن ليست المسألة مسألة نقود» فقالت : «ولكنها مهنته ، أليس كذلك» فأجابها بصوت عال : «لو جعلتها تبرد قليلا ! . لـ . . . . . . » فنهض ايجليزيا ثانية وقال :« ستنطلق تلقائيا ياسيدي . افعل ما قلته لك وستجري الامور على ما يرام» اما هي فطفقت تتحدث مع ايجليزيا ولكن بعينيها اكثر من فمها . فقدكان نظرها قاسيا غاضبا مركزا على نظر ايجليزيا نفسه ، او على الاصح منغرزا فيه كمسمار ، بينما كانت شفتاها تتحركان من تحت بدون أن يحتاج اي منهما الى ان يسمع ماكانتا تنبسان به : «ألا تحسبن أنها بهذه العاصفة الوشيكة سوف . . . وانه من الافضل ألاّ يهمك شيْ ؟» فقال دي ريكساك : «هنا اعصر الاسفنجة عليها ، هنا اجل هكذا اي نعم هنا تماما . . . » فردت عليه هي :«اف . . . !» فقال ايجليزيا«لا تهتما فالامر سيجري تلقائيا . مالكما سوى ان تتركاها وشأنها لكي تنطلق . فهي لا تنتظر منا سوى . .» ففتحت كورين حقيبتها فجأة (بحركة مباغتة غيرمتوقعة بسرعة حركات الحيوانات الصاعقة وان التنفيذ لم يعقب وانما سبقهُ أو إن صح التعبير ، سبق الفكر ، وفتشتها كالمهووسة ، واخرجت منها يدها على الفور بحيث لم يستطع الرجلان سوى سماع قرقعة القفل الجافة ، عندما عاد الى مكانه بسرعة كانت اشبه بسرعة البريق الساطع الذي يتطاير من سوار حسناء) ويدها ذات الاظافر المصقولة ، ذات الانامل الخزفية الهشة كانت ممسكة بشدة من الاوراق النقدية المبعثرة

المدعوكة ، وتقدمها وتضعها تحت انف ايجليزيا ، وهي تقول بصوتها الغاضب :
«هاك . اذهب والعب لي ، العب لنا مناصفة . اذهب اذن انت بنفسك وعلى رأيك . لاتحتاج ان تأخذ هذه الاوراق اذا ضننت أنها ليست ضرورية . وانه لن يستطيع ان يركبها . . .»

اما دي ريكساك فقد شَحِبَ لونه قليلا وبرزت عضلات فكيه متحركة تحت جلده ، والعرق اخذ يتصبب على صدغيه فقال بدون ان يرفع صوته ، صوته اللاشخصي الهادئ ولكنه ربما اصبح جافا هذه المرة وقصيرا : «نشدتكم الله كفوا» . فطفق يكلمها بصيغة الجمع او ربما بصيغة التثنية لشموله بالكلام ايجليزيا ايضا ، او الغلام ايضا ذلك المتدرب الذي يشبه رأسه رأس عقرب وهو يعصر الاسفنجة على رأس الفرس لانه تقدم وانتزع من يد ايجليزيا الاسفنجة وعصرها ثم شرع ينقط ما تبقى فيها من رطوبة قليلة على عنقها ، ودون ان يلتفت كان يتكلم مع الغلام العقرب فاجابه الاخير : «نعم سيدي – لا سيدي – نعم سيدي . . .» فيما كان وراءهما ايجليزيا وكورين يتقابلان وجها لوجه . كانت كورين تتكلم بسرعة وبصوت كانت تبذل قصارى جهدها بالسيطرة عليه ولخنقه ، ولكنه مع ذلك بقي عاليا ، دون ان يعلم احدا بالضبط هل كان بدافع الغضب او القلق او ما شابهها . وكأن حالتها هذه كانت نتيجة إنعكاس وقاء رأسها وكتفيها الاحمر الكرزي على وجهها ورقبتها واعلى كتفيها العاريتين حتى ابطيها (فقد يظهر عند ملتقى كتفيها بنهديها طيتان منفرجتان ناعمتان لبشرتها العارمة القاسية المنتفخة) اذ كانت ترتدي ثوبا عنيفا غير عدواني ولكن انفعالياً نوعا ما بمعنى ان هشاشته ووجهه وابعاده الصغيرة كانت تعطي انطباعا بأن نصفه قد انتزع وبأن القليل الباقي منه لم يكن مثبتا الا بسلك ضعيف . وقد كان ثوبا اقل حشمة من قميص النوم (او انه لو لبسته اية امرأة اخرى لظهرت بمظهر الخليعة ، ولكنها اذ كانت تلبسه هي فقد كانت قد تخطت عدم الحشمة بمراحل ، بمعنى انها

قضت تماما على فكرة الحشمة وعدم الحشمة) .فقالت كورين : مناصفة يا ايجليزيا . عليها اذن . انها لرابحة . امامك خياران : اما ان تلعبها أو أن تقنعه بأن يأذن لك بركوبها وتتقاضى اجرا كاملا لستة اشهر تقريبا . واذا اعتقدت انه يستطيع ان يوصلها الى الفوز فالامر سيان . واذا اعتقدت انه لا يستطيع ان يوصلها الى الفوز فاحتفظ بالنقود . لن اطلب الاطلاع على التذاكر. والآن هل تقول له ايضا بأن الامور ستجري على مايرام بكل سهولة ؟ .فأجابها ايجليزيا : «لا وقت لي لأن العب فعليّ أن اهتم بـ . . .» فقالت له : «لا تحتاج الى اكثر من دقيقتين لكي تذهب الى مكاتب بيع التذاكر وتعود منها . فان لك الوقت الكافي لذلك» حينئذ روى ايجليزيا أن الامر انقلب رأسا على عقب اي انه اصبح على عكس ما عاشه ذلك اليوم الذي رآها فيه لاول مرة وهي تتقدم الى جانب دي ريكساك بمعنى انه خيل اليه ان من امامه لم تكن طفلة او خودا او عجوزا شمطاء وإنما امرأة لا عمر لها وكأنها النساء كلهن مجتمعات في شخصها ، عجائزكن او شابات بنات الخمس عشرة او الثلاثين او الستين سنة او بنات آلاف السنين . فقد كنت تقرأ في تقاسيم وجهه غيضاً وكراهية وعداء وحيلة لم تكن صادرة عن تجارب معينة او تراكم زمن ، ولكن من شيْ اخر.فطفق يفكر (وقد روى في وقت لاحق انه كان فكر) باللوموس الشمطاء ! ياللفاجرة العجوز ! ولكنه عندما رفع عينيه ، لم يستشف سوى وجه ملاك. والهالة الشفافة للشعر الاشقر واللحم الفتي العارم الذي لم يصبه ولن يصيبه دنس . ثم مالبث ان طأطأ رأسه لينظر الى شدة الاوراق النقدية التي بيدها ، وهو يحسبها ويخرج بنتيجة ان عددها يعادل مرتب شهرين تقريبا كما كان يحسب كمية مرتبات الاشهر التي يربحها لو لعب ، كما هو مفروض عليه ان يلعب . ثم نظر الى كورين ثانية وهو غائص في التفكير : «تراها ماذا تريد ، تراها هل تعرف ماذا تريد ! . ليس لكل هذا من مغنى . فالامر لا يقوم على اساس سليم» واخيرا اغمض عينيه تماما .

وقال : «اجل ياسيدتي» . فأجابته كورين : «ماذا تقصد ؟» في ذلك الوقت كان دي ريكساك ما زال موليا ظهره لها وهو مقفع يتأكد من سيور حذائه وصاح : «يا ايجليزيا» . فردت هي : «ماذا تقصد ؟» فقال دي ريكساك وهو ما يزال موليا ظهره لها : «اسمعني ان لنا شيئا آخر نفعله بدلا من . . .»

اما هي فضربت برجلها الارض قائلة : «واخيرا ستأذن له بركوبها ؟ »هل انت . . . فأجابها ايجليزيا : «لا تغتمي ياسيدتي . فالامر سيجري على مايرام . لمت لك ذلك،وسترين،»فأجابته: «هي يعني هذا انك ستلعبها رغم كل شيء او انك ستحتفظ بالنقود ؟» وقبل ان يفتح فاه للاجابة قالت : «ولكني لا اريد ان اعرف . افعل ما يبدو لك . الا اذهب لنصرته في التغابي فأنه سيدفع لك اجرك عن هذا ايضا . . .» بعد ذلك كانت هي وايجليزيا واقفين الواحد بجانب الاخر على المنصة . كان ايجليزيا الذي امتطى جوادا في الجولة الاولى يرتدي سترة شرابات فوق قميصه المتألق ، بينما كان وجهه يتصبب عرقا وهو يلهث بعد محاولته ملاحقتها فقد ركض طوال فترة الاستعراض الى جانب الفرس وهو يحمل سطلا مليئا بالماء (وكان يستطيع تكليف الغلام حمله ولكنه كان قد اخذه بل انتزعه من يديه) ركض وكأنه ينوء تحت ثقل السطل على رجليه القصيرتين المعوفتين ورأسه مرفوع باتجاه دي ريكساك وهو يناوله الاسفنجة ، بين الفينة والفينة ، بعد ان يغمسها في ماء السطل ويعصرها قليلا ، ويتركها لتعود فتنتفخ ولكن دون التوقف لحظة واحدة عن العدو والكلام ، وبدون الكف عن اطلاق التوصيات والارشادات والتوبيخات او الكلمات التي كانت تنبثق من فيه وقد أخذه الحماس وتملكة اللهاث ، بينما كان دي ريكساك يعطي رأيه بين حين وآخر بحركة من رأسه ، محاولا جعل الفرس تمشي في خط مستقيم ، لأنها كانت تدير عجزها وتنحرف جانبا وترقص باستمرار ، بينما كان دي ريكساك يمسك بيده الاسفنجة

المبسوطة ويعصرها فوق رأس الفرس وبين أذنيها قاذفا بها الى ايجليزيا الذي كان يتلقفها وهي طائرة . ثم ادركوا الحاجز ، فقذف بالاسفنجة للمرة الاخيرة وراءه بدون ان ينظر ، فتمددت الفرس كالنابض ، وانطلقت في عدو سريع وهي تسحب الرسن بكل قواها ، ورقبتها مائلة الى جانب قليلا ، واحدى كتفيها الى الامام وذيلها الطويل يخفق الريح خفقا شديدا ، طافرة وكأنها كرة من مطاط ، فيما كان دي ريكساك لا يشكل معها سوى كائن واحد ، وهو شبه واقف على ركابيه لا يكاد صدره ينحني الى امام وقد اخذت البقعة الوردية في القميص تتضاءل بسرعة بين طفرة واخرى ، بينما كان ايجليزيا منتصبا هناك ، قبالة الحاجز الابيض ينظر اليهما صامتا ، وهما يتناءيان ويتضاءل خيالها ، يقفزان بصعوبة السياج الصغير الذي يسبق المنعطف ، وبعد ذلك لم يلمح سوى الطاقية السوداء والقميص الذي كف عن التضاءل فقد اصبحا يتنقلان يصعدان ويهبطان بمرونة فوق السياج والى اليمين ثم يتواريان خلف الغابة الصغيرة :

ثم تخلى عن السطح والاسفنجة فالتفت وبالسرعة التي اتاحتها له رجلاه (اعني بسرعة فارس السباق اعني تقريبا كجواد قرض نصف اطرافه) انطلق نحو المنصة مصطدما بالحاضرين وهو مرفوع الرأس يبحث عن كورين بعينيه متجاوزا المكان لكي يجدها . وأخيرا وسع خطاه وصعد الادراج اربعة اربعة . وحالما وصل اليها ، تسمر في مكانه فجأة والتفت صوب الغابة الصغيرة ولبس المنظار الضخم الذي كان يحمله عادةً دي ريكساك وكأنه قد هيأه على شاكلة المشعوذ داخل قبضة يده – ولو ان طوله كان يبلغ ثلاثين سنتمترا تقريبا – او داخل أحد كميه : وكأنه قد استخرج من العدم وليس من غلافه . لانه كان من المستحيل ان يكون له الوقت الكافي لفتحه واخراجه من الغلاف بوقت قليل ، اعني بين لحظة وصوله لاهثا بالقرب من كورين ولحظة اطباقه بيديه على عينيه على أرنبة انفه المعقوف الشبيه بمنقار النسر (او بأنف المهرج) وكأنه ، على ما يبدو ، جزء لا

يتجزأ من كيانه ، او كأنه عضو فاعل في جسمه (على نسق العدسات المكبرة التي يضعها مصلح الساعات على عينه) بارز مضطرب النمو ظهر فجأة وباشر وظيفته ضخما لامعا يكسوه الجلد الاسود المحبب ، وهو ملتصق بعينيه أسود كالفحم وكأنه عينان جاحظتان فحميتان ، لها وجهات تمكن مشاهدتها في الصور المكبرة المقدمة رأس الذبابة او بعض الحشرات الاخرى .

وبغتة تسمر في مكانه اكثر من تسمر التمثال على قاعدته ، تسمرت كورين هي ايضا في مكانها ، اكثر من التمثال ، محاولة هي ايضا ان ترى ، بتوق شديد ، ماذا كان يحدث وراء الغابة الصغيرة ، وهي تقول بدون ان تحرك اسنانها ولا ان ترفع صوتها تماماً كما تخاصمت قبل قليل مع دي ريكساك : «تباً لك من خادم حقير !» أما هو فقد كان غائصا ، ان صح التعبير ، بكليته داخل ذلك المنظار الضخم . ولعله لم يسمعها او ربما ادرك انها توجه اليه الحديث ولكنه لم يجهد نفسه في الاصغاء اليها وفي فهم ما كانت تقول ورد عليها قائلاً : «اجل لقد تميزت بعدوها . اي نعم هكذا تكون الـ . . . يجب ان . . . اجل انها ، لسوف . . .» وكان صخب الناس الهادئ يتصاعد من حولهم . وكان آخر المراهنين يتقاطرون الى الحاجز أو يحتلون المقاعد متدافعين اليها كمد اسود بطئ ، ولو ان معظمهم ركضوا ولكن بدون ان ينظروا امامهم . فقد كانت كل الرؤوس متجهة صوب الغابة الصغيرة . رؤوس اولئك الذين كانوا يركضون ورؤوس اولئك الذين اصطفوا على المقاعد جالسين أو واقفين على الكراسي المفرقة هنا وهناك على السطح : أو رؤوس عارضات الازياء الخزفية المصبوغة يحيط بهن المصورون ، ورؤوس العقداء المسنين الملأى بالتجاعيد ببشرتهم الشبيهة بالجلد المجفف ، وعليها قبعاتهم الرمادية ، ورؤوس اصحاب الملايين الشبيهين بالنخاسين او المتاجرين بسلعة ما او مزوّري النقود أباً عن جد او المرابين واصحاب الخيول وسكنة الاكواخ والدور الفخمة ذات المسابح واهل القصور واليخوت والزنوج

او الهنود النحاف القدود او مصانع النقود الكبيرة او الصغيرة (ابتداء من المصنع المتكون من ستة طوابق مبنية بالحجر المنحوت والخرسانة المسلحة وصولا الى الصفائح المصبوغة والاشارات الضوئية الملونة) : سواء تعلق الامر بالفئة او بالطبقة الاجتماعية او بالعرق ، هذه الاصناف التي وجد آباؤها او اجدادها القريبون والبعيدون والبعيدون جدا ، يوما ما ، وسيلة يجمعون بها ، عن طريق العنف او الحيلة او الخوف الذي مورس بطريقة شرعية او غير شرعية (غير شرعية اكثر من شرعية بدون شك ، اذا اعتبرنا ان الحق والقانون ليسا سوى افراز او تقديس لمواقع القوة) يجمعون ثروات باتوا ينفقونها ، ولكنها صارت تحكم عليهم بطبيعة الحال او باللعنة المقترنة بالعنف والحيلة بألاّ يروا شيئا ينمو حولهم سوى هذه الطغمة من الناس التي تبحث عن كسب هذه الثروات او الاستفادة منها بالعنف او الحيلة ، وان الاولين كانوا يتغلبون على عقبة الاحتكاك بالاخرين (متنفسين هواء واحدا ودائسين الحصى المغبر نفسه ، وكأني بهم مجتمعون في قاعة واحدة) بدون ان يدركوا حضورهم أو ، ربما ، رؤيتهم : رؤوس المراهنين ذوي المهن المريبة والأوجه المريبة ذات العيون الشبيهة بعيون الصقور ، والوجوه المتصلبة التي لا تعرف الرحمة المكبوتة المة ،ضة المنخورة بفعل الولع الشديد.

العمال من شمال افريقيا الذين انفقوا نصف اجرهم اليومي لمجرد الحصول على حظوة مشاهدة الحصان الذي راهنوا عليه بأجرهم الاسبوعي والسماسرة والمهربون وباعة انابيب رش النجيل والمتدربون وسواق الحافلات ومفوضو الشرطة وقرينات البارونات المسنات واولئك الذين قدموا هناك لمجرد ان الطقس كان جميلا واولئك الذين قدموا رغم ارتطامهم بالوحل. وقشعريرتهم امام تيارات الهواء ، حتى لو سقطت نصال الرمال عليهم ، وكلهم متكدسون فوق المدرجات الشبيهة بالحلوى المنحوتة العائمة في السماء ، مع الغيوم الشبيهة بالزبدة المخفوقة الراكدة او بالمرنغ (بياض البيض مع السكر) اعني بها منتفخة ومتورمة

من الاعلى ومسطحة من الاسفل ، وكأنها قد رتبت ووضعت فوق صفيحة من زجاج ، لا يراها احد متراصفة على حبل رفيع ، على شكل صفوف متعاقبة بقربها المنظور عن بعدها القصي (كجذوع الاشجار المتراصفة على امتداد الطريق) لكي تشكل هناك ، عند الافق البخاري ، فوق اعالي الاشجار ومداخن المصنع الرفيعة ، سقفا معلقا جامدا ، الى ان يبلغ بك الامر حد ان تحسن النظر ، فتدرك ان ذلك السقف كان ينزلق بكليته انزلاقا لا يشعر به احد ، وكأنه ارخبيل مهدد بالغرق ، يتموج فوق الدور والاعشاب التي تزينها خضرة لا يصدقها احد ، فوق الغابة التي تراءت الى يمينها الجياد مؤخرا ، وهي تتخطى متوجهة نحو خط الانطلاق : لم تكن واحدا او ثلاثة او عشرة ولكنها مع البقع المخططة المختلطة للقبعات والذيول المتموجة ومشي الحيوانات مختالة على قوائمها التي لا تفوق ضخامتها ضخامة القذى ، تظهر تارة ، كمجموعة من القرون الوسطى زاهرة من بعيد ، (وليس هناك فقط عند نهاية المنعطف ، وكأنها تتقدم من اعماق الدهور فوق مروج المعارك الباهرة في اطار ظهيرة احد الايام النيرة او في اطار هجمة او كوكبة جياد كانت تهلك او تحيي ممالك مع أيدي الاميرات) : ثم رآه ايجليزيا ، على ما رواه فيما بعد ، بواسطة منظاره الصغير منفردا ومتجزئا من جراء تخطيط الالوان المجهول ، وهو على صهوة تلك الفرس الشبيهة بسبيكة من النحاس الفاتح مرتديا طاقية سوداء وقميصا ورديا صارخا يميل الى خضرة الخبازي ، قميصا فرضته عليها ، نوعا ما (ايجليزيا ودي ريكساك) وكأنه رمز شهواني شبقي ولقد كان يستطيع ان يميز بين القميص والطاقية ذلك الوجه الذي لا تعابير فيه اطلاقاً الفارغ على ما يبدو من العواطف والافكار ، ذلك الوجه الذي لم يكن لا مركزا على هدف معين ولا منتبها : فقد كان مجرد وجه لا يعرف الانفعال (وفكر ايجليزيا وقال بعد ذلك : تبا له . ما كان له الا ان يأذن لي بركوبها . لو كان الامر يتعلق فقط بتقديم هذا العرض ! ماذا كان يتوقع ؟ انها بعد

هذا لن تضطجع الا معه وانها سوف تحرم على نفسها مواقعة اول قادم لها لمجرد انها تراه فوق ظهرها ؟ ولكن لو لم يكن ذلك الشخص انا لكان الامر مماثلا . على ان الطقس كان ثقيلا ، ولا يسمح بالقيام بأي عمل . وقد استطاع ان يرى ، على مقربة بضعة امتار ، رقبة الفرس يكسوها زبد رمادي في الموضع الذي كان القبان يفركه . كما كان يرى المجموعة والموكب الكهنوتي من القرون الوسطى يواصل التقدم نحو الحائط الحجرى ، حتى اجتاز التقاطع ، فأخذت الجياد تختفي ثانية حتى البطن لمرورها خلف السياج ، يختفي نصف جسمها ، بحيث انه كان يبدو مقطوعا في النصف. فالنصف الاعلى وحده كان يبدو وكأنه ينزلق على حقل الحنطة الاخضر ، كالبط يسبح على سطح مستنقع راكد . كنت أستطيع أن أراها ، كلما كانت تدور الى اليمين وتسلك الطريق العميقة ، وهو في مقدمة الطابور ، وكأنهم كانوا في استعراض الرابع عشر من تموز ، يمشي أولا واحد ثم اثنان فالجحفل الأول بأكمله ثم الثاني والجياد تتابع بهدوء . كانت أشبه بالجياد – الدمى التي كان الأولاد يلعبون بها سابقاً أو أشبه بحيوانات مائية تطفو على بطنها ، تدفعها قوائم خفية مرتخية تنزلق الواحدة تلو الأخرى ، مع أعناقها المتشابهة الدائرية وفرسانها المتشابهين مقطعي الانفاس بأبدانهم المتشابهة المنتفخة المتهزهزة برفق كان نصفهم نائما رغم طلوع النهار قبل قليل ، اذ أخذت السماء تصطبغ بلون الورد عند الفجر . وكان الريف شبه رخو نائما نصفه هو أيضا . فقد كان ثمة ما يشبه الرطوبة البخارية . ولابد ان كان ثمة ندى كقطرات البلور عالقة في جزيئات العشب التي ستبخرها الشمس بحرارتها . كنت أستطيع أن اشخصه هناك في المقدمة ، بهيئته المستقيمة على سرجه ، بعكس الأشباح الأخرى خائرة القوى . وكان التعب بالنسبة اليه غير موجود . وكان نصف السرية تقريبا يصول ويتدفق نحو المفرق ، اعني مثل الاكورديون ، وكأن هناك مكبسا يضغط ، فيدفعهم وكانت المؤخرة تواصل تقدمها ، بينما مقدمة الطابور تبدو وكأنها

تتراجع ، ان صح القول ، بحيث أن الضجيج لم يكن يسمع الا فيما بعد ، بحيث أن وقتا قصيراً مضى (ربما جزء من الثانية ولكن في الظاهر أكثر) حدث فيه وفي الصمت الكامل فقط ما يلي : الجياد – الدمى الصغيرة وفرسانها الملقاة بعضها فوق بعض ، تماما كبيادق الشطرنج تحدث صوتا عندما يضعها اللاعب في المربع . وعندما بلغ الصوت مع تأخير بسيط في الوقت على الصورة وكان هو أيضا شبيها تماما بالصوت الفارغ الذي ينبعث من البيادق العاجية المطرطقة الساقطة الواحدة تلو الاخرى على طاولة الشطرنج وعلى النحو التالي :

طق – طق – طق – طق ، كانت الرشقات السريعة تتراكم وتتكدس ، ان صح القول ، ثم من فوقنا ، كانت اوتار القيثارة التي لا تراها العين المجردة عندما تلامسها الانامل تحوك نسيج الهواء اللامرئي الحريري القاتل . كما أني لم أسمع صوت صدور الأمر . فقد كنت أرى فقط الابدان أمامي تتهادى ، كلما ازدادت تقربا الى أمام ، بينما كانت السيقان اليمنى تمر الواحدة بعد الاخرى ، فوق الاعجاز كصفحات كتاب تصفحه شخص من آخره الى أوله ، وعندما نزلت الى الأرض فتشت عن واك بنظري لكي أمد له الرسن ، فيما كانت يدي اليمنى في الوقت نفسه تضرب كلابة البندقية الصغيرة . ثم دهتنا ، من خلف ، قرقعة الحوافر وخبب الجياد المجنونة التي نزل منها راكبوها ، والبؤبؤ المكبر والآذان النازلة الى الوراء والركاب الفارغة والاعنة تصادم الهواء وتلتوي كالثعابين وتفرقع مع اثنين أو ثلاثة يكسوهم الدم ثم آخر كان راكبه يصرخ : «هناك أيضا غيرهم وراءنا سمحوا لنا بالعبور ثم أنهم ....»وما تبقى من كلامه ذهب معه عندما انحنى على عنق الفرس وقد فغر فاه . ولكني الان لم أعد أضرب كلابة البندقية الصغيرة ولكن الجواد البجير الذي طفق يتشكى ، وقد رفع رأسه وتصلبت رقبته كأنها صاري مركب ، وقد انحرف بؤبؤ عينيه كليا ، وكأني به اي البؤبؤ ، كان يحاول النظر وراء اذنيه ويتراجع بعزم لا ينثني ، تراجعا غير منقطع ، ولكن منتظما . فقد

كانت القائمة تلو الأخرى . اما انا فكنت اذيقه من ضربات الجرس حتى كدت أنتزع منه فكيه ، واردد في اذنيه : «ويحك تقدم» . وكأني به وحده يسمعني ، وسط تلك الفوضى ، فشرعت أقصر الاعنة شيئا فشيئا ، حتى تمكنت من بلوغ العنق بأحدى يدي ، فجعلت اربت عليه واردد : «ويحك تقدم هنا ...» الى ان توقف جامدا في مكانه متشنجا متوترا ، ترتعد كل أطرافه المتباعدة الواحدة عن الأخرى ، وكأنها أعمدة . وربما كانوا قد أصدروا أمرا آخر ، عندما كنت منشغلا بجوادي هذا ، لاني أدركت (لم أكن أرى شيئا ، لاني كنت منهمكا في مراقبته ، ولكني كنت أحس واتصور) وسط تلك الفوضى ، أنهم كانوا جميعا يهمون بركوب خيولهم . فتقربت اليه (وهو كان ما يزال جامدا متوترا وكأنه حصان من خشب) هادئا جدا ، محترزا من احتمال أن تأتيه نوبة ، فيتهيج أو ينطلق ساحبا بطنه في خبب ، تماما عندما تكون قدماي في ركابيه ، ولكنه لم يتحرك قط بل كان يكتفي بالارتجاف في مكانه ارتجافا مستمرا ، كمحرك يدور بطيئا . فسمح لي بأن أضع قدمي في الركابين ، بدون أن يفعل شيئا الا عندما أمسكت بالقربوس الخلفي للسرج لكي ارفع السرج ، فقلب الاتجاه عكسا ، ولكني كنت أتوقع منه هذا أيضا . فقد أمضيت ثلاثة أيام ، محاولا أن أجد من يبادلني هذا السرج الذي كان طويلا على ظهره ، بعد أن كنت قد تخليت عن أدجار . ولكن ألا تمضي الى الجحيم مع هؤلاء الفلاحين الذي يحسبون تبادل السروج محاولة لخداعهم . كما أن سرج بلوم أيضا كان طويلا جدا . اذن كان الاوان قد آن لأن يحدث لي ذلك ، عندما كان ينسحب ويصل الى كل الجنبات في آن واحد . ولكني لم يكن لي متسع من الوقت لكي أطلق الشتائم ، ولا كان لي النفس الكافي ولا الوقت الكافي لكي أصوغ شتيمة . ولكن كنت أقدر فقط أن أفكر بها عندما كنت أحاول ان اعود الى صهوته هذه وسط كل المشاركين الذين كانوا يسبقونني ، وهم حولي وقد اندفعوا في السرعة القصوى لجريهم . حينئذ

احسست ان يدي كانتا ترتجفان . ولكني لم أكن أستطيع منعهما من ذلك ، مثلما لم يكن هو أيضا يستطيع الكف عن الارتجاف بكل جسمه .

وأخيراً تخليت عن غايتي ، وشرعت اعدو الى جانبه ممسكا برسنه فأخذ يعدو عدوا خفيفا ، وقد أصبح السرج تقريبا تحت بطنه ، بين كوكبة الخيل المركوبة أو الحرة التي كانت تسبقنا ، بينما كانت شبكة أوتار القيثارات المتوترة أشبه بسقف فوق رؤوسنا . ولكن ما ان رأيت أثنين منها أو ثلاثة تسقط حتى فهمت انني كنت في زاوية المنحدر الميتة . أما الركبان فقد كانوا يسبقوننا كثيرا . بحيث أنهم كانوا يتساقطون كأوتاد لعبة البولنغ . ثم رأيت واك (فقد كانت الأمور تجري وفق مفارقات من الصمت والفراغ ، بمعنى أن قعقعة الرصاص والانفجارات — كانت الاطلاقات تجري أيضا بالمورتر أو بمدفعية الدبابات — اذ تسمع وتقبل او ان صح التعبير اذ تنسى ، كانت تتحيد نوعا ما ، فلم نكن لنسمع شيئا بتاتا ، لا صراخا ولا أي صوت ، بحيث أن هذا ذكرني أيام كنت اركض مسافة ١٥٠٠ متر : الا صوت الانفاس والشتائم الخفيفة مخنوقا هو أيضا ، عندما كان يحدث تدافع ، وكأني بالرئتين تستأثران بكل الهواء الموجود لكي توزعاه على كل أنحاء الجسم وتستخدماه لما هو نافع فقط : النظر والتقرير والركض . فقد كانت الأمور تجري كما تجري في فيلم (اضطرب صوته وصورته) ، رأيت واك قد سبقني ، وهو منحن على عنق جواده ، ووجهه قبالتي ، وفمه مفتوح يحاول بدون شك ان ينقل اليّ ، بصوت عال ، شيئا لم يكن يستطيع ايصاله الي بصوته العادي . وبغتة اعتلى متن سرجه كأنه كلابة ، وكأن يدا سحرية أمسكت به وبياقة معطفه ، وارتفع ببطء ، أعني به شبه ثابت مقارنة (اعني أن سرعة واحدة كانت تحركه هو وحصانه) بحصانه الذي كان يواصل الجري . أما أنا فقد كنت أواصل ركضي ولو بسرعة أقل ، بحيث أن واك وحصانه وأنا شخصيا ، كنا نشكل فريقا من أشياء لم تكن المسافات تتغير بيننا

إلاّ تغيرا بطيئا . فقد كان هو تماما فوق صهوة حصانه التي انتزع منها ، فأخذ يرتفع ارتفاعا بطيئا في الهواء ، وساقاه منفرجتان باستمرار مشكلتين قوس دائرة ، وكأنه يواصل مرافقة حصان مجنح لا مرئي دفعه فقلبه الى الأمام برفسة منه ، منجزا بالبطيء ، ان صح القول ، موقعيا ، قفزا مزدوجا خطرا . فأرانيه بعد قليل ، فيما كان رأسه الى الأسفل وفمه مفتوح دائما يطلق الصراخ الصامت (او النصيحة نفسها التي حاول ان يبلغني اياها) نفسه . ثم استلقى في الهواء على ظهره كشخص متمدد على سرير معلق يدلي رجليه الى اليمين والى الشمال . ثم رفع رأسه ثانية فأصبح جسمه عموديا . وشرعت ساقاه تتخليان عن وضع الفارس لكي تتجمعا وتتدليا متوازيتين . ثم بسط ذراعيه على بطنه ومدهما الى أمام ، فاتحا يديه ، وكأنه يحاول أن يتلقى شيئا ما بعيدا . فلقد كان أشبه ببهلوان السيرك الذي يظهر غير متعلق بشيء ومتحررا من جاذبية الأرض تماما بين الارجوحتين ، وفي الأخير يتدلى رأسه ثانية ، وساقاه منفرجتان وذراعاه مكتوفتان ، وكأنه يقطع الطريق أمامي ، ولكنه أصبح جامدا ملتصقا في جانب المنحدر لا حراك فيه ، وهو يحدجني بتقاطيع وجه مندهش أبله . فانتابني التفكير وقلت في نفسي : «واك ، ياله من مسكين : كان دائما يظهر بمظهر الغبي ، ولكنه الان ظهر غبيا أكثر من أي وقت مضى» . ثم انقطعت عن التفكير ، وقد تهاوى عليَّ شيء كأنه جبل أو حصان ، فجندلني أرضا . وجعل يدوسني ، بينما كنت أشعر بالعنان يفلت من يدي . ثم أصبح كل شيء سوادا ، في الوقت الذي كانت آلاف الخيول الراكضة تواصل سحقي . ثم لم أعد أشعر حتى بالخيول ، ولكن فقط برائحة الأثير والسواد والاذان الطنانة . وعندما فتحت جفني ثانية ، وجدتني منبسطا على الطريق . ولم يبق حصان واحد ، ولكن فقط واك دائما على المنحدر ، ورأسه منحن الى الأسفل ، وهو ينظر اليَّ بملء عينيه ، وعليه هيئة همجية . ولكني كنت أحترز من الحراك ، متوقعا ساعة شروعي بالعذاب . لاني كنت سمعت أن الجروح

الكبيرة تسبب أولا نوعا من التخدير. ولكن عدم شعوري بشيء كان مستمرا. وبعد لحظة، حاولت أن أتحرك. ولكن لم يحدث شيء، سوى اني أفلحت في الوقوف على اربع قوائم، ورأسي على امتداد جسمي، ووجهي يقابل الأرض.

استطعت أن ارى الطريق الحجرية حيث كانت الحجارة تبدو مثلثة، او بشكل مضلعات غير منتظمة بيضاء اللون مائلة الى الزرقة، من جراء الحمأة الضاربة الى الصفرة الشاحبة. كان في وسط الطريق ما يشبه سجادة عشب، والى اليمين والى اليسار حيث كانت تمر عجلات العربات والسيارات كان ثمة ممران عاريان. ثم كان العشب يظهر ثانية على الممرات الجانبية. وعندما رفعت رأسي، وجدت ظلي وكان ما يزال شاحبا جدا ممتدا امتدادا خرافيا. فقلت في نفسي: «اذن لقد أشرقت الشمس». حينذاك شعرت بالصمت ورأيت بعيدا عن واك، شخصا جالسا على جانب المنحدر: كانت ذراعه اعلى من مرفقه قليلا، ويده المحمرة متدلية بين ساقيه المنفرجتين. الا انه لم يكن من أفراد السرية. وعندما عرف اني كنت أنظر اليه قال: «لقد هلكنا.» لم أرد عليه. ثم انصرف عن النظر الي وطفق يتأمل في يده. وفي البعيد كان ما يزال صوت الرصاص يسمع. فنظرت الى الطريق وراءنا من جهة المفرق، فوجدت اكواما بنية مائلة الى الصفرة ملقاة على الأرض لا تتحرك، وخيولا، وبالقرب منا، حصانا متمددا على منكبه متضمخا في بحيرة من الدم يطلق رفسات ضعيفة لا ارادية من أطرافه الأربعة. فجلست حينئذ على جانب المنحدر بالقرب من الشخص المذكور فقلت في نفسي: «ولكن الفجر لم يكد يطلع. كم الساعة الان». لكنه لم يرد عليّ. ثم عدت فسمعت صوت رصاصة أطلقت قريبا منا هذه المرة. فألقيت نفسي في الحفرة. فسمعت الشخص يقول أيضا: «لقد هلكنا.» ولكني لم التفت، وانما زحفت على قعر الحفرة، حتى وصلت الى نهاية المنحدر وبعد ذلك جعلت اركض محني الظهر، حتى وصلت الى بضع شجرات

ملتفة . ولكن لم يطلق الرصاص أحد ، كما لم أسمع أيضا اطلاق الرصاص عندما ركضت من تلك الشجرات الى أحد الأسيجة . فقفزت السياج على بطني . فسقطت على يدي الى الجانب الاخر وبقيت منبطحا . حتى عادت الطمأنينة الى نفسي .

لم يعد أحد بعد ذلك يطلق رصاصا . لكني سمعت طائرا يغرد ، بينما كانت ظلال الأشجار تمتد امامي على المرجة . فحاذيت السياج ، وأنا أمشي على أربع مشيا يتعامد على ظلال الأشجار حتى نهاية المرجة . ثم جعلت أتسلق التل من الجهة الأخرى للمرجة ، وأنا ما أزال على أربع ، بعكس اتجاه السياج . فأصبح ظلي أمامي ثانية . وعندما اخترقت الغابة ، سائرا بين رقاقات الشمس ، كان همي أن أجعله دائما أمامي . ومقدار حسابي ، مع مرور الوقت أن يكون في بادئ الأمر أمامي أو قليلا الى يميني ، وبعد ذلك الى يميني ، ولكنه كان دائما يتقدمني .

كان في الغابة طيور الوقواق وطيور أخرى أيضا لم أكن أعرف أسماءها ، ولكن الكثرة كانت طيور الوقواق ، أو ربما لاحظتها لكوني كنت أعرف اسمها أو ربما أيضا لان صوتها كان أكثر تميزا . وكانت الشمس المتمزقة تخترق الأوراق ، راسمة ظلي الممزق الذي كان يتقدمني ، ثم يميل الى اليمين قليلاً . مشيت وقتا طويلا بدون أن أسمع شيئا آخر سوى صوت الوقواق وصوت تلك الطيور التي لا أتذكر أسماءها . وأخيرا اتعبني المسير ، عبر الغابة ، وسلكت أحد الدروب ، فانتقل ظلي الى يساري . وبعد قليل ، وجدت دربا آخر يقطع الدرب الاول عموديا فسلكته . ثم عاد ظلي فتقدمني ، فأنتقل الى يميني ولكني حسبت أني سوف أمشي فيه مدة اطول مما مشيت في الأول ، لعلني أصحح الفرق الذي اضطررت الى صنعه . وفجأة أحسست بالجوع ، فتذكرت قطعة السجق الصغيرة التي كنت اتنقل بها ، وهي في جيب معطفي . فأكلتها وأنا ماش ، بدون ان أستبقي حتى جلدها ، ورميت جدعتها المربوطة بالخيط . ثم انتهت الغابة ، أو

ان صح التعبير ، افضت الى الفراغ ، وانفتحت على مستنقع . وعندما تمددت لكي أشرب الماء ، غطست الضفادع الصغيرة ولم تحدث صوتا أقوى من صوت قطرات المطر الساقطة على المستنقع : وعند الحافة بالقرب من المكان الذي طفرت منه بقيت ، في الماء غيمة صغيرة من الوحل الهائج الرمادي الذي كان يذوب بين الاسل . كانت خضراء ، ولم يكن حجمها يتجاوز حجم الخنصر . كان وجه الماء كله مغطى بالوريقات الدائرية الخضراء الشاحبة بحجم نشارة ورق المهرجانات . لذا فأني لم الاحظ ، الا بعد هنيهة ، أنها كانت تعود فتظهر . رأيت واحدة منها ثم أثنتين فثلاثا تضرب الورق الاخضر الفاتح ، لا يبدو منها سوى طرف رأسها وعيونها الصغيرة بحجم رأس الدبوس وهي تنظر اليّ . كان في الماء تيار خفيف ، فلمحت واحدة منها تنحرف برفق وتنساب بين أرخبيلات نشارة الورق الطافية ذات اللون المشابه للون الضفادع الصغيرة وكأنك أمام غريق طاف ، نصف رأسه يبرز من الماء وأطرافه الصغيرة المرتخية غائصة فيه . ثم تحركت فلم أعد أراها ، يمعنى أني لم أر ها تتحرك ، وانما غابت من هناك ، تاركة وراءها أثر غيمة الوحل التي أثارتها. كان الماء لزجا ، وطعمه لزجا أيضا ، كطعم السمك الجري . شربت الماء ، وأنا أباعد بين نشارة الورق ، محترزا من امتصاص الوحل الذي كان يهيج من أدنى حركة . وكان وجهي بين الاسل والاوراق العريضة الشبيهة برؤوس الحراب . ثم بقيت هناك ، جالسا عند طرف الغابة خلف الادغال ، وانا اتسمع لطيور الوقواق ، وهي تتجاوب بين جذوع الأشجار الساكنة في هواء الربيع الأخضر ، وانظر الى الطريق التي كانت تلتف حول المستنقع ثم تحاذي الاشجار .

وبين الفينة والفينة ، كانت تقفز سمكة محدثة صوت وقوع حجر في الماء . لم أوفق في صيد واحدة منها ، ولم أر سوى الدوائر المركزية التي كانت تتوسع حول المكان الذي غاصت فيه . في احدى اللحظات ، حلقت طائرات عالية جدا في

السماء ، رأيت واحدة منها أو شيئا ما أو نقطة فضية عالقة جامدة متألقة ، خلال جزئ من الثانية ، داخل حفرة زرقاء بين الاغصان ، ثم توارت وكان طنينها يبدو هو أيضا عالقا مرتجا في الهواء الخفيف ، ثم تضاءل شيئا فشيئا . فسمعت مرة أخرى حفيف الأشجار ، ثم صوت الوقواق ، وبعد ذلك بقليل ، وعند منعطف الطريق ، ظهر ضابطان وهما يسرجان حصانيهما . ولكن ربما لم يكن الناس هنا يعرفون ان هناك حربا تدور . كانا يمشيان الهوينى ويتمازحان ، اذ رأيتهما يرتديان الخاكي ، وليس الأخضر . نهضت وأنا أفكر بالموقف الذي سوف يتخذانه مني عندما يريانني أو عندما أحكي لهما ان الدبابات تتسكع على الطريق ، على مسافة ستة كيلو مترات أو سبعة من هناك . لا شك أنهما ليسا مطلعين على مجريات الأمور . فأنتصبت على قدمي ، وسط الطريق في سكينة الغابة ، وأنا أنصت لصوت الوقواق . وبين الفينة والفينة كنت أسمع صوتا سريعا لا مرئيا كسولا لقفزة سمكة من صفيحة الماء الثابتة ، وبعد ذلك طفقت أقول في نفسي : «يا الهي ، ياالهي ، يا الهي ! لقد عرفت ، عرفت ماذا كان الصوت الذي يوافيني أو بالاحرى يداهمني متعاليا متباعدا هادئا بشوشا بعض الشئ» وهو يقول : «اذن لقد نجوت من التهلكة ؟» ثم قال بعد ان التفت الى الملازم الثاني القصير : «كما ترى ، أنهم لم يموتوا جميعا ، فهناك قسم منهم قد نجا . » ثم قال وهو يوجه الكلام صوبي : «ايجليزيا يلحقنا ومعه حصانان . مالك الآ ان تأخذ واحدا منهما » كنت اسمع هدير الماء ، حيث كان المستنقع ، يطفح فيتهاوى كشلال صغير . كما كنت أسمع (حفيف الاوراق يحركها النسيم العليل . وعلى مستوى نظري ، رأيتهم وهم يلوون ركبهم بطريقة لا مرئية ، والحصان يستأنف المسير مارا من أمامي ، والجزم تلمع والمنكبان يكسوهما شعر أحمر بلون خشب الاكاجو ملتصق من كثرة العرق الجاف ، ثم العجز فالذيل . ثم استعرضت المستنقع الذي كان النسيم يهز فوقه الأوراق العريضة الشبيهة برؤوس الحراب

وكأن صوته ، اذ كان يبتعد ، يوافيني مرة ثانية (ولكنه لم يكن هذه المرة يوجه اليّ الكلام . فقد استأنف حديثه الأصولي مع الملازم الثاني القصير . واستطعت ان أميزه فقد كان متزعجاً قليلا مسترخيا) وهو يقول : «يا لها من قضية سافلة (هذه الدبابات تستخدم ظاهريا كـ ...» ثم أصبح بعيدا جدا . كنت قد نسيت ان هذا النمط من الأمور كان يدعى بكل بساطة «قضية» كما يقال «ان لفلان قضية» أي أنه «سوف يدخل في مبارزة .» وهي تورية رهيفة أو صيغة أكثر تحفظا وارق . نعم الأمر ! لاننا لم نفقد شيئا بعد . بما أننا ما نزال بين ظهراني أناس طيبين . قل اولا تقل . مثلا لا تقل أن «السرية» أبيدت لوقوعها في كمين . ولكن قل : «كانت لنا معركة حامية عند مدخل القرية المسماة ...»

في ذلك الحين ، كان صوت ايجليزيا ووجهه الشبيه بوجه المهرج الأيطالي بوليشينيل ، يحدجني بعينه المدورة ، منزعجا ، وقد عيل صبره ، ولكن الاستنكار لا يكاد يبدو منه ، وهو يقول : «اذن ستركب أم لا ؟» منذ اليوم الذي حررت هذين الحصانين البجيرين ، لا تحسبني قضيت وقتي في الراحة . اني لأقسم لك بأن ... ! : امتطيت صهوة جوادي وتبعتهما . كان عليّ أن أجري خببا لكي الحق بايجليزيا . ثم ترجلت فأصبحت قادرا أن أراه من ظهره وهو الى جانب ذلك الملازم الثاني القصير ، يمشيان الهوينى . والحصانان يمشيان مشيا هادئا رهيبا ، فلا استعجال هناك اطلاقا ، وانما الهدوء الذي لا نلاقيه الا لدى الكائنات أو الاشياء (كالملاكمين والثعابين والطائرات) القادرة ان تضرب أو ان تفعل أو ان تنتقل بسرعة الصاعقة ، فما السماء والسحب القطنية الساكنة تواصل انسيابها وانحرافها بسرعة لا يكاد المرء يشعر بها ، وبالاتجاه المعاكس (بحيث ان مباراة بطيئة كانت تجري بين الغيوم وبين الاشباح الممشوقة الرشيقة الضامرة التي كانت تتوالى صوب المكان الذي كان مطلق اشارة البدء ينتظرهم فيه وسوطه بيده ، مباراة أشبه باستعراض يهجم فيه كل واحد هجمته الملكية .

غير مكترث بالجمهور الذي نفد صبره بسبب تافه : فالخيول المتكلفة الأصالة المرهفة المزدهية القادرة على أن تتغير في ومضة برق الى شيء أطلق لا بسرعة جنونية فحسب وانما بكل ما للسرعة من معنى ، وليس على بلوغ الغيوم الشبيهة بالجيوش المتغطرسة المتراصفة الساكنة فوق البحر التي تبدو وكأنها تنتقل بقفزات وبسرعة خيالية ، فيما العين قد ضجرت من سكونها فتركتها ثم عادت فلمحتها بعد ذلك وهي دوما ساكنة ظاهريا في الطرف الآخر من الأفق ، وهي تقطع بذلك مسافات خرافية ، بينما تمشي من تحتها المدن والتلال والغاب ناعمة هينة ، غيوم تستعرض من تحتها ايضا ، وبدون أن يبدو منها اي حراك ، مدن أخرى وغاب اخر وتلال تافهة اخرى تستعرض بخيلاء وأبهة وكبكبة ، رغم ان الحصن والجمهور تركوا ميدان السباق والمدرجات والعشب الاخضر المبقع الملوث بربوات بطاقات الرهان الخاسرة ، كربوات جثث الاحلام والامال الدقيقة التي تموت ولما تبصر النور (أمسية عرس لا أرضي ولا سماوي وانما عرس الأرض والبشر ، الأرض التي تلوثت ببقاء هذه الفضلات وهذا التلوث العاتي الجنيني لبقايا التذاكر التي مزقها غضب خاسريها وذلك بعد ان قذف آخر الحصن حزمة العشب التي اقتلعها أثناء جريه في الهواء ، وراح محفوفا بالعناية والخدم والحيطة والاهتمام أكثر من نجم سينمائي . وبعد ان اصطدم صدى الضوضاء الأخيرة العاتية بالمدرجات الصامتة التي استسلمت لفرق التنظيف لا يسمع منها سوى صرير المكانس الخفيف) . كفت كورين عن استراق النظر لما كان يجري في نهاية المنحدر ، وضربت الأرض برجلها ضربا شديدا وقالت : «ألا تستطيع الكف عن النظر لحظة الى هذا الشيء ؟ ألا تسمعني ؟ لم يبق أمامك الآن شيء تراه . فقد هموا بالرحيل . أنهم ... هل تسمعني ، نعم ؟ » . أما هو فقد أبعد المنظار الصغير عن وجهه متأسفا ، والتفت اليها بعينيه الشبيهتين بعيني السمكة وجفونه ترف وبؤبؤاه كدران كأن ضبابا اعترضهما ، وهو يحاول ان يتناسب مع المسافة المقربة ،

ويقول بصوته الهزيل الخائف الناحب : «كان يجب عليك الا .. فأنه ..» لم ينته صوته المنازع الذي خنقه وغمره (فضلا عن رنين الجرس الوحشي المزعج) النفس الطويل المنبعث من الجمهور المغشي عليه والنهم معا (لم يكن هذا النفس قمة في الشهوة وانما ما يسبق تلك القمة ، ان صح القول ، أو ان شئت تلك اللحظة التي يخترق فيها الذكر أنثاه)بينما كنت تستطيع أن تشاهد ، هناك في تلك الآونة شيئا ما يشبه بقعة مستطيلة مخططة تنتقل تنقلا سريعا في الخضرة على مستوى الأرض ، وقد انتقلت الخيول من شبه سكونها الى الحركة ، والجحفل ينسل بسرعة انسلالا مستمرا في الطريق الافقية ، وكأنه يمشي على سلك حديدي أو على عجلات صغيرة ، كمثل لعب الأطفال التي تكون الحصن فيها ملتحمة ببعضها ، كقطعة واحدة مقتطعة من ورق مقوى أو من صفيحة معدنية ملونة زحلقت بسرعة على امتداد الشق المعد لهذا الغرض ، وسط منظر طبيعي خداع ملون ومرنق ، حيث تبدو اجسام الفرسان مائلة الى الأمام والخيول تسترها الأسيجة حتى بطونها : ثم انتهوا الى محل امكن فيه تمييز آثار وقع الاقدام وتمكنوا حينا من مشاهدة حوافز الحيوانات تغدو وتروح بسرعة ، مثل بركان ينفتح وينغلق ، ولكن دائما بوتيرة ميكانيكية واحدة منتظمة ومجردة للعبة تعمل بالنابض :

ثم عادوا لا يشاهدون خلف الغابة الصغيرة سوى مرور السترات الحريرية ، تمزقها جذوع الأشجار والاغصان فهي أشبه بجفنة من نشارة ورق الكرنفالات التي كانت تبدو – ربما من جراء المادة المكونة لها ولألوانها الزاهية – وكأنها تجمع وتركز على نفسها كل الضياء البراق الذي زان ذلك العصر . اما البقعة الوردية الصغيرة التي كان تحتها جسم رجل بلحمه وعضلاته المفتولة ودمه المتدفق الصاخب واطرافه المضطربة المرتبكة فقد كانت في المرتبة الرابعة :

وقد روى أيجليزيا في وقت لاحق قائلا : «لانه كان يجيد الركوب فعلا . يجب أن أقول الحقيقة وهي أنه كان يجيد الركوب قليلا . الحق يقال أنه كان قد أنطلق أنطلاقة مضحكة في أول الأمر ، أما الآن فقد كان الثلاثة واقفين هو وجورج وبلوم : الشابان وذلك الايطالي (او الاسباني) المدبوغ الجلد الذي كانت سنو خدمته هو وحده تعادل سني خدمة الثاني والثالث مجتمعين ، ولا شك ان خبرته كانت تفوق خبرتهما عشر مرات أي ما يعادل ثلاثة أضعاف خبرة جورج . لانه على الرغم من كونه هو وبلوم متساويين في السن تقريبا ، كان بلوم يمتلك بالوراثة معرفة (وكان جورج يفوقه ذكاء ، ولكن لم يكن ذكاء فحسب وأنما أكثر منه : أي الخبرةالعميقة الوراثية التي انتقلت الى مرحلة الأنعكاس والغباء والخبث التي هي من خصائص الأنسان). أشياء تعادل ثلاثة أضعاف ما يعرفه شاب من عائلة عريقة . فقد استطاع أن يستخلص من الأدباء الكلاسيكيين الفرنسيين واللاتينيين واليونانيين ، مضافا الى هذا عشرة أيام قضاها في معركة ، أو بالاحرى في انسحاب ، او بالاحرى في ملاحقة الطرائد بواسطة كلاب الصيد ، حيث كان هذا الشاب سليل العائلة العريقة قد مثل دور الطريدة تمثيلا ارتجاليا . فقد كان الثلاثة اذن قد اجتمعوا ، هناك باختلاف أعمارهم واصلهم ، وكأنهم قدموا من الجهات الأربع . قال جورج :

(لا ينقصنا الا الزنجي . ألسنا نحن الثلاثة ساما وحاما ويافت ولكننا نحتاج الى رابع ، كان علينا ان نستقدمه : وأخيراً كان من الأصعب ان نتخلص من هذا الطحين ونجلبه هنا من أن نتخلص من سوار الساعة) .

وجثموا في ذلك المكان من المعسكر الذي لم تضرب بعد أطنابه ، وراء أكوام من الآجر . وكان أيجليزيا يطبخ على النار شيئا ، كان قد سرقه أو حصل عليه بالمقايضة ، وكان هذه المرة جزءا مما يحتويه كيس الطحين الذي حصل عليه جورج بمقايضة ساعته التي اهدته أياها عمتاه العجوزان ماري واوجيني بمناسبة

نجاحه في البكالوريا ، وكان المقايض بالضبط شخصا أسود سنغاليا من المستعمرات -كان هو أيضا قد نشله ، الله أعلم ، ممن وأين مثلما ينشل أحدهم شيئا ، الله أعلم من أين ويجلبه الى المعسكر ، الله أعلم بالسبب وبالغاية ؟ ربما يكون النشل صدفة ، أو لمجرد الاستمتاع بلذة النشل والاقتناء والحفاظ ، ينشل أحدهم كل ما يمكن بيعه وشراؤه ومقايضته أعني تقريبا كل شيء أي المجموعة الكاملة التي يحتويها جناح في مخزن كترهات الزينة والتحف القديمة والمأكولات : لا أقصد أشياء فحسب مثل كيس الطحين ، أشياء مفيدة أو صالحة للأكل ، وانما أيضاً أشياء لا فائدة منها ، ولكن بالعكس تضايقك ، أشياء تستهجنها كالجوارب أو سراويل النساء أو كتب فلسفة أو الحلي الكاذبة أو دليل السياحة والصور الخلاعية والمظلات أو مضارب كرة اليد أو بحوث في الزراعة أو مسجلات صوت أو بصلات زهور أو أكورديونات أو اقفاص طيور - يكون الطائر في داخلها أحيانا - أو ابراج أيفل من البرونز أو ساعات أو أكياس واقية من الحمل ، هذا اذا ضربنا صفحا عن آلاف الساعات ومقاييس الزمن والمحافظ الجلدية من جلد العجل أو التمساح أو أي جلد عادي لبقرة فقد كانت تشكل كلها البضاعة السائدة في ذلك العالم ، أشياء وذخائر وغنائم حملها سارقوها مثقلين من مسافة كيلومترات طويلة ، وقد أنهكهم الجوع والتعب ، عاشوا في السر وقد نجوا من التفتيش والمطاردة وسلموا رغم المحاذير والتهديدات فبرزوا ثانية ليظهروا ، لا يوقفهم خوف ، في أسواق سوداء سرية حامية وقاسية والدافع الى هذه الأمور لم يكن قصد الاقتناء بقدر كونه الحصول على شيء يبيعونه أو يشترونه. ونظرا لقيمة الساعة العالية ، فأنها تجعل رغيف الخبز (لان ما كان يستحضره ايجليزيا هو أنه كان يصب على صفيحة صغيرة متصدئة العجين المهيأ من الماء والدقيق وقليلاً من مرغرين الشحم الذي يوزع على السجناء على شكل رقاقات صغيرة تجعل رغيف الخبز الصغير ذا قيمة لا يجرؤ متعهد أي مطعم فاخر

أن يدفعها مقابل قطعة صغيرة من سمك الكافيار) كان الثلاثة اذن كلهم هناك (كان أحدهم مقعيا والآخران يرصدان). وكأنهم ثلاثة متسولين يتضورون جوعا ، في احد الأمكنة الغامضة التي نجدها بالقرب من المدن . لم يبق عليهم ما يمكنك من أعتبارهم جنودا أو بالاحرى كانوا يرتدون ملابس لا قيمة لها ، ملابس هي من حصة المحاربين المدحورين ، لا أقول ملابسهم ولكن كأنما المنتصر المازح اراد ان يتمتع على حسابهم وأن يجعلهم يشعرون بحالة هزيمتهم شعورا أعمق ، حالة الفضلات والنفايات وربما لم يكن هذا قصد الغالب : وأنما مجرد النهاية المنطقية للنظم والاحكام التي ربما كانت عقلانية في الأصل ، الاحكام الجنونية في مرحلة تنفيذها ، كالمرونة التي يتحلى بها الانسان ، على أثر تطبيق الية جافة كالجيش أو سريعة كالثورات ، مرونة تأتي من جراء تطبيق غير أمين للأوامر ، أو من الوقت أو الانعكاس الصحيح لفكرته المجردة كان الثلاثة اذن يرتدون بدلا من معاطف الفرسان التي أنتزعت منهم ، معاطف مقلنسة يرتديها الجندي الجيكي أو البولوني أستلموها كبدائل (ربما من جنود ماتوا وربما كانت المعاطف المقلنسة غنائم حرب أستولي عليها وهي في المخازن لم تمسسها بعد يد بشر في وارشو أو في براغ) وكانت ،بالطبع ، ذات قياسات لا تناسبهم أطلاقا . فقد كانت ملابس جورج ذات أكمام لا تكاد تصل الى مرفقه . أما ملابس أيجليزيا فكانت أشبه بفزاعة طيور أو بملابس بوليشينيل المهرج الأيطالي الشهير ، فقد كان يسبح (لان جسمه جسم فارس السباق قد ضاع) داخل معطف مقلنس لا يظهر منه سوى أنفه الشبيه بأنوف أهل الكرنفالات وأطراف أصابعه . كانوا ثلاثة أشباح أو ثلاثة ظلال غريبة الشكل لا واقعية . كانت عيونهم تتضور جوعا ، ورؤوسهم حليقة تماما وملابسهم زرية ، وقد انحنوا على نار هادئة لا يعلم بها أحدا ، في تلك الزينة الخرافية التي كانت ترسمها السقائف الممتدة فوق السهل الرملي مع بضعة أشجار صنوبر ملتفة هنا وهناك ، عند الأفق

والشمس المحمرة الساكنة مع أشباح اخرى شاحبة تائهة كانت تتقرب وتحوم حوما مخجلا حولهم ، وهي تنظر اليهم حاسدة جائعة نهمة كذئاب (كانت هذه الأشباح أيضا مرتدية تلك الملابس بلون الوحل والمرارة ، وكأنها شكل من أشكال العفونة او كأن التفسخ يغطيهم وينخر فيهم ويهاجمهم ، وهم بعد وقوف ، بدءا بملابسهم ثم يتقدم ماكرا : كلون الحرب تماما وكلون الأرض يستحوذ عليهم رويدا رويدا ، هم ذوي الوجوه الترابية وخرقهم الترابية أيضا . يغلب على كل هذا لون قذر غير متميز كان يبدو وكأنه يخفيهم ويطمرهم داخل التراب والطين والغبار الذي منه والذي يعودون اليه تائهين خجلين منذهلين منكفئين كل يوم) حتى أنهم لم يكونوا ذئابا جائعة هزيلة شرسة متوعدة ولكنهم كانوا مغتمين من ضعفهم الذي لا ينتاب الذئاب ولكن البشر ، أعني عكس ما كان يحدث لهم لو كانوا ذئابا حقيقية . فقد كانوا محبوسين عن المهاجمة فاقدي الشجاعة قبل أن يحسبوا ما ستمثله الاقراص الهزيلة القليلة التي كانوا يتلهفون لان يتناولوها ، بعد ان توزع على الف شخص . مكثوا اذن هناك لا همَّ لهم سوى التسكع وبريق الجريمة يتألق في عيونهم . وحينا تطايرت طابوقة ، أصطدمت بكتف ايجليزيا ، فقلبت الصفيحة والعجينة ولما تنضج فسالت على النار . رمى جورج الطابوقة التي كان يمسكها هو أيضا باتجاه الشخص الذي كان يفر هاربا (ربما لم يكن الدافع رغبة بسيطة في القتل او العدوان وانما كان اليأس والجوع القاتل الذي ينخر في أعماقه وقد استقر في بطنه ، ثم أنه بعد ان رمى الطابوقة لم يستطع التحكم بها ، كان الهارب على أثرها قد توارى ليس خشية المجابهة أو خوفا ، ولكن لشدة خجله هو وفشله) . جمع ايجليزيا العجينة قدر المستطاع فوضع الصفيحة فوق النار ثانية فطفق الرغيف ينضج وأخذت تتجمع في داخله جزئيات سوداء متفحمة حاولوا أزالتها فيما بعد ، ولكن مع ذلك بقي شيءٌ منها في الرغيف وعندما كانوا يأكلونها ، كانت تفرقع بين أسنانهم . وكان مذاقه يستحيل

وصفه ويرغمهم على البصاق ، ولكنهم مع كل هذا اكلوه كله حتى آخر كسرة .
كانوا كالقردة مقعين على أعقابهم تكتوي أصابعهم عند سحبهم الرغيف عن الموقد – او الأحرى عن الصفيحة المتصدئة المتكسرة التي كانت تؤدي غرضه – فقال أبجليزيا بعد أن تناول اللقمة (في ذلك الوقت اندفع وطفق يتكلم بدون انقطاع ببطء ، ولكن بطريقة مستمرة هادئة ، وعلى ما يبدو ، فقد كان يتكلم مع نفسه وعيناه الكبيرتان تحملقان في الفراغ وهما مشدوهتان ورزينتان في آن واحد) : «ومع القردين او القردة الثلاثة الذين صعدوا الى ذلك السباق والذين رأوه . لم يكن الأمر هينا . اني أوكد لك ذلك . لان الشخص الذي يصعد كجنتلمان في سباق مع فرسان ، ليس له ان يتوقع تنازلات ومجاملات . لكنه كان قد دبر أمره تدبيرا غريبا : فلقد أصبح في المرتبة الرابعة ، وجل ما بقي له ان يفعله هو ان يستقر عليها . ولابد ان ذراعيه قد أنهكهما التعب . اني اؤكد لك ذلك لاني أعرف طباع تلك الفرس وكيف كانت تلك الحمقاء تعدو ...»

وتراءوا أخيرا بعد آخر شجرة وحسب الترتيب نفسه والبقعة والقطعة الوردية كلتاهما في الوضع نفسه ، بينما كانوا يباشرون القسم الأخير من المنعطف ، وقد تحرك الجحفل رويداً رويدا ككتلة مضطربة .

فقد (بدا الأخرون وكأنهم يلاحقون الأوائل) أصبحت عند نهاية الخط المستقيم موجة مضطربة أو رغوة من رؤوس تعلو وتهوى ، والخيل متجمعة كعلبة ، لا يشعر أحد بتقدمها تارة (باستثناء قلانس الفرسان التي كانت تصعد وتهبط) الى ان اجتاز الجواد الاول السياج ، أو حطمه فجأة ، بمعنى انه وصل هناك ، على حين غرة ، وقد دفع بقائمتيه الأماميتين قدامه جامدتين متلاحقتين ، والأصح احداهما تسبق الأخرى قليلا ، ولم يكن الحافران على ارتفاع واحد . وكان الجواد مندفعا بنصف جسمه ، بين الحزم البنية اللون التي كانت تعلو الحاجز ، وهو مستند ظاهريا على بطنه ، لكي يحصل على التوازن ، وقد تجمد على ما يبدو

جزيئا من الثانية ، حتى اندفع الى الامام . ثم ظهر الثاني ثم الثالث حتى ظهر عدد كبير منها مجتمعة جامدة متوازنة متتالية في وضعية حصان يحمل أرجوحة . وتجمدت جميعها وانحنت الى الأمام .

وتحركت فور ملامسة حوافرها الأرض – حينئذ طفق الجحفل يعدو متلاحما ، باتجاه المنصات ، متضخما قافزا الحاجز التالي ثم حدث ما يلي : شيء يشبه الرعد الصامت ، وصوت وقع الحوافر على الأرض وحزم الحشيش المتطايرة بعيدا الى الخلف ، والستر الحريرية المدعوكة تصفقها ريح السباق ، والريح التي يحدثها المتسابقون المنحنون الى رقاب الخيل ، لم يكونوا جامدين كما ظهروا في الخط المعاكس ، ولكن متأرجحين قليلا من الأمام الى الوراء ، على وتيرة ملامسة الخيول الأرض بأفواهها المفغورة المتشابهة التي تتسقط الهواء وبهيأتها المشابهة للأسماك التي أخرجت من الماء التي تكاد تختنق والفرسان يمرون أمام المنصات ، يحيق بهم أو يغطيهم رداء الصمت الذي كان يبدو وكأنه يعزلهم (كانت هناك بعض الصيحات تنطلق من الجمهور – ولكنها لم تكن موجهة الى آذان الفرسان بل الى آذان المشاهدين انفسهم – قادمة من بعيد ، تافهة لا جدوى منها ، غريبة ضعيفة كتمتمات الأطفال) تصاحبهم ، تاركة وراءهم بعد مرورهم بفترة طويلة ، تيارا من الصمت . كان صوت وقع الحوافر يتضاءل فيه ويتناقص ، لا يسمع الا على فترات متقطعة ، أثر الطرق الجاف (كصوت انكسار غصن الشجرة) الذي ينجم عن ضرب السياط ، هذه (الاصوات الضعيفة التي كانت تتباعد هي أيضا وتتناقص). ثم اجتاز الاخير السياج العالي ، متوجا اندفاعه الخفيف تماما كالارنب وبقيت صورة مؤخرته وهي في هيئة الرفس مطبوعة على الشبكية ، ثابتة . ثم اختفى الفرسان والمطايا خلف المنحدر الى الجهة الأخرى من السياج . وكأن كل هذا لم يحدث ، وكأن مشهد الخيول الاثنى عشرة مع فرسانها قد توارى فجأة مخلفا وراءه مجرد غمامة من الدخان يضيع في

داخلها السحرة والعرافون ، أوطفاوة ضباب حمراء أو غباراً ، معلقا ، راكدا أمام السياج حيث كانت الخيل تتسابق فتوضح الجو شيئا فشيئاً واسترخى تحت ضوء العصر الذي أوشك ان ينتهي . فأدار ايجليزيا قناعه الشبيه بأقنعة اهل الكرنفالات باتجاه كورين . فقد كان مخيفا وجديرا بالرحمة في آن واحد . ولكنه في تلك اللحظة كانت تغمره أحاسيس طفولية وافتتان صبياني وقال : «هل رأيت ؟ انه ... لقد قلت أنها اي الفرس سوف ... وان الأمر يجري بسهولة وان مالك سوى ان ...»

فنظرت اليه كورين دون ان ترد عليه وهي ما تزال متأثرة بغضبها الدائم وحنقها الصامت الجامد فتلعثم ايجليزيا وقال مرتبكا : «أنه ، أنها سوف .... أنك ...» ثم لازم الصمت . أما كورين فواصلت تفرسها فيه هنيهة ، ولكن من غير ان تقول له شيئا باحتقارها الذي لا ينثني . وأخيرا هزت كتفيها ، فتحرك نهداها مرتجفين تحت قماش ثوبها الخفيف فيما كان لحمها الغض الشاب الفتي القوي يبعث القسوة والعنف الصبياني اعني بذلك انعدام الحس الاخلاقي وانعدام المحبة كليا ، ذلك الحس الذي لا يمتلكه الا الاطفال ، أو تلك الضراوة البريئة التي تلازم طبيعة الطفل نفسها (جيشان الحياة الشامخ العاتي الذي لا يقهر) ، وقالت له ببرودة : «اذا كان يقدر ان يجعلها تفوز مثلك فأني أتساءل لماذا استأجرناك ؟» حملق الواحد في الاخر (كانت هي مرتدية ما يشبه الثوب الذي كان يجعلها ثلاثة أرباع العارية .

أما هو فقد كان مرتديا سترة عتيقة ملطخة تناسب تقريبا قميصها الحريري اللامع الذي كان تعوضه للناظر ، كما كانت تناسب وجهها المتألم المبقع بحبيبات الجدري الناعمة وشكلها (الحائر المنذهل أشبه بمن يضرب شخصا بكلمة أو بحقيبة أو بمنظار في بطنه) فيبقى على هذه الحال وقتا قصيرا وربما جزيئًا من الثانية وليس وقتا لا نهاية له كما تصور وروى في وقت لاحق . فقد روى ان ما أيقظها

وانتزعها كليهما من دهشتهما ومن لقائهما الخانق لم يكن صراخا – أو ألف صراخ – أو تعجب – أو ألف تعجب – ، وانما كان ضجيجا او شهيقا أو حفيفا أوراق الشجر أو شيئا غريبا يركض مرتفعا ان صح القول ، فوق مستوى الجمهور وعندما نظرا رأيا البقعة الوردية ، ولكنها لم تكن في المرتبة الثالثة وانما في المرتبة السابعة تقريبا . كان الجحفل الذي قفز التلة قبل قليل غير متلاحم هذه المرة ولكنه تمطط على مسافة عشرين متراً ، راكضا في الطريق ركضا منحرفا . فقالت كورين : «لقد قلتها وكنت متأكدة من قولي . ياللغبي . يا له من غبي أخرق . انت ...» لكن ايجليزيا لم يعد يسمعها ، وانما كان ينظر بمنظاره الى وجه دي ريكساك السابح في العرق وجهه الذي لا تؤثر فيه الانفعالات ، وانما كان فقط مهتاجا من القفزات القصيرة فقد كانت الفرس كلما يسترخي ذراعه يمسك السوط ، تطيل مسافة وقوعها على الأرض ، هي تسبق واحدا فواحد ، بكرها وفرها ، كل الجياد التي تقدمتها .

بحيث انها ادركت الموقع الثالث الذي كانت تحتله سابقا . عندما وصلوا الى النهر ، بدت الفرس الشبيهة بسبيكة طويلة من النحاس تستطيل ثانية وتتمطط في الهواء وكأنها تتخلص ليس من الأرض فحسب وانما من الجاذبية نفسها ، لان الفرس لم تبدو وكأنها تسقط وانما كانت تستمر وهي في الهواء في موقعها الثاني . فيما كانوا يتجاوزون المفرق انقطع سوط دي ريكساك من الضرب فقالت كورين ثانية : «ياللغبي ، ياللغبي ياللغبي ...»

حتى قال ايجليزيا ، بدون ان يخلع منظاره ، بنبرة وحشية : «الا أسكتي ، لحاك الله مني . أفلا تسكتين ؟» بقيت كورين فاغرة فاها ، مغفلة ، بينما كان الجحفل يبتعد الى يسارهما ، وسط ضياء الشمس المعاكس تحت الغيوم المعلقة أو تحت الغيوم المصبوغة ، ان شئت ، في السماء وقد انقسمت الخيل في تلك الآونة الى مجموعتين : كانت أربعة خيول في المقدمة وبعد مسافة خمسة عشر

متراً . كان الفريق الثاني متكون من كتلة متراصة تسحب وراءها ذيلا في جماعة المتأخرين المبعثرة المتباعدين الواحد عن الاخر ، حتى يصل بك الأمر الى الأمير الذي كان يلتهب جسمه تحت السوط كلما داس الأرض . بينما كانت مجموعة الرؤوس تميل الى اليمين ثم تعود فتختفي وراء الغابة الصغيرة ، وكانت سترهم الزاهية الألوان تلوح ثم تتوارى بين الأشجار ، ولكن بالاتجاه المعاكس ، اعني من اليسار الى اليمين . وفي الوقت نفسه كان الجمهور ينفصل عن العشب (في البدء كانت نقطة سوداء ثم نقطتان فثلاث ثم عشر وبعد ذلك كعناقيد كاملة) عن الحاجز الذي مر الجحفل على امتداده راكضاً (والنقاط الشبيهة بالذباب وكحفنة كريات بلورية) ينفصل في اتجاه الخيل نفسها ، لكي يحتشد على امتداد الطريق العرضية فكانت السترة الوردية هذه المرة هي الأولى ولكنها ملتصقة تقريبا بسترة الفارس الثاني . أما دي ريكساك فكان يعدو بفرسه خارجا عن الخط منحرفا الى يساره ، بحيث انه أصبح في وسط الخط . فتقدم الجواد الثاني وحده ، والجوادان الآخران كانا على مبعدة خمسة أمتار وراءه . وتوجه الأربعة نحو السياج العالي بركضة أبطأ وأكثر تقطعا . بحيث ان الفرس بدا عليها الأستسلام للتعب لأول وهلة ، فقصرت المسافة بين قائمتيها الأماميتين والخلفيتين قليلا . ولكن ايجليزيا لم ينخدع ، فاطبق منظاره على عينيه بقوة فيما كانت تواصل عدوها ، ولكن ليس باتجاه الحاجز مباشرة وانما منحرفة . كان دي ريكساك متشبثا ، بكل قواه ، بالزمام المقابل وهو يهوى بسوطه . فأفلح في اعادتها الى اليسار ، فتباطأت الفرس أكثر من قبل ، وظهرت وكأنها تنكمش تحته . فطفرت الحاجز الهائل (لانه توصل الى ذلك بفرض ارادته عليها) ليس كما كانت قد عبرت النهر ، ولكن ، ان صح القول ، توقفت فانطلقت باطرافها الأربعة انطلاقة واحدة عمودية وسقطت وراء الحاجز سقوطا قويا جدا ، بحيث ان دي ريكساك هبط على عنق الفرس تقريبا في الوقت الذي كان يلهب ظهرها بسوطه ، فكرت

ثانية ، فأصبحت فقط على مبعدة مترين من الحصانين اللذين كانا يلحقانها وقبل الوصول الى السياج العالي . كان كل من كورين وايجليزيا يستطيعان رؤية ذراع ريكساك وهي تلوح بالسوط الذي يتهاوى بلا هوادة ، وكانت آذانهما تطنان من ضجيج الجمهور الخائب الوحشي . ثم قفزت الجياد الأربعة ثانية ، وعبرت السياج الاخير ، وكان دي ريكساك يتعقب الجواد الثالث . ثم لم يبق شيء أمام الجياد سوى بساط من النجيل المخضوضر الغني الهائل . كانت تظهر الفرسان والجياد عليه ، ناعمة جدا متفرقة تتحرك حركات هوجاء متبعثرة متأرجحه تأرجحاً بطيئا من الأمام الى الوراء متقطعا متكاسلا مضحكا . فقد أنهكت قوى الجياد التي كانت تبذل آخر الجهود ، واصبحت وجوه الفرسان اشبه بالسمكات الغريقة ، فصارت افواههم المفتوحة تبحث عن الهواء. وقد اوشكوا ان يختنقوا ، فيما كانت صيحات الجمهور تكتنفهم ، وكأنها مادة صلبة سميكة يحاولون اختراقها دون جدوى (انطباع المراوحة الذي كانوا يتركونه والذي كان يتعزز بفعل النواظير التي كانت تلاحق الكوكبة) وكأنها طبقة معادية لا مرئية لنزوة سميكة كالماء — او كالفراغ . ثم انقطع الصياح وخفت. فأطلق ايجليزيا العنان لناظوره. فسقط من امام عينيه فأدرك انها غابت من هناك ، وعرف ان ثوبها الأحمر العدواني قد اصبح دونه عند اسفل المدرج. فانحدر متخطيا المدرج اربع درجات كل خطوة ، وهرع اليها يلاحقها. اما هي فالتفتت اليه ، ولكن بدون ان تتوقف عن المشي (فكر ايجليزيا) في نفسه فكرة سريعة قائلا : «ترى الى اين تذهب وماذا تريد ؟» ثم قال مسمعا صوته : «على كل حال فقد توصل الى ان يحصل على المرتبة الثانية. ولم تنقصه الحيلة لكي يتجاوز الفارسين اللذين كانا يتقدمانه .....» اما هي فلم ترد عليه. وتظاهرت بعدم السماع. اما هو فقد كان يعدو دائما الى جانبها على قدميه القصيرتين وهو يقول : «لقد حققت فوزا عظيما ، أرأيت ، أنها...» ولكنها كانت تمشي هي بدون توقف وتقول : «المرتبة الثانية ! جيد جدا. لله درها . يالها من

مرتبة ! عندما كان عليه ان يفوز بالمرتبة الأولى، تاركا وراءه المتسابق الثاني، على بعد عشر خطوات. هل ترى ان ذلك....» ثم توقفت فجأة، والتفتت اليه التفاتة فيها من المفاجأة والمباغتة ماجعله يوشك ان يتعثر بها. فصرخ على الفور (ولو انها لم ترفع صوتها ولكنها لو فعلت لكان افضل من ان تزأر وتزمجر) : «هل راهنت عليها مجلية ام رابحة، الا قل لي ؟ ام هل راهنت عليها مجرد رهان ؟» ثم قبل ان يكون له مجال لأن يفتح فمه، كانت ماتزال تصرخ بنبرة لايكاد المرء يسمعها، ولكن الصراخ كان أنكر الاصوات وهي تقول: «كلا، انا قلت لك انني لن أسألك ان تريها لي وأنك لو فضلت فبامكانك الاحتفاظ بالنقود لنفسك كحلوان وكـ...» وقال انه ادرك في ذلك الحين بانشداه انها تبكي، ربما من حنقها، كما روى في وقت لاحق، او ربما من غيضها او ربما من سبب اخر.

وهل بأمكان المرء ان يتصور ابداً ماذا يدور في خلد النساء ؟ ولكنها على أية حال كانت تبكي ولم تكن تتمالك نفسها عن البكاء . وسط كل هؤلاء الناس ... وروى فيما بعد انهما كانا واقفين هناك الواحد ازاء الأخر بلا حراك وسط الجمهور الذي كان يتفرق بهدوء .

فقالت هي مرددة : «كلا ، قلت لك كلا ، لا أريد ، لا أريد ان أراها . وجل ما أريده هو أن تقول لي لمجرد أن أسمع منك وأنت تقول . اني .... «ثم قالت : «يا آلهي . يا آلهي . لقد ربحت انت اذن . لقد ربحت ... «فنظرت الى حفنة التذاكر التي كان يخرجها على مهل من جيبه ويمدها اليها . ولكنها أحجمت عن أخذها منه تماما كما لو كانت ناراً أو شيئا مماثلاً ، مكث أيجليزيا على هذا الوضع حيناً ، وذراعه مبسوطه ، ثم أعاد الذراع على مهل أيضاً بدون ان يكف عن النظر اليها . فلحقت يداه الواحدة بالاخرى واخذتا تمزقان حزمة التذاكر، بدون ان يرمي بها كالاهوج على الارض، ولكنه تركها تتناثر بينه وبينها ، بين الجزم العتيقة المتصدعة والرقيقة ايضاً على ما يبدو ، من فرط الصبغ والتلميع ،

حتى أصبحت كورق السكاير ، وبين الأقدام الثرة الشبيهة ، بلون المشمش ذات الأصابع الدموية ، وهذه الأحذية العجيبة التي كانت أشبه بالرهن أو العربون الذي تمخض عنه رأس أسكافي مجنون أقسم بأنه يستطيع ان يجعل أمرأة تقف وتمشي (اعني على أية حال كائنا بشريا منتصبا على قدميه) متوازنة على (لأنه على كل حال لم يكن ممكنا ان نقول في) شيئ مصنوع لكي تمشي عليه الناس كلوازم البهلوان : تحد ليس للتوازن فحسب وللمعقول ولكنه تحد ايضا لأبسط القوانين الاقتصادية ، حيث تتناسب قيمة بضاعة معينة تناسباً عكسياً مع كمية المادة المعروضة وكأني بقانون اللعبة ينص على بيع الحد الأدنى من الجلد باعلى الاسعار ... فقال بلوم : «لانك تريد ان تقول انك راهنت عليها رابحه ؟ تباً لك : وانك راهنت على هذا النقد كله رابحاً او خاسراً معتمداً على شخص يـ ...» .

فأجاب أيجليزيا بصوته العذب نفسه النابع من تفكير عميق وعناد : «ليس عليه ولكن عليها . على تلك البهيمة ... ثم انه كان يجيد ركوبها ايما أجاده . ولا يؤاخذ على شيئ سوى انه كان عصبيا جداً ، وقد أحست هي بذلك . الحصن الرديئة من قبيل الأدوات الغريبة بأمكانها ان تتصور الأمور . فلو لم يكن عصبيا الى ذلك الحد لكان قد ربح حتى دون الحاجة الى الأستعانة بعصاه» .

فقال بلوم : «اذن من أجل هذا لم تقبل ان يركبها احد سواك . ولكنك مع كل هذا لست ممثل دور عاشق : «لم يرد أيجليزيا عليه ، فيما كان يكسر بكل أعتناء اخر جمرات النار ويغطيها بالتراب وشكله يشبه اكثر من اي وقت مضى (وهو في زيه المضحك المتكون من معطف عسكري خارج عن المألوف لونه لون التراب والمرارة وبيديه الناعمتين ووجهه الأصفر المغبر الشبيه بوجه النسر) شكل بعض الشخصيات القره قوزية ثم قال : «لو عرف هؤلاء الالمان الحقراء اننا نحضر طبيخنا هنا لكان النحس حليفنا ... وغداً ، هيا بنا للرحيل . علينا ان نحترس

جيداً وان نقفز قفزاً سريعاً عند وصولنا الى سقيفة العدد . لان الأولين سوف يتدبرون أمر أخذ جميع المجارف . وعندما تأتي انت فلن يبقى سوى المعاول ، وسوف يكون عليك ان تقضي النهار كله في أجهاد ذراعك . ولكنك لو حملت مجرفة واحدة فستكون قرير العين ، لانه لن يكون عليك ان تفعل شيئا سوى ان تتظاهر بالحركة بدون ان تحتاج الى اخذ شيءٌ معك لان كل ما هو مطلوب منك هو ان تتحرك ولكن اذا كان عليك كلّ مرة ان ترفع احد هذه المعاول بدلا من ان ...»

فقال بلوم : «وماذا بعد ...» ولكن ايجليزيا هذه المرة لم يعد هناك : وقد قضوا الصيف كله وبايديهم معاول (او عندما كان الحظ يحالفهم مجرفة) في أعمال الحفر . ثم عند مستهل الخريف أرسلوا الى مزرعة يقتلعون البطاطا والبنجر . ثم حاول جورج الهروب. ولكن قُبض عليه (بالصدفة وليس بواسطة جنود أودرك أرسلوا لملاحقته ولكن – وقد كان يوم احد – في غابة نام فيها ، بواسطة صيادين مسالمين) . ثم أقتيد ثانية الى المعسكر والقي به في السجن كما ان بلوم ايضا وقع مريضاً واعيد الى المعسكر بعد ذلك . فبقيا هناك كلاهما يعملان ، في أثناء أشهر الشتاء في أفراغ عربات الفحم حاملين بأيديهما الشوكات العريضة . وعندما كان الحارس يبتعد ، كانا كشبحين بائسين همجيين ، وقلانسهما نازلة على اذانهما وياقة معطفهما العسكري مرفوعة مديرين ظهريهما عن الريح المطرية او الثلجية ، وهما ينفخان في أصابعهما بينما كانا يحاولان الانتقال بالنيابة (اعني بواسطة مخيلتهما ، اعني بجمعهما والتقاطهما كل ما كان باستطاعتهما العثور عليه في ذاكرتهما من معارف رأياها وسمعاها وقرأاها بحيث أنهما – فهناك وسط السكك الحديد المبللة البراقة ، كانت عربات سوداء واشجار صنوبر مبللة سوداء ، وسط نهار بارد باهت من أيام شتاء سكسوني – كانا يوقظان الصور الزاهرة النيرة عن طريق سحر الكلام الفاتن الزائل او الكلمات المخترعة ، بهدف جعل الواقع الذي لا

يمكن وصفه مقبولا وسهل الهضم (مثل بعض المعجنات المعاملة بقليل من السكر والتي تخفي في داخلها الأدوية المرّة لتقديمها للأطفال) في هذا الكون التافه الغامض العاتي الذي كانت روحاهما تتحركان فيه عند عجز جسديهما عن الحركة شيء لا واقعي كالحلم وكالكلمات الخارجة من شفاههما أصوات وضجيج لتجنب البرد والسكك الحديد والسماء الداكنة والصنوبر القاتم :) اذن انه – اقصد هنا ريكساك ..

(فقال جورج «ريشاك» فأضاف بلوم «ماذا ؟ اي نعم ..» أراد هو ايضا ان يركب تلك الفرس اعني ان يروضها) ان كثرة رؤيته فارساً بسيطاً عادياً يحقق بها فوزاً ربما جعلته يتصور ان ركوبها يعني ترويضها وربما كان يعتقد ايضا انها (وهنا حديثي عن الفرس – المرأة ، الانثى الشقراء التي لم يتمكن منها ، ولا عرفها ، والتي لم تكن لها عيون – ومن المرجح أنّها لم يكن لها ايضا شيء أخر غير العيون – الا من أجل هذا الـ ...)

وبوجيز الكلام ربما فكر انه بذلك ، ان صح التعبير ، يضرب عصفورين بحجر وانه اذا توصل الى ركوب الواحدة فسوف يروض الأخرى او العكس ، بمعنى انه لو روض واحدة فلسوف يركب الأخرى ركوباً ظافراً مماثلاً ، بمعنى انه يقتادها هي أيضاً الى الوتد أي ان وتده الخاص به سيقتادها ظافرا الى حيث لم يفلح قط في أقتيادها ويجعلها تتذوق أو ترغب في وتد آخر (ترى هل تعبيري عن فكرتي واضح ؟) او ان شئت عصا اخرى أي لو نجح في أستخدام عصاه تماما كذلك الفارس الذي فقاطعه جورج قائلاً «كف عن هذا المقال كف ! هل تستمر فيه حتى ...» فأجاب بلوم «حسن جداً أعذرني كنت اتصور ان ذلك يعجبك انت تقضي وقتك هنا في الترداد والافتراض والتزويق واختلاق القصص والاساطير. واني لاراهنك ان أحداً سواك لم يشهد قط الا أقصوصة سوقية بذيئة بين مومس وأحمقين وعندما أقول «فرد عليه جورج

قائلا : «مومس وأحمقان ونحن هنا نشبه الجثث تقريباً محرومون مثلها من كل شيءٍ تقريباً ايضاً ، وربما سنكون غدا جثثا حقيقية ، لمجرد ان تقوم احدى القملات المتسكعة فوق أجسامنا بنقل داء التيفوس الينا ، وان تهز أحد العمداء رغبة في أرسال من يقصف هذه المحطة ، فما الذي بوسعي ان أفعله والحالة هذه ، ما الذي بوسعنا ان نفعله ، ما الذي بوسعي ان أفعله سوى ... «فقاطعه بلوم : «حسن جدا ، حسن جدا . ياله من خطاب بليغ (لله درك . أية اذن . انه اذن – حديثي ما يزال دائما عن دي ريكساك – أطلق ...» فقاطعه جورج قائلاً : «ريشاك» اي ان الشين تعوض عن الكاف والسين والكاف تعوضان عن الشين . يا الله . كم يجب ان اصحح لك فرد عليه بلوم « :حسن ، حسن : دي ريشاك . حسن جداً . واذا اصررت على ان تكون مزعجا على شاكلة ايجليزيا فأني ... «فقال جورج : «اني لا ...» فرد عليه بلوم : «ولكنك مع كل هذا لم تكن تعمل خادما عنده ؟ ولم تكن في خدمته ؟ لم يدفع لك أجرا قط مقابل أجبار الناس على لفظ أسمه لفظاً صحيحاً ؟ اللهم الأاذا حسبت نفسك مهاناً أو محتقراً مثله ؟ او الا اذا احتراماً ... لجدكما الواحد وأحتراما لذكرى ذلك الزوج المخدوع والآخر الذي ...» فقاطعه جورج : «زوج مخدوع ؟» فأكمل بلوم حديثه : «أطلق رصاصة مسدس أطلاقة مسرحية في ...» فقال جورج مصححا : «لم يكن مسدساً ولكن غدارة . لم تكن الناس قد أخترعت المسدس بعد في تلك الفترة . ولكن ، زوج مخدوع ؟ ...» فأجابه بلوم : «حسن اذن غدارة . وهذا لا يقلل من القيمة المسرحية ولروعة مشهد الانتحار : او لم تقل انه استدعى رساما لتلك المناسبة ؟ لكي يخلد لذريته ، ولا سيما لكي يكون المشهد منهلا للسيدة والدتك عندما كانت تستقر...» فأكمل جورج قائلا : رساماً ؟ واي رسام تقصد ؟ سبق ان قلت لك ان الصورة الشخصية الوحيدة الموروثة عنه كانت قد انجزت قبل وقت طويل منذ ان ...» فقال

بلوم : «أعرف . وقد انجزت وتضمخت بالدم ، في وقت لاحق بسبب الزمن والتردي والتعرية اليومية ، كما لو ان الرصاصة التي أخترقت رأسه ، امضيت طفولتك كلها في البحث عن أثرها على الجدران ، ثم عادت لتضرب الوجه المرسوم الأبديّ النقاء ، اعرف ذلك : ثم ان هناك تلك الصورة المحفورة ...» فقال جورج : «ولكن ...» فرد عليه بلوم : «وهي تصور المشهد الذي تؤوله على طريقة امك ، اعني بها بالصيغة الاشد تملقاً لأصل عائلتك ، ولا شك ان هذا التأويل يستند الى القانون الذي يفرض على التاريخ ان ...» فقاطعه جورج ، ومن يعرف ربما كان بلوم يقاطع نفسه بنفسه مازحاً ، او ربما كان جورج نفسه يتجاوز في المطر السكسوني البارد مع يهودي قصير سقيم – أو مع ظل يهودي قصير سيصبح عما قليل جثة – جثة أضافية – لقيه تحت المطر الرمادي بين السكك وعربات الفحم ، او ربما بعد ذلك بسنين عديدة ، وحده دائما (ولو انه يضطجع الان بجانب أمرأة دافئة) دائما وجها لوجه ذلك الند ، او يحاور مع بلوم او لا يحاور شخصاً معلوماً) : » ها قد وصلنا الى القصة . لقد مضى وقت وانا اعتقد بأن موعد القصة قد حان . كنت أنتظر الكلمة . اذ من النادر الا تظهر في وقت أو في آخر مثل العناية الربانية في خطبة أحد الآباء الدومنيكيين . حملها رحم مطهّر بلا دنس اصلي : انها لرؤيا ساطعة ماجدة يخص الله بها القلوب البسيطة والعقول السديدة أو هي ضمير المشتكي والفيلسوف أو المثل الابدي الذي لا يعفوه الدهر – او الملهاة – التي يشعر فيها الجلاد ، وكأنه احدى راهبات المحبة ، كما يشعر المعذب فيها بالبهجة طفولية الروح الجهادية التي كان يشعر بها المسيحيون الأولون ، فيما كان الجلادون والشهداء قد تصالحوا وانغمسوا في مجون دامع ، مما يستدعي حامل المكنسة الكهربائية او بالاحرى العامل الذي يفرغ ما في المجاري مباشرة في البالوعة واقصد بعبارة ما في المجاري هنا ما في العقل الذي يضفي على القذارة اكواما من القذارة اضفاء لا هوادة فيه ، هذه القذارة

العامة التي يرتسم فيها كل في مكانه وعلى مستوى واحد ، سواء مثلت هذه القذارة قبعات من أوراق البلوط أو اغلال الشرطة او قمصان النوم النسائية او غليونات ومداسات مفكرينا ، ولكن على رأس هذه القذارة يقف القرد العاقل آملا ان يبلغ يوماً ارتفاعاً يمنح حوباءه من ملاحقته» بحيث انه سيستطيع اخيرا ان يتذوق سعادة مضمونة لا يعتريها فساد ، بفضل سلاسل انتاج الثلاجات والسيارات واجهزة الراديو – ولكن أية . اكمل حديثك . على أية حال ليس محظوراً على المرء ان يتصور ان الهواء الذي تطرده الامعاء الملأى بالبيرة الألمانية الطيبة التي تختمر في احشاء هؤلاء الحرس يشنّف آذاننا في حفلة عزف موسيقي لرقصة ثلاثية لموزارت ... فأجاب بلوم (او جورج) : «اما انتهيت بعد ؟» فقال جورج (او بلوم) : «اذن ايه واصل حديثك» ، فأجاب جورج (أو بلوم) : «ولكن علي ان اقدم مساهمتي ، ان اشارك ، ان اضيف شيئاً على الكدس بزيادة بعض القطع من الفحم الحجري ...» فأجاب بلوم : «حسن . اذن هذا القانون الذي يفرض على التاريخ ان ...» فقال جورج : «الا تأكل ؟ «فواصل بلوم : «على التاريخ (او ان فضلت : الغباء والشجاعة والكبرياء والعذاب)

الا يترك وراءه سوى فُضالة صادرها الجميع فضالة معقمة صالحة للأكل ، على نسق الكتب المدرسية المقررة والعوائل الاصيلة ... ولكن في الواقع ماذا تعرف ؟ هل تعرف شيئا آخر سوى ثرثرة امرأة قد تكون أكثر أهتماما بصون سمعة احدى مثيلاتها من أهتمامها بتلميع – وهذا عمل حكر عموما على الخدم كأيجليزيا – شعار واسم صدئا بعض الشيء ... فقال جورج : «هل تعتقد ان كومة الفحم هذه ستقوم وتمشي وحدها اذا لم يتظاهر المرء بأنه يساعدها لكي لا تبدأ تلك الكتلة من المصارين الموزارية التي طفقت تنظر الينا هناك نظرة شزراء ... فأجاب بلوم : «.. بحيث ان هذا الانتحار الخامل الشريف ربما لم

يكن يـ ... نعم : ها ان الشبح الهزيل المضحك قد شرع يتحرك ويهتاج ويتعكز ويهتز اهتزازات قصيرة ، حتى نجحت في أضافة أربع أو خمس قطع من الفحم الحجري المبلل على الشوكة . ثم ان الشوكة رسمت قوساً سريعاً ، فبقيت قطع الفحم هنيهة في الهواء ، متحررة من نير الجاذبية دائرة حول نفسها دوراناً بطيئاً ، ثم سقطت محدثة صوتاً اصم على صفيحة الشاحنة ، ثم اتخذت الشوكة وضعاً عمودياً للمرة الثانية ، واسنانها متجهة الى الأسفل ، وقد اجتمعت يدا بلوم عند اعلى مقبضها وذقنه مستند اليها ، بحيث انه عندما كان يعيد الكلام ، لم يكن فكه السفلي – الثابت – وانما كل رأسه كان يصعد وينزل ، محدثا حركة بطيئة عند الكلام تنم عن قرار بالادانة :» ... لانك تدعي ان هذه المرأة شبه العارية التي لمحتها عبر الباب وقد تنور نهدها ووجهها من ضوء شمعة موضوعة على الأرض ، بحيث انها باتت تشبه ماريان المرأة الفرنسية الرمز المصنوعة من الجص التي نجدها في غرف المدارس أو مقرات البلديات ، حيث الغبار الذي لا تأتي مكنسة ابدا لتزعجه ، يتراكم على طبقات رمادية فوق كل بروز ، قالبا بذلك كل نتوء وضوء وحتى كل تعبير فتصبح نتوءات العيون مظللة ومسودة في القسم العلوي منها فتبدو وكأنها ترسل الحاظها الأبدية العمياء نحو السماء – تدعي اذن ان قد تكون هذه المرأة خادمة هرعت وراء الشخص الذي حسبته انت خادماً او حاجباً ايقظه صوت الرصاص ، ولكنه قد يكون عشيقها – لا عشيق الخادمة لان المرأة التي نحن بصددها هي السيدة والزوجة ، اعني بها جدة جدة جدة جدتكما انت وهي ، فلربما الرجل – او العشيق – ينتسب حقاً الى فصيلة الخدم كما تدعي ، لمجرد انها قاسمته فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية اذواق عامة الشعب او الاذواق الشبيهة بالخيل ، واقصد بهذا الاستعدادات نفسها لركوب الخيل اعني النزعة نفسها الى انتقاء عشاقها من جانب الاصطبلات ... فقال جورج : «ولكن ...» فرد عليه بلوم : ألم تحك لي انه كانت هناك لوحة اخرى

معلقة بجانب الصورة الشخصية الدامية رسمت في الحقبة نفسها ، وكانت تمثلها في وضع لا يشبه صيّادة ولكنه يتفق مع وضع زوجها ، ولكن كانت تشوبها (الثوب والوقفة والهيئة وطريقة تفرسها القوي في الرسام الذي كان يصور تقاطيع وجهها وفي وقت لاحق طريقة تفرسها في كل من يطرح عليها سؤالاً) مسحة من الوقاحة والتحدي والعنف المكبوت ولا سيا أنها كانت تمسك بيدها شيئاً أهيب من السلاح بكثير بل أهيب من بندقية صيد : كانت تمسك قناعا يمثل احد اشكال كرنفالات مدينة البندقية ، متوحشاً ومخيفاً معا مجهزاً بأنف هائل كان يبدو للناس وكأنه طائر ممسوخ ، وكان هذا القناع يزداد هولاً من جراء الدثار المزود بقبعة ، ذلك الدثار الذي كانت اهدابه المتدلية تتحرك كالامواج حول ذلك الطائر ، وعند سكونها كانت تغطيه كالاجنحة المطبقة) فيما كان يبرز خلال صدارها شيْ لا يمكن لمسه ، كرغوة وكطيات الدنتلا الرهيفة المعقدة وينبعث وكأنه العطر الذي يضوع من جسدها ومن فمها المستتر داخل الظلام الحريري متحررا من زفير زهرة بدنها ... وبغته تغير الصوت فنشز اذ صعد نبرتين اعلى فقال : «انها اذن ديجانير الأميرة اليونانية الاسطورية ...» فرد عليه جورج : «أو بتول» فقال بلوم : «ماذا ؟» فأجابه جورج : «كانت تدعي انها فرجينيا اي البتول» فقال بلوم : «ياله من اسم جميل لمومس . اذن هي فرجينيا تلك العذراء اللاهثة العارية أو أكثر من عارية اعني لابسة – او الاصّح منزوعة الثياب – احد تلك القمصان التي لم تبتكر الا لكي تسمح للايدي السجينة بأن تنزل وتلامس دفئ البطن ، لتعود الى وضعها ثانية ، ثم يقصد حتى النهدين فتتراكم الطيات لكي تكشف وتعرض – كما هي الحال في معارض دكاكين السلع الفاخرة ، حيث تعرض الأشياء الثمينة الرهيفة الخرافية والاسعار داخل الساتان الجياش – ذلك الفم المستتر السري – : تعرض امرأة ليست مستلقية فحسب وانما منقلبة او منبطحة بالمعنى الآلي للكلمة ، اعني كما لو ان جسمها

ادى نصف دورة بدءاً من الوضع الموغل في القدم الذي تقعي بموجبه لقضاء حاجاتها – لانها ليس لها سوى، وضع واحد لقضائها باجمعها وقوامه : ان تحني ساقيها وان تضغط بفخذيها على جنبيها ، ثم تأتي ركبتاها لكي تلامسا ابطيها الظليلين – ولكن الان كما لو ان الأرض ماجت فقلبتها على ظهرها ، وكأنها تستعد لأن تستقبل تلقيحا اسطوريا او مطراً ذهبياً منهمراً تلك الغابة وذلك الجرح الأبدي السائب حتى قبل ان يداهمه احد ، ولقد عرضت نفسها عرضاً لا حشمة فيه تماماً كأنها تنتظر عملاً دقيقاً جداً .

فقال جورج : «لا ! لا ! ....»

فرد عليه بلوم وقال : «وانت المهتم بالبحث حالماً على الجدران عن رصاصة ، ان لم نقل ممجدة وشامخة ففي الأقل مشرفة رومنطيقية . ألم تجد في بحثك فقط ما يلي؟ :

الظل الأحدب الذي تطرحه الشمعة الموضوعة قرب السرير ، ذلك الظل المعقد الوثاب ، ظل منثن عظل تترابط عند خاصرتيه الساقان الحليبيتان ، كساقي غريق متشبث بالصاري والقدمان اللتان يشبه لونهما لون المشمش ، ذلك الظل وهو ينتفخ ممسوخاً كالطود ويصعد الى السقف ويجيش بقفزات زوبعية بفعل هيجان الأمواج العابثة الظل الذي يحركه، من تحت ، ذلك الحيوان الثنائي الرأس ذو الأذرع الأربعة والسيقان الأربعة والجذعين الملتحمين عند البطن ....»

فقال جورج : « . كلا ، كلا ! »

فأجابه بلوم : « ... دخل فجأة (لانه لماذا عاد الى هناك ان لم يكن من أجلها الأتقول لي ؟ لانه يبدو لي انه لكي يسرع في رحيله الى العالم الاخر يستطيع ان يفعل ذلك في اي مكان كان مثلما تضع وسخا خلف اول دغل تراه في طريقك لانني لا اتصوره ضروريا جدا في لحظات كهذه ان يتمتع المرء بوسائل

خاصة بالراحة ....) اذن ترك هناك قواته المهزومة من مشاة وهاربين يطلقون الشتائم هم ايضا أيضا باعلى صوتهم على الخيانة وهم فريسة ذلك الرعب ، ذلك الاسهال المعوي (هل لاحظت ان الناس تسميه ايضا اطلاق البطن ؟) الذي يتعذر احتواءه ، ذلك الاسهال اللامعقول . انه عندما يهرب لا يفعل شيئا اخر سوى الاستسلام للقوة نفسها او ان شئت لليأس نفسه الذي دفعه في ظروف اخرى او سيدفعه للقيام بعمل لا يطيق العقل الاشجبه ، كأن يتهافت وهو يعوى امام رشاشة تطلق عليه الرصاص ... وهو الذي اصبح خائناً مرتين – خائناً للطبقة الاجتماعية التي انحدر منها التي وشجبها مفضلا تدمير ذاته والانتحار ، نوعا ما في بادئ الامر اكراما لمسلك اخلاقي سويسري محزن لم يتمكن قط من معرفته لو لم يسمح له بذلك ثراؤه ورتبته اعني وسائل التسلية والمطالعة – خائناً ايضا للقضية التي اعتنقها ، ولكنه هذه المرة بسبب عجزه به مجرماً هو النبيل بالولادة والذي كانت الحرب نوعاً من أختصاصه) لانه اراد ان يقرن او يصلح بين الشجاعة والفكرة ولأنه انكر ذلك التناقض القوي القائم بين التفكير والعمل ، بحيث انه لم يبق له سوى ان ينظر او بالاحرى ان يتحاشى النظر (بابتلاعه ، في تصوري ، شيئا هو أشبه بشيئ مشهور الى هؤلاء الاباش وهم يتفرقون شذر مذر (اية صفة أخرى يستحقون ، لانهم اصبحوا الآن يعرفون منها الكثير – او قدرا لا يكفي – لكي يتمكنوا من العيش كالاسكافي او كالخباز ومن ناحية اخرى قدرا غير كافي او أكثر مما يلزم – لكي يستطيعوا ان يسلكوا سلوك الجنود) هؤلاء الأوباش الذين رآهم في خياله او في احلامه ، وقد ارتقوا الى حالة عليا كان يتصور الوصول اليها ممكنا عن طريق مطالعة غير مهضومة لخمسة وعشرين مجلداً ... فقاطعه جورج مصححاً : «ثلاثة وعشرين» فقال بلوم ثلاثة وعشرين كتاباً طبعها احد اصحاب المكتبات في لاهاي كمقالات إستكشافية وجلدها بجلد العجل المدموغ بالذهب ... اعتقد انك قلت ثلاث بطات بدون

رؤوس ؟ ...«فأجاب جورج : يمامات وليس بطات» فقال بلوم : «اذن الحمامات الثلاث المقطوعة الرؤوس قطعاً رمزياً ...» فأجاب جورج : «كلا ثم كلا .» فقال بلوم : «... حمامات كانت تشكل الشعار النبوي للعائلة ان صح التعبير : لان كل ما فعله هو انه نسي استخدام عقله ، هذا اذا كان له فعلاً عقل يستخدمه في راسه المنسوب الى الدم الاصيل ...» فأجاب جورج : «اجل هذه الكومة من الحطب ، هذه الكومة التأريخية من الحطب ...» ولكن بلوم الذي اعتورته فجأة ثورة عاتية انتفض وسط الحفر المائلة الى السواد الملأى بالماء وهاج وماج وقال : «حسن ، حسن : الا فلنشتغل نحن ايضاً في حقل التاريخ ، ولنكتب نحن ايضا كل يوم صفحة في سفر التأريخ ! وعلى أية حال ، أعتقد أنه ليس هناك شيئ أكثر أهانة وأشد غباء في اغتراف جبل من الفحم من الموت جزافاً في سبيل ملك بروسيا – فلنكافيء موزارت هذا الذي هو في مدينة براند بورج جزاء لامواله» . وبينما كانت الشوكة تذهب وتجيء عدة مرات وبسرعة خارقة ، تطايرت منها ثلاث قطع من الفحم ونصف واذا به يتوقف لاهثاً من التعب وقال : «ولكني لم أكمل موضوعي بعد !»

لم ارو لك كل شيئ . أين وصلت فيه . آه ، تذكرت : جاء اذن ، على حين غرة ، تاركا اسكافييه يجر اذيال الهزيمة واوهامه واحلامه العذرية لائذاً بالفرار بأتجاه ما كان قد بقي له – هذا ما يتصوره في الاقل اعني ما كان يستطيع ان يعتبره يقينا : ربما لم يكن القلب (لانه توصل اخيراً الى فقدان القليل من سذاجته) ولكن بالتأكيد كان لحم اجنيس وجسمها الدافيء الناعم الملمس ... (ألم تقل لي انها كانت اصغر منه بعشرين سنة في الأقل بحيث أنها ... فقاطعه جورج : «كلا . انت تخلط الحابل بالنابل ، أنت لا تميز بينها و ...» فأجابه بلوم : «وبين ابن حفيدها . هذا صحيح ولكني مع كل هذا اعتقد أنه بالامكان تصوره : لان الناس في ذلك العصر كانوا يزوجون البنات في عمر الثلاث عشرة

سنة برجال مسنين ، وحتى انهم اذا ظهروا في هاتين الصورتين في عمر متقارب فذلك وبدون شك يعود الى مهارة الفنان .

(اعني براعته وقدرته على التملق) الذي اعاد الى الزوجة شيئا من شبابها . كلا ، فأني لست مخطئاً . واقول بكل صراحة (هي اعني انه قد لطف وعدل ما كان ظاهراً من خبرتها الحقيقية ، أما عن طريق الكذب والازدواجية بمعنى انها كانت تسبقه بألف عام) ... فارنولف هذا عاشق البشر الثائر المحارب كان يرفض رفضا قاطعاً تحسين الجنس البشري (وهذا ما يفسر دون شك ان سليله البعيد الذي كان يستمد العزم من هذه الذكرى ويتعكز بذكائه قد كرس حياته كلها لتحسين الفصيلة الحصانية) قاطعا بذلك مسافة مائتي كيلو متر كانت تفصله عنها وفرسه مرخاة العنان ... «فقاطعه جورج مصححاً : «ثلاثمائة» فاجابه بلوم : ثلاثمائة كيلو متر ، وبلغة قياسات اهل ذلك العصر تساوي ثمانين فرسخا ، على وجه التقريب ، اي ما يقطعه حصان يعدو بدون استراحة كافية مدة اربعة ايام في الأقل (او بالاحرى فلنقل خمسة ايام) ويصل ، في نهاية الأمر ، في ساعة متأخرة من الليلة الخامسة وقد التهبت حوافره وتمرغ بالوحل ... «فقال جورج :» لم يتمرغ بالوحل ولكنه تعفّر بالتراب . لان ذلك البلد منطقة لا يسقط فيها المطر ابداً تقريباً «فأجاب بلوم :» تبا لك ! ولكن ماذا هناك اذن ؟» فقال جورج : «هناك الريح في نهاية الامر ان صح القول . لان هذا يشبه تقريبا الريح او اطلاقة المدفع او المسدس المجهز بسداد . ولكن ما هذا الهراء ... «فأجاب بلوم : اذن عاد وهو معفر بالغبار وكأني به قد اصطبغ بذرور غبار لا تطاله حاسة اللمس ، غبار كثيف من الركام ومن البقايا المحطمة لآماله الخائبة : فقد وخط الشيب رأسه ، قبل أوانه ، بفعل رماد المحرقة ، حيث تأمل مدة أربعة ايام وخمس ليال وهو في دروب الهزيمة ، واستعرض واحرق كل من أحرق البخور امامه ، فلم يبق له الآن من يحرق لها البخور سوى تلك التي كان يتحرق شوقاً

للعثور عليها . فقد جرت الأمور كما يلي : في صمت الليل تعالت اصوات وطقطقة حوافر ، لاشك انه لم يكن وحيدا بل كان بصحبته خادم امين يتبعه ، مثلما كان قد استخدم غيره ، خادماً ، الى الحرب يضمد جراح حصانه ويلمع حذاءه ، فارس السباق الأمين ذاك او بالاحرى الفحل الذي راودته آجنس الخائنة او بالاحرى الذي كان ، كما يقال ، قد جعل الـ... الشابة تتألق ... «فقاطعه جورج ممتعضاً :» يا الهي ... «فقال بلوم ولكن باستطاعة المرء ان يتصور ذلك : طقطقة نعال الحصن على بلاطات فناء الدار والحيوانات قد التهبت حوافرها تشخر في الليل – او ربما في مطلع الفجر – الذي يميل لونه الى الزرقة والمصباح الذي كان يحمله البواب الذي هرع الى هناك ابرز كل عضلات صدور الجياد الحمراء الحامية . وفيما ترجلوا تراشقوا بمعاطفهم اما هو فاسلم العنان لفارس السباق بعد ان اصدر أوامر قصيرة او لم يكد يصدرها او لم تكن اوامر حتى ولا ضجيج صوته ، وانما كان رنينا او صرير المهاميز. بينما كان هو يتقدم الى درج المدخل بسرعة ثم يصعد : كل هذا سمعته هي ، بعد ان استيقظت منتفضة وهي ما تزال مسترخية متكاسلة ، من جراء النوم والمتعة ولكنها كانت تفكر – ربما لم يكن عقلها بما انها كانت نصف نائمة تترنح ، وانما شيءٌ في داخلها لم يتمكن الرقاد ولا الشهوة الجنسية ان يزيلاه شيءٌ لم يكن يحتاج لان ينتظرها ان تصحو تماما لكي يشرع في العمل سريعا وبدون اي تلكؤ : الغريزة او الحيلة التي لم تكن تحتاج الى ان يتعلمها المرْ بحيث ان جسمها الخفيف ارفضّ ، بينما كان راسها ودماغها مايزالان نائمين (ازاحت الشرشف فيما كنت ترى ساقيها يتدافعان محاولين التخلص منه ، كما كنت تلمح لمحا خاطفا بين فخذيها السريعين في الظل تلك الشعلة – ولكن الم تتحدث عن شعرها الأشقر الكثيف ؟ اذن : – ذلك العسل ذلك الشعر الذهبي الذي ماعتم ان غاب حينما جلست وأرتكزت واذ انزاح قميصها ، كشف عن خفايا جسمها الحليبي وعن رجليها الضاربتين الى لون

الورد ، فيما كانت تتلمس في الظلام بحثاً عن البغال) بدون ان تكف عن التفكير والحساب والتنظيم والمؤامرة بسرعة الصاعقة تماماً في الوقت الذي كان يصاحب قعقعة الجزم وهي تصعد الدرج قافزة الدرجات اربعاً ، اربعاً مجتازة صحن الدرج ثم احدى الغرف وتقربت (غابت الساقان الآن وانسدل القميص) . هي اجنس العذراء – ووقفت فدفعت بكتفيها عشيقها – وسائق العربة السائس الفض الخشن – متجهة صوب الخزانة الربانية التي لا مفرّ منها ، او غرفة المسرحيات الهزلية او المآسي هناك كل مرة في الوقت المطلوب ، مثل العلب الطلسمية التي تحتوي على حشوات او مصائد تحدث عند فتحها انفجار ضحكة او قشعريرة رعب ، لان المسرحية الهزلية ليست سوى ماساة فاشلة او مأساة هي مسرحية هزلية بدون فكاهة ، كانت يداها (ما زال الحديث يدور عن جسمها وعضلاتها وليس عن دماغها الذي لم يكد يتحرر الآن من ضباب النوم الكثيف اللزج) منفردتين تلتقطان في طريقها قطع الملابس الرجالية المبعثرة هنا وهناك ، ترميانها خلطا ملطا ايضا في الخزانة ، فانقطع صوت الجزم ووقف هو (الجزم او انعدامها على الأصح وانقطاع الصوت الفجائي التحذيري) فوراً خلف الباب ، ومعصمه يهتز في كل الاتجاهات ، ثم حدثت ضربة من القبضة فصرخت هي : «لقد وجدت ما اريد .» فعادت واغلقت الخزانة فابتعدت وتوجهت نحو الباب ، فلمحت مرة اخرى صدرية رجل او حذاءه فالتقطتها ، وهي تصرخ ثانية باتجاه الباب : «لقد وجدت ما أريد !» وهي تعود راكضة نحو الخزانة لتفتحها مجدداً ، فتعود فتدفع لوح الباب دفعاً وحشياً الى الداخل بدون ان تنظر الى ما التقطته فصدر صوت من الباب اثر ضربات كتفيها المروعة (الباب الذي سمعته يا هذه يتكسر ويتطاير شظايا ، اثر ضربة رجل غاضب – ولكن الرجل هذا ليس الخادم !) اما هي فقد مكثت هناك كطفلة بريئة ، اذ تراها تضطر الى ان تلقي عنك سلاحاً ، وكانت تفرك عينيها مبتسمة وهي تمد له ذراعيها وتشرح له

بأنها توصد الباب خشية اللصوص ، فيما كانت تندفع اليه وتعانقه وتغطيه فانزلق قميصها بغتة من كتفها فجرد نهديها اللذين ضغطت على رأسيهما ودعكتهما بالقميص المعفر بالتراب ، والذي طفقت تفك عراه بيديها المحمرتين ثم جعلت تكلمه ثغرا لثغر لكي لا يستطيع ان يرى شفتيها المتورمتين تحت قبلات شخص آخر . اما هو فقد كان ماثلاً هناك ، وسط ذلك الجو من الحيرة واليأس ، مهزوماً تائهاً اعزل مجرداً من كل شيء او ربما مفطوماً او ربما شبه من لقي الدمار ... أليس هكذا ؟ «فأجابه جورج : «كلا !» «فقال بلوم :» كلا ؟ ولكن ما ادراك ما الأمر ؟ «فرد عليه جورج : «كلا !» فقال بلوم : «هو الذي اراد ان يتكلف الطبيعة في تمثيليه قصة الحمامتين ولكن الحمام الذكر كان هو ، اعني انه عاد الى العش هضيم الجناح محطم الاحلام ، ادرك انه مخدوع ليس لان فكرة الذهاب الفاشلة خطرت بباله. هو الفلاح الظريف لان ينصرف الى ارتكاب الفجور في الحي المحي مع أساطير الفكر المتمرغين بالوحل ، وانما ايضا بسبب فكرة تركه فروجته الصغيرة وحمامته الفرخة التي كان يحبها حتى العبادة ، هي التي انتهزت فرصة تخليه عنها ، لكي تذهب هي فتفسق أيضا فسقاً طبيعياً جداً ، اعني بالطريقة الجارية منذ خلق العالم ، وشركاؤه في ذلك لم يكونوا احلاماً صفراء بل غلاماً قوي الظهر ولكنه عندما بلغه ذلك كان الوقت قد فات : فقد وجد نفسه هناك عرياناً تماماً ، دون شك ربما توصلت الى خلع ملابسه مستفيدة من غباوته ومن شلله — مع الحمامة الفرخة في العشرين من عمرها وهي تهدل وتفرك جسمها بجسمه اما هو (ربما انه ادرك اضطراب السرير الذي جلب لنفسه المتعة والشهوة ، او (سمع صوتاً او سمع نداء الغريزة) فقد دفعها مقدماً غير هياب — رغم إنها تشبثت به الآن تناشده منكرة محاولة السيطرة عليه ، ولكن كان يلزم اكثر من كل جهدها هذا دون شك ، وربما كان يستطيع استدراج العديد من مثيلاتها ، هو الذي كان منذ اربعة ايام يجر الجثة الثقيلة المتحللة النتنة

جثة او هامة – حتى بلغ بها الى الخزانة ، ففتح الباب فتلق في وجهه تماما اطلاق المسدس التي وجهت عن قرب حدّ ان حظه أشفق عليه وابق له في الاقل شيئا واحداً وهو معرفة ماكان مخبوءاً في الخزانة ، معرفة الطامة الكبرى الثانية ، وعلبة الحشوات والمصائب التي كانت تعمل في الوقت المطلوب ومسدس الأطفال هو ايضا يعمل كما ينبغي له ان يعمل ، اي انه كان قد انهى قلق الانتظار المر الذي لا يطاق جالباً الانفراج السعيد والتلطيف والتخفيف وذلك بطريقة نزع الدماغ ان صح القول ....»

فقال جورج : «كلا !»

فرد عليه بلوم : «كلا ؟ كلا ؟ كلا ؟ ولكن . ما أدراك ما الأمر في النهاية ؟ ما ادراك انهم لم يهيئوه هنا ووضعوا في يده المسدس ، وهو ما يزال يدخن ، خلال الثواني القليلة التي كانت قد بقيت لهم قبل ان يهرع الخدم الاخرون ، بدون ان يكلفوا انفسهم حتى عناء اعادة ثيابه واكسائه من جراء الاستعجال والسرعة اذ لكل ثانية اهميتها . اما هي فقد استيقظت الآن تماما وطفقت تتصرف بكامل وعيها تساعدها في ذلك غريزتها التي تتيح للمرأة ان ترى بلمحة خاطفة اذا كان كل شيءٌ في مكانه ، قبل وصول المدعوين وان تستخدم ذكاءها جيداً لتأمر السائس ان يشخص في الممشى وان يصفع لوح الباب ويفتحه ، عندما يسمع بوشك قدوم الضيوف والاصحاب . اذن لضيق الوقت ، لم يكلفوا انفسهم عناء ، ولا قاموا بمحاولة اعادة ملابسه اليه، ملابسه ، المعفرة بالغبار تلك الملابس التي نزعتها منه قبل قليل بقصد أن ....»

فقال جورج: «كلا»

فرد عليه بلوم: «ولكن الم تقل أنت بنفسك انهم وجدوه عريانا؟» كيف تفسر ذلك اذن؟

اللهم الا اذا كان سبب ذلك نزعته الى التعرى. من يدري؟ او مطالعاته

الجنيفية المثيرة؟

هل ان هذا- أقصد به ذلك السويسري المولع بالموسيقى الملتهب العواطف الفيلسوف الذي تعلم منه أعماله الفنية كاملة- الم يكن ميالاً بعض الشيْ الى التعري؟ او ليس هو الذي كان له هوس عرض دبره للنساء الشابات) فقاطعه جورج: أفلا تكف. اعوذ بالله، كف، كف، ما اثقلك! كف اذن ودعنا نـ...» فأنقطع عن الكلام (او ربما لم يعد يسمعه) بينما كان ينظر، آنذاك، الى الوجه البارز التقاطيع الرفيع الجائع، بدون ان يعرفه اعني دون ان يشخص كونه وجه بلوم، ولكن وجه الشقاء الصارخ والالم والتجرد المطلق، ذلك الوجه الشبيه بالنقيض المأساوي للبشاشة والفكاهة، في الوقت الذي كان يخيل اليه أنه يعيش مايلي: نزاعاً بطيئاً وحدانياً، آناء الليل يعيش الصمت، (ربما فقط في الفندق القديم الهادئ، صدى مخنوقا لحصان يكدف في الاصطبل او ربما ايضا عصف الريح السوداء الحريرية القلقة التي كانت تدخل وتتوغل في فناء الدار على شكل هبات منقطعة -

اما ريكساك فقد كان واقفا هناك، وسط تلك الزينة الغزلية للرسوم يتعرى نازعا عن جسمه ثيابه، قاذفاً بها بعيداً، وهي عبارة عن حلة طموح صاحبه اصبحت الان دون شك، بالنسبة اليه رمزاً لشيْ آ من به ردحاً من الزمن ولكنه لم يعد يجد فيه اي معنى وهي سترته الزرقاء ذات الياقة الصاعدة والظاهرة المطرزة بالذهب عليها رسم لحيوان ذي قرنين وريش النعام: ياله من زي فظ يرثى له، التي به الان هناك، ياله من ضريح تكسوه لا السلطة ولا الشرف ولا المجد، وانما الظلال العذرية ومملكة العقل والفضيلة العذرية الدامعة، ولكن ماخلعته عليه مطالعاته وشيْ ما من قرارة ضميره عاف الفساد، وقد هزه نوع من الاسهال المروع الذي كان يفرغه تفريغاً وحشياً من محتواه، وحتى من دمه، ولم يكن اسهالاً معنوياً، كما كان يقول بلوم، ولكنه، ان صح التعبير، اسهال عقلي أعني

انه يعد سؤالا يطرح اوشكاً يخامر شخصاً، وانما اكثر من هذا، اي ان التفريغ يعني انعدام كل سؤال وكل شك وصاح جورج باعلى صوته: «ولكن العميد ايضا انتحر: لم ينتحر هو وحده فقط، اذ حاول فوجد على هذا الطريق انتحاراً لائقاً مزيفاً، ولكن الاخر ايضا في داره القوراء وحديقته التي تتخللها مسالك يكسوها الحصى المنعم...هل تتذكر ذلك الاستعراض العسكري، ذلك الحقل المبلل صبيحة منطقة آردين الشتائية تلك وهو - وكانت تلك المرة الوحيدة التي رأيناه فيها- بهامته الصغيرة هامة فارس السباق - تلك التفاحة الصغيرة المتجعدة المشددة والمطبوخة، وبساقيه الصغيرتين ساقي فارس السباق، مع جزمتيه الصغيرتين اللماعتين اللتين كانتا تتخبطان تخبطاً لامبالياً في الوحل بينما كان هو يمر امامنا دون ان ينظر الينا: فكأنه شيخ صغير او على الاصّح جنين صغير استخرج من زجاجته الملاءى بالكحول وجيء به هنا بعد ان حفظ فيها حفظاً رائعاً لم يطرأ عليه اي تغيير فقط كان يرتعش وهو نشيط ويابس، اذ انه هنا يلتحق بالسرايا المصطفة، يسحب وراءه مجموعة من الضباط المتقفزين تطرزهم خيوط على اكتافهم وغمد حسامهم في مرفقهم، كانوا يتبعونه لاهثين من التعب في المرجة الخضراء الاسفنجية، بينما كان هو يصول بدون ان يلتفت ذات اليمين وذات الشمال ولكنه كان يتجاذب اطراف الحديث مع الظابط البيطري دون شك- وهو الوحيد الذي بادله الحديث - بشأن حالة الخيل الصحية وحالة حوافرها التي كانت تكويها كالعقارب عند ملامستها الارض- او بشأن مناخ هذا البلد، وعندما عرف اعني ادرك اي فهم تماما ان كتيبته زالت عن الوجود، لم تمن فقط بالاباده او الدمار حسب قوانين- في الأقل ماكان يتصوره قوانين- الحرب: حسب الاصول العسكرية الصحيحة المعروفة، مثلما تجري عند التقدم في صولة لاحتلال موضع منيع او على اثر القصف المدفعي او ايضا- وهذا ماكان يسلم به ويقبله أحيانا- أن الكتيبة تتفكك على اثر هجوم للعدو: ولكنها ماعت ان صح

التعبير او ذابت او نشفت او حذفت من خارطة هيأة الاركان، دون ان يعرف اين ولا كيف ولامتى: كل مافي الامر ان المراسلين كانوا يتواردون الواحد تلو الاخر، ولكن دون ان يروا شيئاً في ذلك المكان- سواء إكان قرية او غابة او تلّة او جسراً- ذلك المكان الذي كان من المفروض ان تكون فيه سرية او مجموعة من المقاتلين، وقد نتج هذا ظاهريا، ليس من رعب ولامن فرار ولا من هزيمة- وهذه مغامرة ربما كان يقبل بها هي ايضا ففي الإقل كان يقر بأنها من قبيل الحوادث المدمرة الاعتيادية هي ايضا الحوادث التي تدخل في باب الاحداث المألوفة وفي باب السلبيات التي لابد من وقوعها في كل معركة والتي يمكن تفاديها بوسائل هي ايضا معروفة كالحاجز الذي يقيمه مثلا الدرك عند مفارق الطرق او كسلسلة الاعدامات بلا محاكمة-، لم تكن اذن هزيمة، بما ان الامر الذي كان يحمله المراسل وكان عليه ان يوصله، كان بشكل لايقبل الرد، امراً بالانسحاب، وان الوضع الذي كان من المفروض ان تكون فيه الوحده التي كان موجها اليها، كان هو ايضا وضع انسحاب، ولكن هذه الوحده لم يصل اليها احد من المراسلين قط- تقدم المراسلون اكثر، اعني باتجاه وضع الانسحاب السابق بدون ان يبصروا قط على يمين الطريق وعلى شماله، شيئا اخر سوى خط الدمار الطلسمي الرتيب، اعني بذلك انه لم تعد هناك شاحنة ولاعجلة محترقة او رجال او اطفال او جنود او نساء او جياد مائتة، وانما كل ماتبقي، كانت فضلات متناثرة كأنها خلاصة المجاري العامة منتشرة على امتداد كيلو مترات لاتبعث رائحة ركام الجثث التقليدية البطولية او رائحة الجثث المنفسخة، وانما رائحة القمامة النتنة، كالنتانة التي تدب في كدس نفايات المعلبات القديمة، او كدس قشارة الخضر أو الخرق المحروقة، ولكن خلاصة المجاري العامة ليست اشد وقعاً ومأساوية من كومة القمامة لانه من الممكن ان يستفيد منها بائع الحديد العتيق او باعة الخرق وما الى ذلك. الى ان تلقى المراسلون، كلما كانوا يتقدمون عند احد منعطفات الطريق،

رشقا بالرصاص، مما اسفر عن قتيل اضافي، بالقرب من جانب الحفرة، حيث انقلبت الدراجة النارية، وهي ماتزال تواصل ازيزها في الفراغ، او تشتعل، مما زاد من عدد الجثث المتفحمة المسودة، وقد تمددت فوق احد الهياكل الحديدية المشوهة المتصدئة (هل لاحظت السرعة التي جرى بها كل هذا واستحثاث الزمن والسرعة الهائلة التي تخلق بها الحرب الظواهر الناتجة من فعل الانسان– من صدأ وتلوث وخرائب وسوفان اجسام– ظواهر تحتاج في الظروف الاعتيادية أشهراً بل سنوات لكي تتحقق؟) الشبيهة بكاريكاتور جنائزي لمتسابقي الدراجات النارية الذين يواصلون تقدمهم، وهم منحنون دائما على مقاودهم، بسرعة جنونية، وهم يتحللون بعملهم هذا، اذ يفرزون من تحتهم فوق العشب الاخضر، بقعا من الزفت والنجاسة الضاربة الى اللون الاسمر متكونة من الزيت والشحوم واللحم المحترق؟ والمكونة سائلا لزجاً داكناً، يتحللون بسرعة هائلة – ، عاد المراسلون اذن الواحد بعد الاخر دون ان يعثروا على شيئ. ولم يبق هناك كتيبة قط، فكاني بها قد تبخرت ودرست كلها كالطلل البالي، وامحت كأسفنجة ازيل عنها ملؤها، ولم يبق، منها اثر ماخلا بعض الاشخاص المصدوعين التائهين المختفين في الغاب او السكارى. وفي النهاية لم يبق لي سوى نزر يسير من الوعي والضمير. فوقفت امام ثمرة العرعر المخروطية هذه التي باتت قواى عاجزة عن افراغها، بينما كنت مهشما على مقعدي الصغير من ثقل جسمي، حاولت بوعيي العنيد ذلك الذي هو ديدن السكيرين ان انهض وانصرف، بعد ان ادركت ان ايجليزيا وذلك الشخص المسن الذي سطونا عليه في باديئ الامر ثم اخطأنا أصابته وقتله، ذلك الذي اخذ على عاتقه، بعد ذلك، مساعدتنا على اجتياز الخطوط عند حلول الليل، ادركت انهما مثلي سكرانان، فطفقت اذن، بدون ملل، احنو جسمي الى الامام لكيما يسحبني ثقله ويساعدني على النهوض من ذلك المقعد الصغير الذي كنت مسمرا فيه، بينما كانت يداي تحاولان دفع المنضدة، وادركت في الوقت نفسه ان هذه

الحركات المختلفة كانت تصدر عن قدر ضئيل من الارادة. واني كنت لاابرح مكاني ولااتي حركة، وكأني بت مزدوج الكيان من شفافية وشبحية. فقد كنت اكرر دون اية فاعلية حركات متشابهة كاحناء الظهر واجهاد الفخذين الذي يقابله في الوقت نفسه، ودفع الذراعين، واذ ادرك كياني المزدوج هذا الاجدوى من الحركة، عاد الى الخلف فاندمج ثانية مع جسمي الذي كان مايزال جالساً، فحاول سحبه مرة اخرى ولكن بلا جدوى ايضا. لذا فاني حاولت ان افرض النظام في رأسي معتقد أني لو توصلت الى تحديد تصوراتي وتصنيفها، فسوف اتوصل ايضا الى تنظيم حركاتي وتوجيهها وعلى النسق التالي:

قبل كل شيء كان ثمة الباب الذي على ان افلح في الوصول اليه اولا واجتيازه ثانيا. فقد رايت شكله معكوساً في المرآة المعلقة فوق المكتب، وهي مرآة مستطيلة الشكل كالمرايا التي يمكننا ان نشاهدها، او الاحرى التي يمكن ان نتمرأى فيها عند الحلاق، زواياها العليا مدورة، ويبدأ أطارها عند الحافة منخوراً قليلاً، ثم يستقيم في احدى المناطق فيأتي صف من اللؤلؤ ثم ينتفخ ولكنه ليس مطليا بالميناء البيضاء كما هي الحال في صالونات الحلاقة، وانما بمعجون الكلس البني، تزينه نتؤات خفيفة خيطية الشكل كانها الشعيرية، وكانها كعوب علامات نجمية تنطلق من لون مركزي شبيه بالسعفة في وسط كل جهة، وبما ان المرآة كانت منحنية، فان الاشياء العمودية التي كانت تنعكس عليها كانت منحنية هي ايضا. شروعا بصف الياقات وباعناق القناني المصفوفة على الرف المعلق مباشرة فوق، في مقدمة الاشياء تعقبها ارضية الغرفة الخشبية المهيأة من الخشب الخام غير المشمع الذي كان يبدو نافرا بزاوية تقارب العشرين درجة، رمادي اللون في الظل واصفره عندما كانت تضربه الشمس المائلة المستطيلة خلال الباب. كانت الشمس تمتد انطلاقاً من اسكفة الباب المفتوح على الشارع. وكانت قائمتا الباب العموديتان مائلتين هما ايضا، كما لو ان لجدار كان يسقط قدام الاسكفة المتكونة من بلاطة

حجرية ومن الرصيف ثم من الحجارة الطويلة التي تؤطر الرصيف واخيرا من صفوف البلاطات الاولى للشارع الذي ادرت اليه ظهري.

وكان دون شك مستحيلاً، جراء السكر، ان يعي المرء وان يطلع على شيء اخر سوى هذه المرآة والاشياء التي كانت تنعكس عليها. وقد كان نظري يتشبث بها، إن صح التعبير، كما يتشبث السكير بعمود مصباح في الشارع، وكانه نقطة ثابتة في كون غامض لامرئي عديم اللون، كانت توافيني منه اصوات فقط هي دون شك اصوات المرأة (مديرة الفندق) واصوات شخصين او ثلاث مجهولين كانوا قائمين هناك. قال احدهم مرة: «الجبهة تدمرت». ولكني انا سمعت. الكلب تدمر ومات وقد تمكنت فعلا ان اراه ميتاً، عندما نزلت على امتداد الماء. كانت بطنه بيضاء وردية منتفخة وشعره ملتصقا بجسمه وقد بدأت فيه النتانة كما تبدأ في جرذ هالك.

توارت الشمس عن ارضية الغرفة فتراءت ثانية فتوارت ولكن لم تغب كلها: فني هذه المرة كنت استطيع ان ارى بفضل المرآة داخل اطار الباب الجزء السفلي من تنورة المرأة وربليتها ورجليها المحتذيتين خفاً. وكان كل شيء مائلاً وكأني بها سقطت من غرفة خلفية.

كان صوتها قادماً من الخارج من داخل احد المقاهي فوق كتفها. كانت تتكلم بدون شك، وقد ادارت نصف رأسها على المرآة أعني انه لوكانت المرآة عالية بما فيه الكفاية لكنت رايتها في وضع جانبي. كانت تستطيع بهذه الطريقة ان تتابع، في آن واحد، مارأته وان تسمع صوتها من داخل المقهى وقالت: «هاقد قدم الجنود».

اما انا فقد تمكنت من النهوض. فسمرت المائدة في مكانها بحركتي، وسمعت صوت انقلاب احدى الزجاجات المخروطية التي تدحرجت على المائدة، راسمة على مااعتقد دائرة حول قدمه، حتى انتهت الى حافة المائدة فانقلبت وسمعتها

تنكسر عندما وصلت خلف المرأة وعندما نظرت فوق كتفها رأيت السيارة الرمادية ذات البدن الغريب الشكل تختفي . فقد كانت اشبه بالنعش مزدانة بأهداب مقطعة ، رأيت فيها اربعة اشخاص من ظهرهم واربع خوذ دائرية . فقلت للتو : «ياالهي . انهم الـ . . . ياالهي . ولكنك» .

فأجابته المرأة . كما تعلم اني لا اعرف شيئاً عن الازياء .

اما انا فقلت لها : ياالهي .

فقالت : لقد سبق لي ان التقيت احدهم ، صباح هذا اليوم ، عندما كنت ذاهبة لأشتري الحليب . كان يتكلم الفرنسية ، ولا بد انه كان ضابطا لانه كان يفحص خارطة جالسا في دراجة نارية ذات مقعد جانبي وقد سألني عن الطريق ان كان صحيحا فقلت له نعم انت على الطريق الصحيح . ولم اشعر بغرابة اطواره الا بعد ان فارقني .

دخلت المقهى للمرة الثانية ، وهززت ايجليزيا الذي كان نائما ، وقد بسط مرفقين فوق المائدة ووجنته مرتكزة على ذراعه وقلت : بالله عليك استيقظ . فعلينا ان نغادر هذا المكان . هيا بنا .

كانت ما تزال المرأة عند عتبة الباب عندما قالت بعد ذلك بقليل : «ها قد جاء غيرهم .» حينئذ قمت على الفور وراءها ونظرت في اتجاه نظرها ، اي في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي اختفت منه السيارة ، بحيث ان سائقي الدراجتين الناريتين اللذين كانا يتقدمان، يبدوان وكأنهما يلاحقان السيارة ، ولكن اولئك كانوا يرتدون الخاكي .

وخلال لحظة ، داخلتني فكرة او مشهد جنود الجيشين يتلاحقون دائرين دورة حول مجموعات البيوت ، كما نشاهد في الاوبرا او في الافلام الفكاهية ، الناس وهم ينطلقون في ملاحقة هي من قبيل المحاكاة الساخرة الفظة ، فما العشيق او الزوج يشهر مسدسا ووراءهما خادمة الفندق والمرأة الزانية والخادم

وابن بائع المعجنات وافراد الشرطة ، ثم يعود العشيق الى الظهور ، وهو لا يرتدي سوى سرواله الداخلي مع مثبتات الجوارب ، يركض منتصب القامة ، ومرفقاه ملتصقان بجسمه ، وهو يرفع ركبته عاليا . اما الزوج فلم يزل يلوح بمسدسه والمرأة بسروالها المنتفخ وجواربها السوداء مع واقية المشد وهلم جرا ، يركضون تحت اشعة الشمس ركضاً دائرياً . لم ألحظ ان الرصيف كان يشكل درجة فكدت اسقط منبطحاً ورأسي في المقدمة . خطوت بضع خطوات عملاقة ، وجسمي يكاد يكون افقياً ، على حافة فقدان التوازن فوق ظلي . ثم امسكت بناصية مقوده .

كان وجه الشخص تحت الخوذة سميناً احمر غير حليق ، يتصبب عرقا وغضباً ، وكانت عيناه ايضاً يتطاير منهما الشرر والجنون ، وكان فمه يصرخ من فرط الغضب : «ما هذا ، ما هـ . انصرف من هنا ، دعني» . واذا بي ارى الشاحنة الصغيرة ، وهي سيارة نقل مواد مخفية قليلاً وبسرعة ، متسخة بالصبغ البني الاصفر والاخضر ، فقدت توازنها ، فمالت الى أحد جنبيها ، عند استدارتها ثم نهضت ، فلوحت بيدي استلفت النظر وانا منتصب في وسط الشارع .

وعرفت من شاراته انه من صنف الهندسة . ولا بد انه كان من كوادر الاحتياط ، يعمل في مديرية الطرق والجسور او المجاري . كانت هيأته هيأة موظف يحمل نظارات معدنية الاطار ، فتقدم نحوى فور نزوله من الحجرة هائجاً محموماً يصرخ ولا يعير اهتماماً لما كنت اقوله ، وكان يردد هو ايضا : «ماذا تريد ، ماذا تريد» . حاولت ان اشرح له ، ولكنه كان ما يزال مهتاجاً محموماً يلقي دون انقطاع الحاظا قصيرة من فوق كتفه في الاتجاه الذي كانوا يأتون منه ، وهو يحمل مسدسه بيده يصوبه اولاً نحوى ، ثم نسيه فحركه وهو يؤدي بعض الحركات ، كأن يمسكني من أحد ازرار سترتي او من قميصي الازرق المخصص للعمل الذي اعطانيه الشخص المذكور سابقا وهو يصيح : «ما هذا الهندام» . حاولت ان

اشرح له ثانية ولكنه لم يكن يصغي . وكان لا يني يلتفت ليجتلي منعطف الشارع مهتاجا . فأخرجت كتابي وشارتي اللذين كنت احتفظ بهما دائما ولكنه لم يكن يكف عن النظر من فوق كتفه . حينئذ قلت له : «من هناك ؟» وانا اشير الى المكان الذي اختفت فيه السيارة الرمادية الصغيرة . اما هو فرد علي قائلاً : «ماذا ؟» فأجبته : قد مرّ قبل قليل ، منذ خمس دقائق ، اربعة منهم داخل سيارة صغيرة . فصرخ هو بوجهي : واذا أمرت بأن ترمى بالرصاص ؟ حاولت ان استأنف الشرح له ، ولكنه تركني وتراجع بأتجاه الشاحنة الصغيرة ، وهو لا يكف عن ارسال الحاظ قصيرة سريعة بالاتجاه الذي كانوا يأتون منه . كنت انا ايضا انظر وانا انتظر ظهور السيارة الرمادية الصغيرة الشبيهة بالجنازة والتي يفترض انها انهت دورتها حول مجموعة البيوت . واذا به يدخل فيها مديراً ظهره فجلس واغلق الباب بواسطة الزجاجة النازلة . كان الان يحمل المسدس والمدفع بأتجاهي . وكان وجهه الهزيل الرصاصي يتصبب عرقاً ، فأنحنى وعاد فنظر الى الوراء نظرة المصاب بقصر النظر ، خلال نظارته فأنطلقت السيارة .

ركضت وراءهم : كانوا حوالي عشرة اشخاص تحت الغطاء ، جالسين على مقعدين كل مقعد على جهة . فعلقت اللوحة الخلفية وانا اركض ، محاولاً الصعود ، ولكنهم دفعوني . كانت تبدو عليهم امارات السكر هم ايضا . توصلت الى ادخال احد ساقي ، ولكن احدهم حاول ان يصفعني بأخمص بندقيته . ولكني كنت في درجة عالية من السكر فضربت صفيحة اخمص البندقية الحديدية بجانب يدي ، فتخليت عن كل شيءْ ، ولكن كان لي بعد متسع من الوقت لان ارى فردا آخر منهم مقلوب الرأس الى الخلف ، وهو يشرب بنهم من عنق قنينة ، ثم حملق فيّ وقد اغمض احدى عينيه فرمى بها اليّ ، ولكنهم كانوا قد ابتعدوا كثيرا ، فسقطت على مسافة متر واحد في الاقل من امامي وانكسرت . كانت ما تزال فيها كمية من الخمر . وتركت على بلاطات الشارع ،

بعد سقوطها ، بقعة داكنة اخطبوطية . وكانت شظايا الزجاج الاخضر القاتم تلمع وقد تبعثرت . ثم سمعت صوت رصاصة اولاً تكاد تكون رصاصة تمر . فقد كانوا على درجة شديدة من السكر ، يترنحون داخل تلك الشاحنة الصغيرة . اذن لم اعجب مما حصل . ثم توارت وتواروا .

كان قد وفق اخيراً في ان يستيقظ ويصحو ، وقد وقف امام باب المقهى قدام المرأة . وكان يحدجني بعينيه الدائرتين الكبيرتين منزعج المزاج . فصرخت في وجهه قائلاً : «يجب ان ننصرف من هنا . علينا ان نذهب لكي نسلم ملابسنا البالية» . اراد واحد من هؤلاء الافراد ان يأمر بأن يرموني بالرصاص . وقد اطلق علي رصاصة ببندقيته الحربية .

لكنه لم يبرح مكانه واستمر يحملق فيّ حملقة فيها الكثير من اللوم والشجب والاكفهرار . ثم رفع ذراعه في اتجاه المقهى وراءه وقال : «قال انه سيطبخ لنا هذا المساء بطة» .

فأجبته : «بطة ؟»

فقال : قال انه دعانا اليوم لتناول الطعام معه . وقد قال انه . . . ثم انصرفت عن سماعه مجتازاً الحقول صاعداً التل. وكانت الشمس هناك ساطعة بأصرار سطوعها عند عصر ايام الربيع الطويلة التي تتأخر فيها، فلا تنتهي ابداً وكأنها تسمرت في القبة الزرقاء، قبل ان تهم بالنزول، ولكنها لم تقرر النزول بعد، وكأن يشوع بن نون آخر قد اوقفها. قد مضى في الاقل يومان أو ثلاثة على نسيانه النوم منذ ان استيقظ وهو مورد الوجه، ويرن رنيناً هادئاً في البدء، والسماء ليلكية اللون، والفجر بلون الاوراق التويجية. ولكني لم ألاحظ الوقت الذي ظهر فيه. ولم يكن يرى في الطريق سوى ظل مستطيل شفاف لاحدى ذوات الاربع ، حيث لم يبق سوى تلك الاكداس الثابتة الجامدة كالخرق، فيما كان وجه واك المغفل المقلوب ينظر الي. فقد اصبح شاخصا امامي يملأ عيني وسط السماء

البيضاء.

واذ التفت ورائي وهو يتبعني: فقد عقد العزم، في النهاية، على ان يلحق بي. كان مايزال في اسفل التل، بعد ان اجتاز آخر البيوت بقليل صاعداً المرجة، وهو يترنح قليلاً. تعثر مرة وسقط فنهض. حينذاك توقفت وانتظرته حتى وصل قريبا مني. ولكنه عاد فأضطرب وهوى من على ساقيه وبقي هذه المرة فترة يحبو على أربع قوائم، وهو يتقيأ.

ثم نهض مجدداً، وهو يمسح فمه بكم قميصه، فجعل يمشي. ربما كان العميد قد انتحر في تلك الساعة نفسها؟ على انه كانت لديه سيارة وسائق وبنزين.

لم يكن عليه سوى ان يعتمر خوذته ويلبس قفازيه ويخرج وينزل درج مدخل هذه الدار القوراء.

يخيل الي انها كانت داراً قوراء: لانها المكان الاعتيادي الذي يسكن فيه كل من يشغل منصبا قياديا كمنصب آمر كتيبة برتبة عميد. اما القصور فكانت مخصصة تقليدياً للعمداء آمري الفرق فما اعلى.

اما بيوت المزارع فكانت من حصة العقداء. كانت داراً قوراء اذن، تزينها شجرة عرموط مزهرة فوق العشب، مع بوابة مصبوغة باللون الأبيض، فيها ممر دائري يكسوه الحصى بين أسيجة نبات الاوركوبة المبقع الأوراق. كما فيها ايضاً صالون بورجوازي تزينه باقة لابد من وجودها من اغصان البهشية او الريش المحنط المصبوغ باللون الفضي أو الاحمر الخريفي. وعلى زاوية المدخنة او البيانو المذنب، ازيحت المزهرية لافساح المجال للبطاقات المفروشة حيث انطلقت من هذه الدار مدة ثمانية ايام اوامر او توجيهات تشبه منفعتها منفعة الاوامر والتوجيهات التي يصدرها خلال الفترة نفسها احد الخبراء بالخطط الحربية من داخل احد المقاهي الاقليمية، وهو يعلق على البيان العسكري اليومي: لم يكن عليه اذن سوى ان ينزل درج المدخل، ويجلس جلسة هادئة في سيارته المجهزة

بقضيب حديدي وينطلق انطلاقة مستقيمة دون ان يتوقف حتى يصل الى المقر العام لفرقته او لفيلقه ، وان ينتظر هناك وقتاً طويلاً كافياً لكي يكلفوه شؤون قيادة جديدة كاقرانه . وبدلاً من هذا ، فعندما استقر ضباطه داخل السيارة الثانية ، اشتغلت المحركات وبقيت الدراجات البخارية للمراسلين الثلاثة او الأربعة تصرقع . وان كانت السيارة المجهزة بالقضيب الحديدي تنتظر مفتوحة الباب رمى نفسه برصاصة في دماغه فتناثر على الأرض . ووسط ضجيج المحركات والسيارات لم يتمكن احد من سماع ماجرى . ربما لم يكن يتعلق الأمر بمسألة شرف او وحي فجائي او عجز . وبوجيز الكلام ربما لم يكن فعلاً احمق – وكيف السبيل الى معرفة ذلك ؟ – ربما ليس محظوراً ان يتصور المرء ان اوامره لم تكن حمقاء وانما هي افضل واصح ما باستطاعة المرء اصداره لابل هي نابعة من الهام – ولكن مرة اخرى كيف السبيل الى معرفة ذلك ، اذ ان امرا واحداً لم يصل الى المرسل اليه قط ؟ : وهناك احتمال آخر : شيء فارغ أو حفرة لاقعر لها ، شيءٌ مطلق . او انه لم يعد لشيءٌ من معنى او علة وجود – والا لماذا انتزعت منه ثيابه فمكث على تلك الحال عارياً ، لا يحس بالبرد هادئاً هدوءاً رهيباً رصاصياً وقد اجلس باعتناء بالغ على كرسي : فقد كان يلمس ثيابه ويعاملها ونفسه تتقزز منها ويحترز أشد الاحتراز منها ، كما لو كانت بؤرة قذارة أو كتلة متفجرات . والى جانبه ، معطفه العسكري وسرواله ، وقدامه جزمته وعلى رأس كل هذا قبعته وتسريحته الجنونية الشبيهة بشعلة العاب نارية ، وكأني بهم قد البسوا شخصية خيالية لا وجود لها ثياباً واحذية وقبعة . كان ينظر اليهم نظرته الاعتيادية الجافة القارسة المرعبة ، فيما كان ما يزال يقشعر من الزمهرير ، ولكن دون ان يشعر به. فرجع القهقرى ليتفحص النتيجة وفي النهاية قلب الكرسي دون شك بظاهر كفه بما انها كانت في الصورة منبطحة على الأرض وملابسه ....»

فقاطعه بلوم بقوله : «الصورة ؟ اذن هناك حقاً صورة ! ولكنك قلت لي

ان ...» فقال جورج : «كلا ليست هناك اية صورة . من اين علمت ذلك ؟» كما لا يوجد ايضاً – في الأقل لم يرَ قط – اي رسم يمثل هذه المعركة وهذه الهزيمة وهذا الاندحار لان الامم المغلوبة لا ترغب دون شك ان تخلد ذكرى الخراب والدمار . لم يبق من تلك الحرب سوى صورة تزين القاعة الكبرى لدار البلدية تمثل المرحلة الظافره من الحملة : ولكن ذلك النصر لم يتحقق الا بعد مرور سنة . وقد كلف احد الرسامين الرسميين ، بعد حوالي مائة عام مهمة رسم تلك المعركة فوضع على رؤوس الجنود . المهلهلي الثياب وهم اشبه بممثلين سينمائيين شخصية خرافية هي امرأة ترتدي ثوباً ابيض يكشف عن أحد نهديها ، تعتمر قبعة فريجية كالقبعات التي كان يعتمرها الثوار الفرنسيون ، تشهر حساماً وهي فاغرة فاها ، قائمة وسط النور الأصفر الذي يشعشع في يوم مشمس في وسط وشاحات دخان عال ضارب الى الزرقة ، والمتاريس منقلبة ، وفي مقدمة اللوحة ترى وجهاً معبراً مغفلاً لميت مصور في المنظور ، مضطجع على ظهره ، وقد طوى احد ساقيه الى النصف وكتف ذراعيه ، ورأسه متدل الى الأسفل وهو يحدق بعينيه الجاحظتين في اللانهاية ، واساريره ابدية التعابير ، واجيال الناخبين المتعاقبة تنصت لخطابات اجيال السياسيين المتعاقبة الذين منحهم هذا النصر حق القاء الخطابات – كما منح السامعين حق الانصات لخطاباتهم فوق المنصة المفروشة بالوان العلم الفرنسي الثلاثة .

وقال جورج : «ولكنهم ، في اول الامر ،كانواقد بدأوا بالهزيمة . وكان الاسبان قد دحروهم في تلك المعركة التي كان فيها ريكساك قائداً . وعليه فقد اضطروا الى الانسحاب سالكين في ذلك ، كل الطرق النازلة من سلسلة جبال البرينيس ، اي في اعتقادي ، دروباً مجهولة . ولكن الامر واحد سواء كانت طرقاً او دروباً : او حفراً يحيط بها الموتى والخيول المقتولة والشاحنات المحروقة والمدافع المتروكة ...» كان يوم احد هذه المرة وقد كانا جالسين كلاهما هو

وبلوم ، وهما يحاولان ان يصطليا تحت حرارة الشمس السكسونية الشاحبة . فيما كانا مايزالان يرتديان معطفهما الخشن الذي يلبسه عادة الجنود البولونيون او التشيكيون ، وهما متوكئان على جدار سقيفتهما المصنوع من الالواح ، يسحبان نفساً ، كل بدوره ، من السيكارة نفسها التي كانا يتبادلانها ، حابسين ، لأطول مدة ممكنة ، الدخان في اعماق الرئة ثم يقذفان به قذفاً بطيئاً عن طريق مناخيرهما لكي يتشبعا منه ، وهما يشعران بدون مبالاة بالهوام تدب فوق جسميهما ، عشرات من القمل الناعم الضارب الى اللون الرمادي كانا قد اكتشفاها يوماً مذعورين وقد طاردا القملة الأولى مطاردة يائسة ، ثم عالجا القملات الاخرى ولكنهما في نهاية الامر رفضا قتلها فتركاها تركض فوق جسميهما ونفسهما تتقزز منها ابداً ، عاجزين عن قتلها ابدا ، مع شعور صامد بالتفسخ . فيما كانت صيحات الوهرانيين توافيهم من النافذة المفتوحة وهو يتخاصمون .

عبّ جورج في المرة الاخيرة كل ما كان يستطيع من نصف السنتيمتر الاخير من عقب السيكارة الذي كاد يحرق اطراف اصابعه ، ثم رماه او بالاحرى قذفه ، من بين شفتيه ، بضربة من سبابته اذ لم يبق منه بعد ذلك ما يمكن امساكه ثم نهض منشطاً ساقيه ، وادار ظهره ازاء الشمس ، فوضع ذراعيه المطويتين على مسند النافذة ، وذقنه على يديه ، وبقي على هذه الحال يجيل طرفه حول المائدة الملطخة بالدهن ، وتذاكرهما الملطخة بالدهن بين أيديهما ، ووجهه الذي لا يؤثر فيه شيءْ ، وجه اللاعب المتوتر الذي لا يستسلم ، الذي كان فريسة للولع البارد الذي كان ينخر في نفسيهما ، الولع الصبور النابه الذي يعزلها عما حولها ، وكأني به يحصرهما داخل قفص ، لكي يظلا في مأمن من العالم القاسي الضاري الذي يطوقهما كجرس مثلما يكون السبّاح في مأمن من ماء المطر ، وكأني بهما محصوران ايضاً كل واحد منهما داخل هالة من المخاطرة والعنف ، هالة كانا يفرزانها كالحبر الذي يفرزه الحبار : كان هذا القفص وهذا الجرس وهذه الهالة

متكونة من مدير اللعب ومستأجر الملعب المشبوه ، ان صح القول ، حيث كانت الثروات تربح وتخسر وتنتقل من يد الى يد ، بين ساعة واخرى ، اما على شكل ماركات (وبالنسبة للذين نفذت ماركاتهم كانت على شكل سكاير ، وبالنسبة للذين نفذت سكايرهم كانت على شكل تعيينهم اليومي من الخبز وبالنسبة للذين فقدوا تعيينهم اليومي من الخبز ، فقد كانت تعيينهم لليوم التالي او لليوم الذي يليه احياناً – وكان هناك لاعب ايطالي اسمه بونوا قد لعب فخسر تعيينه لاربعة أيام . وفي الغد كان يأتي كل يوم مساء ليسلم حرفياً للصراف كسرة خبزه السوداء ودهنته الفحمية دون ان يتبادلا بنت شفة واحدة ، وانما الذي كان يبدر منهما كان مجرد رضى او حركة رأس لا تكاد من الذي يتسلم الخبز ويضيفه الى تعيينه الخاص ، حتى دون ان يظهر وكأنه يرى الاخر . وفي اليوم الثالث اغمى على الأيطالي . وعندما استطاع مجدداً ان يرى ويفهم ما جرى للخاسر ، اخذ كسرة الخبز والدهنة اللتين استلمها منه ، ودون ان ينظر اليه ، كالعادة ، قدمها له قائلاً : «هل تريده ؟ » فاجابه الايطالي «كلا» وبدون ان ينظر ايضاً ، كالعادة ، اودع الخبزة والدهنة مزودته . وفي الغد عاد الخاسر يحملها ، للمرة الرابعة والاخيرة ، وخلال النهار وقت العمل كان قد اغمى عليه مرة اخرى . فاخذ الغالب تعيين الخبز منه دون ان ينظر اليه ، كالعادة وكالمرات السابقة ووضعه في مزودته فقال احد الذين كانوا يراقبون المشهد متلفظاً بكلام يشبه «ياله من حقير ! » ولكنه (اي الصراف) لم يتحرك ، وانما استمر في الاكل بعين باردة ميتة يرسل منها اللحظ حيناً الى وجه الشخص الذي تكلم واساريره لا تعبر عن شئ اطلاقاً ، بارداً تماماً ، ثم ادار وجهه وهو يمضغ أكله دون انقطاع فيما كان شخصان او ثلاثة يساعدون الايطالي على الذهاب الى سريره وهو يترنح . اذن مدير اللعب او مستأجر الملعب او الصراف كان مالطياً او من فالنسياً او صقلياً مزيجاً اي واحداً من المنتجات النغلة التركيبية الصادرة من الموانئ او من الاحياء

الوضيعة ، ومن جزر هذا البحر هذا اليم ، هذا القالب او المسبك الاصلي لكل تجارة ولكل فكرة ولكل حيلة . كان رأسه يشبه رأس الكواسر وعيناه الصغيرتان اشبه بعيون الزواحف الميتة ، هزيل الوجه يابسه واسوده عديم التعابير ، لا يمكنك ان تحزر عمره . وكان بالطبع يرتدي ما يرتديه الاخرون ، بدلة عسكرية رثة وقد تساءل القوم عن مأربه من المجئ الى ذلك المكان ، اعني في غمار هذه الحرب ، اعني التحاقه بالجيش ، اعني لماذا جندوا وساقوا شخصاً ، لعله من اصحاب السوابق ، ذا وجه كهذا لا يمكن استخدامه بكل وضوح في اي عمل سوى ان يرمي عندما تسنح له اول فرصة الضابط او نائب الضابط او أمين صندوق الكتيبة او الفوج برصاصة في ظهره ويفر هارباً بالصندوق وبما فيه – اللهم الا اذا كان قد تطبع ودعي لخدمة العلم وارتدى البدلة العسكرية وزود ليس ببندقية بها فعلاً لكانت حماقة كبرى – ولكن بدفتر خدمة عسكرية ، وذلك من باب استكمال كل الاستعدادات – بما ان المرء يحتاج الى كل شئ في سبيل تشكيل جيش . كان الدور الموكل اليه مستقبلاً دور مستأجر بيت مشبوه في سقفيه سجناء : وقبالته كان هناك يهودي هادئ بدين لم يكن كثير الشحم وانما بدينا فقط ويبدو جليلاً ، وربما كان السجين الوحيد في المعسكر كله ولكن كيف كان وحيداً ؟ لانه خلال الشهرين الأولين بعد وقوعه سجينا كأصحابه لم يستلم اية رزمة لذا فأنه لم يفقد اونساً واحداً من شحمه . كان يمارس مهنة تشبه مهنة القواد في الجزائر العاصمة ، وقد كانت الملابس العسكرية البسيطة التي يرتديها والمتكونة من معطف اصفر بسيط وقبعة شكلها الأصلي تشبه حلة وتاجا مثلث الطوابق يعتمره البابا ، وبهذه الهيئة كان متربع على عرش ملكي على غرار الملوك الكتابية جسوراً تحيط به حاشية من الصعاليك الخليعين الذي فقدوا ماء وجههم حقيقة ومجازاً ، كانوا يتبارون في اشعال سكائره فيما كان يبدو وكأنه لا يراهم ولو انه كان باستطاعته ان يأخذ قصعته بيده ولما يبدأ زملاؤه في تناولها كان

جورج قد رآه – وان يناولها لاشدهم جوعاً وان يقول بكل بساطة : «لست جائعاً . هاك !» ويقول مقاطعاً احتجاجات فرد آخر من الحاشية : «كل !» بالنبرة التي يستعملها من يصدر الأوامر ، لا اكثر ولا اقل . فقد كان يستل سيكارة ويشعلها او انه كان يترك احدى البرقات البشرية تشعلها له – ويبقى هناك على هذه الشاكلة هادئاً رزيناً ، ثقيلاً .

ربما فقط شاحباً بعض الشيء يسحب انفاس دخان بطيئة بينما يحتسي الاخرون من حوله بشهية محمومة الشوربة المملة العفنة الحامضة التي لم يكن يبدو وكأنه قد حرم نفسه وهو الذي لم يضعف قط كما لم يره احد قط ايضاً وهو يمارس ابسط الاعمال وانما ادنى شبه للعمل فقد كان يسحب الى موقع العمل ، المغرفة التي سلموها له بيده وعندما كان يصل الموقع كان ينصبها قدامه ويقضي الساعات الثماني متعكزاً بها وقد كتّف يديه وهو يدخن لانه مثلما كان يبدو قادراً بفضل ما تبقى له من الامتيازات الملكية على الاستغناء عن الطعام ، كان له دائماً ايضاً بفضل هذه الامتيازات نفسها ما يدخنه وان ينظر بعين بعيدة عن الاحتقار الى السجناء وهم يموجون حوله ، كل هذا يجري دون ان يلفت اليه انظار اي فرد من أفراد الدورية او من آمرية ، وفي يوم كيبور ، هو الذي لم يقصد للصلاة يوما ولا عرف طقوساً ومعرفته بالكتاب قليلة هو الذي لم يكن يعرف حتى القراءة كان جورج على علم بهذا لانه – اما لانه لم يكن يريد ان يكشف ضعفه صغار اللصوص الذين يحيطون به او لانه فضّل اللجوء في هذا الأمر الى الغرباء – كان يطلب من بلوم او من جورج أن يكتبا الرسائل التي يمليها ويبعث بها الى والدته (لا اقصد نساءه ولكن امه) وان يقرأ له الاجابات اذن في يوم كيبور ، تمارض لكي يعفى من العمل ، ولم يبق طول النهار عاطلا فحسب يقتله الضجر بدون اكل ودون ان يمس بيده عود ثقاب تجرأ واجبر أقرانه من بني الشعب الذي كان يعيش بين ظهرانيه سابقاً – الشعب الذي ما يزال ملكاً عليه الآن ، على

مملكاته : فالشخصان اللذان كان احدهما حقلية والاخر ملكاً جاء مباشرة من الكتاب المقدس وقد جلسا الواحد مقابل الاخر وحولها او في داخلها اعني داخل ما كان ينبعث منهما من داخل ذلك القفص الخفي الذي كانا يشيدانه او الذي كان يتشيد من تلقائه، كلما كانا يجلسان ويستخرجان التذاكر، ذلك القفص الذي كتبت يد سحرية على جدرانه عبارة «خاص»، كما يكتب على باب القاعات الخاصة في الكازينوات وفي مراكز التسلية، وحولها الصف الاعتيادي الذي كانت تكونه رؤوس اللاعبين والدراج والحمام والقوادون المتدربون وموظفو المتاجر او صناع الحلاقين المتحررون من القيود الاجتماعية، وقد جاؤا هنا، معرضين انفسهم للسلب، ووجوههم محمومة لاتؤثر فيها الاحداث، لاتكاد شفاههم تتحرك ولاتكاد ايديهم ايضاً تتحرك، لكي تمرر كل تذكرة تمريراً كافياً لان تظهر الزاوية القائمة، وعند نهاية كل حلقة كان ينبعث زفيرصامت وشكوى وذروة لامن اللاعبين الذين كانت وجوههم، ابد الدهر، دون تعابير، وانما من الجمهور. وفي احدى اللحظات التي تنعدم خلالها الحركة، فتش جورج في جيبه، مستخرجاً منه ثروته الفقيرة وكنزه التافه المتكون من مزق الورق الصغيرة، وطفق يعدها بسرعة (وكأنها أجر تقاضاه فرد من الغالبين كان يقتل في مكان ماقريب اطفالاً صغاراً بكل راحة ضمير وكأنه مدفوع، لااقول هذا من قبيل السخرية ولا من باب الفكاهة وانما بقوة مبدأ او بقوة قانون او بقوة اخلاق اكتسبها او بالاحرى تعلمها، او بالاحرى تأصلت فيه تأصلاً لم يعالجه فكرياً قط، اخلاق لايمكن التجاوز عليها، اخلاق خلعت عليها العادة طابعاً قدسيا (رغم انها كانت قبل مائة عام مجهولة تماما) ومفادها ان لكل عمل أجرا ولوكان زهيدا– اذن أجر كان يتصور نفسه ملزماً بان يدفعه لهم، اثر تكليفهم ان يتعبوا تعباً لاجدوى من ورائه، تكليفاً املاه عليه تعلقه الباطل الرمزي بمبدأ معين) وبعد ان احصاها انتزع منها ثلثيها تقريباً مشيراً الى احد المشاهدين الذي نهض واخذ مزق الورق وتقدم

نحو ذاك الذي اصله من صقليا، فحدثه وعاد الى النافذة وناول سيكارتين اشعلهما له جورج، ثم عاد فانزلق بظهره على الجدار المصنوع من الواح حتى لامس ردفاه عقبيه، فقدم احدى السيكارتين لبلوم.

فقال له بلوم: «ألست مجنونا انت؟» فرد عليه جورج «امسكت ويحك! وعلى اية حال، اليوم هو الاحد، أليس كذلك؟ »فجلس حينئذ تماماً. واخذ يجر نفساً عميقاً جداً من السيكارة الى ان احس بان الدخان تغلغل الى اسفل أسافل رئتيه، ثم عاد فقذف بالدخان قذفاً بطيئاً جداً وقال: « اذن كان هنا على هذه الطريق ينسحب انسحاب الاتقياء، بقبعته هذه وقرنيه الشبيهين بقرني القره قوز المريش، وقد القى ذيل معطفه المطوي على الطريقة الرومانية على كتفه– وجزمته ملطخة بالوحل– والاصح مكسوة بالغبار. كان غارقاً في افكاره، او بالاحرى في فراغه الفكري، في عجزه عن التفكير وفي عجزه عن ان يجمع او يلم شمل فكرتين متماسكتين، ويضعهما وجهاً لوجه امام ماكان يعتقد انه الانهيار بدون شك، انهيار احلامه، ربما، بدون ان يشك، ان العكس كان صحيحاً– ولكنه ولحسن حظه، لم يعش عمراً طويلاً لكي يدرك ذلك فعلاً–»فقال له بلوم: «ولكنك تنطق وكأنك كتاب؟......»

لكن جورج رفع رأسه فنظر اليه هنيهه حيوان اخرس. واخيراً هز كتفيه وقال: هذا صحيح. اعذرني . انها عادة أو عاهة وراثية. كان والدي يصر على ان التحق بدار المعلمين. كان يصر على ان استفيد، بالاقل ولو قليلاً، من هذه الثقافة العالمية التي خلفتها لنا اجيال واجيال من الفكر. كان يريد، من كل قلبه، ان يتمتع ابنه بامتيازات الحضارة الغربية الفريدة. ونظراً لكونه ابن فلاح امي، فأنه فخور جداً بانه استطاع ان يتعلم القراءة وانه لعلى اقتناع تام بألا مشكلة، ولاسيما مشكلة سعادة البشرية، إلا ويمكن حلها بمطالعة خبرة المؤلفين.

حتى انه توصل في احد الايام الى ان يحجز لنفسه (واني أوكد لك انك

لوكنت تعرف والدتي لادركت المأثرة العظيمة والارادة القوية، ومن ثم درجة التأثر والاندهاش المتمثلة في قدراتها الشخصية) خمسة اسطر على المرائي التافهة التي تسطرها في رسائلها التي هي، من حسن الحظ، قليلة السطور والتي سمح لنا بان نتسلمها لكي نضيف الى معزوفة الحرب مرائي والدتي التي تكاشفني عن يأسها، في اعقاب خبر قصف لايبزيغ ومكتبتها التي، على مايبدو، هي خسارة لاتعوض.... قاطع نفسه فسكت وكان باستطاعته ان يرى - الرسالة، دون ان يخرجها من محفظته الرسالة الوحيدة التي احتفظ بها من رسائل سابين التي كان والده يكتفي عادة بتدوين العبارة الحتمية «نعانقك أحرّ عناق» وتحتها الكلمة المخربشة التي كان جورج هو الوحيد الذي يستجلي فيها لفظة «بابا»- ثم عاد فرأى اذن كتابة والدته المقرمطة المتشابكة المتزاحمة، جراء ضيق المكان والرغبة في قول اكثر مايمكن في اضيق مكان ممكن كتابة الجامعي المرهفة واسلوب البرقيات الاخرق: «امك تعطيك اخبارنا. هي سارة كما ترى... بقدر مايمكن ان يكون شيئ ساراً اليوم، كما اعلم انك تفكر بدون انقطاع بنفسك هناك، وفي هذه الدنيا حيث يتكالب الانسان لكي يدمر نفسه بنفسه، ليس في شخص اولاده، فحسب وانما ايضا في خير مااستطاع ان يصنعه ويخلفه ويسلمه للاجيال اللاحقة: سيقول التاريخ، فيما بعد، ان البشرية فقدت في ذلك اليوم خلال بضع دقائق ميراث قرون عديدة، في اعقاب قصف مكتبة كانت اثمن مكتبات العالم، كل هذا مدعاة لحزن لانهاية له، والدك العجوز» كان يستطيع ان يراه جالساً صفيق الجلد، ضخماً، لاشكل له تقريبا، تحت ظل الكشَك، حيث كانا قد وقفا في تلك الامسية الاخيرة قبل رحيله، فيما كانت تصم اذانهما فرقعة الجرار الذي كان يأتي تاره عاصفاً وطوراً مخنوقاً. كان المزارع قد حصد بواسطته المرجة الكبيرة، بينما كان العطر النافذ الاخضر الذي يفوح من العشب المحصود يطفو على الشفق الفاتر، ويحيط بهما، فضلاً عن رحيق الصيف القوي، بينما

كان شبح المزارع الجاثم فوق الجرار بقبعته التبنية المخدشة الحواف كأنها هالة سوداء معكوسة مرتين بواسطة النظارات تجتاز ببطء سطح العدسات المحدبة اللامعة امام والده الواجم الحزين . وفيما كانا متقابلين وجها لوجه ، لم يجدا شيئاً يقوله الواحد للاخر . وكأن سوراً من عدم التفاهم الخامل ، سورا من العجز عن تبادل الاتصال ، كان قد انتصب بينهما ، سوراً كان والده قد حاول ان يزيله مرة اخرى – سمعه جورج يواصل الحديث اذ لاشك في انه لم يتوقف وصوته يطرق اذنيه وهو يقول : «... وقد اجبت على الرسالة بقولي انه ان كانت محتويات آلاف الكتب التي كانت تزخر بها تلك المكتبة التي لاتعوض عاجزة عن منع امور كالقصف الذي انزل بها الدمار فاني لافهم جيداً ماحجم الخسارة التي كان يمثلها للبشرية فقدان الوف الكتب المشحونة بالمرأة والمنزوعة من كل فائدة تحت وابل القنابل الفوسفورية . كان الاجدى تدوين قائمة تفصيلية بالقيم الاكيدة والمواد التي هي من اولى الضرورات التي نحن بحاجة اليها هنا اكثر من كل ما كانت تحتويه مكتبة لايبزيغ الشهيرة، واقصد بها الاحذية والملابس الداخلية والاصواف والصابون والسكائر والسجق والشكولاته والسكر والمعلبات وارغفة الخبز.....»

فرد عليه بلوم قائلاً: «حسن، جيد، حسن، جيد. عرفنا. جيداً. تباً لمكتبة لايبزيغ جيد. انا اتفق معك. ولكني اعود مرة اخرى الى صاحبك، صاحب الصورة الشخصية الذي يمثل مجد عائلتك وخزيها. انه لم يكن اول عميد أو اول بشر أو مفوض او ماشئت قام بـ...».

وقال جورج: «اجل، بدون شك. اعرف ذلك جيداً. ربما لم تكن المسألة مسألة معركة او مسألة هزيمة بحتة: لم تكن مجرد ماشاهده هناك من ذعر وجبن، حيث الهاربون كانوا يلقون بسلاحهم ارضاً، داعين كالعادة دائماً الى الخيانة، لاعنين رؤوسائهم، تبريراً لخوفهم، وبعد ذلك كان صوت الاطلاقات يتباعد، ثم ينفرد بدون ان تعقبه رغبة في الاستمرار او اقتناع، حتى اوشكت قوى القتال

ان تنهك ثم ينهار من تلقاء ذاته وهن نهاية النهار. لقد رأينا هذا وعرفناه: هذا التباطؤ وهذا الجمود التدريجي. مثل عجلة يا نصيب المعارض إذ يضمحل صرير اللسان المعدني فوق تاج المصادم البراق، ان صح التعبير، واذ كانت خرفشة الجرس الخشبي المستمرة الواحدة تنفصل وتفترق فتصبح نادرة في الساعات الاخيرة التي بدا القتال فيها، وكأنه لايتواصل الابفضل السرعة المكتسبة، فتارة يتثاقل وطوراً يستأنف. ثم ينطفئ لكي يعود فيضطرم على شكل وثبات مستحيلة غير متماسكة، ثم يتراص مجدداً، في وقت كنت تسمع فيه، وقد اخذت تشدو مدركة انها لم تنقطع قط عن الغناء مثلما لم تتوقف الريح عن تحريك افنان الشجر، والغيوم عن التحليق في السماء، اذن كانت هناك بعض الاطلاقات النارية ولكنها الآن أصبحت غريبة..

غير معقولة تصدر وسط سلام المساء، بعض الاشتباكات المتأخرة بين مؤخرات الجيوش والجحافل الملاحقة، لم تكن،بدون شك، القوات الاسبانية بحد ذاتها اعني القوات النظامية، الملكية اعني ان الاحتمال يغلب على كونها مشكلة ليس من الاسبان، وانما من الجنود الأيرلنديين والسويسريين المرتزقة بأمر امير طفل او عميد اكل الدهر عليه وشرب، وكأني بهامته رأس مومياء فرعونية، اشبه ما تكون يداه برق الغزال الذي فارقته الحياة منذ دهر، ترصعها بقع النخالة، وكلاهما (الطفل والمومياء العجوز) ينوء ان تحت ثقل الذهب والاوسمة والانواط الماسية، وكأنهما محفوظان داخل صناديق زجاجية او كتماثيل العذراء مريم، بحللهم النقية الناصعة البياض وباشرطتهم الواسعة السمائية اللون المتصالبة، وايديهم التي تزينها الخواتم، كنت ترى الامير الطفل ممتطياً فرسه الاغبر على ذروة تل يمتع نفسه في البحث، خلال نظارة يجهل حتى طريقة حملها، عن قطعات العدو الاخيرة، وهي تنسحب، فيما كانت المومياء الهرمة التي استحالت الى رق غزال مسترخية في اريكة سيارة برلينية، وقد اعتوره الان

قلق من جراء مكان مرابطة القوات ومن المزرعة والغذاء والمنام – وربما من جراء الصبية ايضاً – التي سيوفرها له ضباطه – ولكن هذه الاطلاقات النارية المتقطعة كانت تأتي من الحلفاء المتسترين المتكتمين الذين يذهبون وراء كل جيش منتصر من تلقاء انفسهم . فبعضهم يظهر بعد مرور الجيش ، وبعضهم قبل قدومه ، وهم دون شك ، من الفلاحين او من قطاع الطرق او من لصوص المنطقة او ما حولها المعروفين ، سلاحهم الطبنجات القديمة او المسدسات المصلحة ، يحملون في نحورهم سلاسل من التمائم والمداليات ، فيما كان ذلك الرجل الظريف النبيل برأسه ومنقاره وبراثنه التي تعطي ملامح أصل ايطالي من منطقة صقليا اوكالابريا يمسك بمنضدة البوكر هناك من الخلف ، وقد تنكر بزي الجندي ومارس تجارة السكائر بواقع سيكارتين عن قيمة ما يقارب اجر عملنا لاربعة أيام .

بينما كان الفلاحون وقطاع الطرق يعانقون صليباً قديماً وسخاً اخرجوه من تحت قميصهم ، قبل ان يفرغوا وراء شجرة فلين أو دغل وعن قرب ، رصاص طبنجاتهم العتيقة في جسم احد الحرس او احد الجنود المتأخرين ، يدفعهم حقدهم المقدس المعروف وحنقهم الطاهر القاتل ، وهم يتفوهون مع لحظة الاطلاق بصوت عال ، بكلام مثل : «هاك ايها النذل ، كُلْ هذا !» اما ريكساك الذي كان يبدو اصم واعمى امام العيارات النارية ولشدو الطيور وللشمس الغاربة ، فقد كان متجهماً ، غائباً وقد ارخى لحصانه العنان يتوجه كيفما شاء ، فانتهى به الامر الى ان يدخل في حالة اخرى او ان يصل الى درجة اخرى من المعرفة او من الاحساس. او من عدم الاحساس وفي أحد الاوقات خرج شخص – جندي مكشوف الرأس لا يحمل شارة ولا سلاحاً – من مكان ما ، من زاوية احدى الدور او من وراء سياج او من حفرة كان كامناً فيها فجعل يركض بالقرب منه : «خذني معك سيدي النقيب خذني معك ، دعني آت معكم !..» اما ريكساك فلم يجهد نفسه في النظر اليه ، او ربما رآه ولكن مثلما

ينظرالمرء الى حصاة او الى شيءٌ ، ثم أدار للتو رأسه وقال بصوت كانت نبرته أعلى قليلاً من نبرة الحديث : «اليك عني» . لكن الجندي واصل الركض على ارتفاع جزمة ريكساك – او الاصح انه واصل العدو السريع – وبدون شك لم يكن يحتاج الى تلك السرعة – وانما كان يكفيه ان يطيل خطاه لكي يمشي بسرعة تساوي سرعة الحصان ، ولكن فكرة الركض كانت ربما تلبي تلقائياً عنده رغبته في الهروب والفرار ، فقد كان يستغيث لاهثاً بقوله : «خذني فقد فقدت فوجي ، خذني معك يانقيبي فلم يبق لي فوج ، خذني ، دعني اذهب معكم ....» اما ريكساك فلم يرد عليه هذه المرة ولم يسمعه وحتى انه دون شك لم يره ، فقد كان مديراً له ظهره يطوّقه صمته المتعجرف ، حيث اصبح الان يستحضر كل اجداده البارونات الميتين ويكلمهم كلام الند للند وكل آل ريكساك الذين ...» فقال بلوم : «ولكن الا تقول لي ماذا تـ ...»

فرد عليه جورج : «كلا ، اسمع»: حينئذ كف الشخص عن الركض وجاء صوبنا ، او بالاحرى توقف عن الركض بكل بساطة ، مثل جرو وراء صاحبه . كان رأسه مرفوعاً تقريباً على ارتفاع ركبة دي ريكساك ، فانتصب وسط الطريق وانتظرنا ، حتى صرنا الى ارتفاع قامته فقال : «دعوني أركب الحصان . فلم يجب ايجليزيا الذي كان يمسك بزمام الجنيب من شظيته الى طقمه المقطوع ، تماماً كما فعل دي ريكساك قبل قليل ولم يعد يتظاهر بأنه يراه فقلت له حينئذ : «انت تعرف جيداً الاسرج له ، واذا سرنا خبباً فلن تستطيع ان تقاوم » ، لكنه اصبح الان يركض الى جانبنا او بالاحرى يعدو ، كما فعل من قبل ، وقد تقدم تقدماً متقطعاً ، وكأنه يقفز ورأسه يتأرجح ، كأنه على وشك ان يسقط عند كل خطوة جديدة ، وكان يرنو اليّ وهو يناشدني دون انقطاع بنبرة رتيبة حزينة واحدة قائلاً : «دعوني اركب ، دعوني اركب . بالله عليكم دعوني» فقلت له انا اخيراً : «هيا اركب ان شئت ؟ » ، وفي الحقيقة اذ كان مستعداً للانهيار ، فأني

لم اتصور قط بأنه قادر على الركوب ولكني لم اكد أنطق بكلمة حتى اصبح هناك متأهبا للامتطاء وتشبث بطقم الفرس تشبثاً جنونياً ضاغطاً على كشحيه بكل ما أوتي من قوة واخيرا بلغ مرامه ، عندما اعتلى الفرس وانتصب ، حينئذ التفت دي ريكساك وكأنه كان يملك عينين في قفاه ، هو الذي لم يعد يشاهد على ما يبدو ماذا كان يجري امامه فصرخ به قائلاً : «ما الذي جاء بك هاهنا ؟ سبق ان قلت لك ان انصرف ودعنا بسلام ؟ من أذن لك ان تركب هذا الحصان وان تتبعني ؟» فاستأنف الجندي نحيبه وهو يردد طلبه ويقول : «دعوني اذهب معكم فقد فقدت فوجي وانهم لسوف يقبضون عليّ . دعوني ...» فرد عليه دي ريكساك : «ترجل فوراً وانصرف ودعنا في سلام !» فاذا بي لم اعد ارى الجندي على الحصان وبأسرع مما امتطاه هبط الأرض . واذ التفت اليه رأيته منتصباً على قارعة الطريق بائساً وحيداً لا عول له ولا حول ، ينظر الينا ونحن نبتعد وبعد حين قال ايجليزيا : «لقد كان جاسوساً ؟» فقلت له : «من ؟ » فرد عليّ ايجليزيا : «ذلك الشخص . ألم تلاحظ ؟ لقد كان مجعد الشعر أي المانياً» فقلت له : «المانياً ؟ ألست مجنوناً . ولماذا يكون ألمانياً؟».

اما هو فهز كتفيه بدون ان يرد عليّ وكأني مغفل أمامه، بينما كانت طقطقة حوافر الدواب مستمرة، وظهر دي ريكساك العمودي على سرجه لايكاد يتمايل، وتلك الشمس وتلك الطبقة من التعب والكرى والعرق والغبار التي كانت ملتصقة بوجهي، وكأنها قناع يعزلني عما يحيط بي، وبعد وقت يسير بلغني صوت ايجليزيا مخترقاً، تلك الطبقة، ذلك الغشاء، من مكان بعيد جداً عبر ضياء الشمس المتناثر، وعبر الهواء وهو يقول: «لقد كان المانياً كما قلت لك. كان يتقن الفرنسية اتقاناً بالغاً. ثم انك الم تلاحظ رأسه؟ وشعره؟ كم كان اصهب؟» فقلت له: «اصهب؟» فرد عليّ ايجليزيا: «ويحك. انت متوحش تماماً او ماذا جرى لك؟ حتى انك لم تعد تستطيع ان....»

فقال: «وفي تلك اللحظة بالذات انطلقت صلية الرشاشة كان واقفاً هناك امامها فيما كانت مستمرة في تفحصها اياه، بشيءٌ من الفضول المنزعج الصبور المؤدب، وكان تفحصها احياناً خالياً من الرعب، ولكنه مشوب بالتربص والحذر الخفي الوقح، كالشيءْ الذي يرهف نظر القطط، لامبالياً خاطفاً حاداً صاعقاً ينعكس على عينيها، ثم انطفأ فضولها وكان وجهها كما رآه قد بقي دون تغيير وكأنه قناع ثابت الشكل، صافياً عظيماً فارغاً مثل التماثيل. ربما ليست شيئا آخر سوى تمثال، ربما لايمكن طلب شيءْ منها سوى مايطلب من قطعة رخام او حجر او برونز: مجرد ان تترك الناس ينظرون اليها ويلمسونها.» لكنه لم يتحرك، فيما كان يفكر في نفسه قائلاً: «ولكنها كانت تبكي. ثم خيل اليه انه رآهما كليهما أي هي وايجليزيا واقفين وسط وطء اقدام الجمع الغفير وصرير الرمل الذي تبقعه او بالاحرى تلطخه التذاكر الخاسرة، بينما كانت يدا ايجليزيا الصغيرتان كيدي القرد، تخزقان قصاصات الورق التي باتت لاتغني فتيلاً، كانا كلاهما مستقيمين ثابتين الواحد إزاء الاخر: هو بوجهه الشبيه بلون الجلد، مشدوهاً رهيباً حزيناً، وسرواله الابيض وجزمته الشبيهة بجزمة لعب الاطفال، مع مثلث الابريسم اللماع الوردي المرسوم على سترته، ذلك المثلث الذي كان يبرز بين ظواهر قميصه المهلهل. وهي التي لم تعد الان من قبيل الاختلاق (كما كان يقول بلوم) بمعنى انها ليست امرأة من نسج الخيال تمخضت عنها شهور طويلة من الحرب والاسر والتعفف القسري. وكانت قد ابتدأت، انطلاقاً من رؤية قصيرة ووحيدة في يوم طراد الجياد ومن حكايات سابين او من نتف قليلة من الجمل (لان هذه النتف نفسها كانت تمثل نتفاً من الحقيقة) ومن المناجاة او بالاحرى التذمرات الاحادية المقاطع تقريباً انتزعت من ايجليزيا انتزاعاً بقوة الصبر والحيلة او استقيت، وهذا الاحتمال اضعف، من رسم لاوجود له اطلاقاً، من صورة شخصية رسمت قبل مائة وخمسين عاماً... ولكن على حقيقة ماكان يراها آنئذ، واقفة امامه حقا

وحقيقة بما إنه كان يستطيع ولسوف يستطيع ان يلمسها، وقد فكر فعلاً في نفسه ان يلمسها قائلاً: «اني لسوف افعل ذلك. انها سوف تصفعني وتصرفني موصدة الباب بوجهي. ولكني سوف افعل ذلك...» اما هي فقد كانت ماتزال تتفرس فيه وكأنها تنظر اليه خلال لوحة زجاجية وكأنها كانت قائمة في الجانب الاخر من حائط شفاف متين يستحيل اختراقه، تماما كالزجاج رغم شفافيته، كانت اذن قائمة في الجانب الاخر من اللوح الزجاجي، في مأمن من كل تطاول فيما كانت تطلق العنان لشفتيها (لشفتيها فقط وليس لنفسها- اعني ذلك الشيء الحاد او الاحرى الحريف الرهيب الصاعق او ربما ان هذا الشيء مجهول عندها- الذي كان بسرعة هائلة مخترقاً النظر الصافي اللامبالي كالبرق النافذ) لكي تقيم كحاجز اضافي بقية الكلمات والعبارات والصيغ اللامبالية وهي تقول: «اذن كنت معه في فوج واحد واقصد انكما كنتما في سرية واحدة أنت و..» لم تكد تنهي حديثها (وكان الانزعاج الحشمة او مجرد الكسل حال دون ذلك) الاسم (الثاني) الذي لم يقرر هذا نفسه كتابته في رسالته واكتفى بذكر رقم الفوج والسرية، وكأنه هو ايضاً شعر بهذا الانزعاج نفسه وهذا العجز نفسه، وفي احد الاوقات سمعها تضحك قائلة: «ولكني اظن اننا اقرباء وقد تكون قرابتنا بعيدة او اننا بنو عم بالمزاوجة- أليس كذلك؟...» واذ سمعته بعد ستة اعوام ينطق تقريباً نطقاً حرفياً بالكلام الذي كان دي ريكساك نفسه قاله في صباح احد الايام المتجمدة، بينما كانت تمر وراءه تكراراً بقع الجياد الحمراء غير الواضحة، وهي تعود من المورد حيث كان على المرء ان يكسر الجليد لكي يمكنها من الاستقاء، اما الان فالموسم صيف- لم يكن اول صيف وانما الصيف الثاني بعد ان انتهى كل شيء، اعني انه انغلق والتأم او بالأحرى (لم يلتئم لان كل اثر لما حدث لم يعد يراه احد) عاد فالتصق ثانية التصاقاً كاملاً جداً، حتى انك لم تعد تستطيع ان تلاحظ أي صدع، مثلما ينسد سطح الماء على حصاة تقع عليه، واذ يتكسر المنظر الطبيعي

المنعكس عليه، ويتمزق اربا إربا ويتفرق ايدي سبأ، مكوناً مزيجاً متداخلاً من السماء والشجر (بمعنى انها لم تعد سماء فعلاً او شجراً، وانما مزقا يشوبها اللون الازرق والاخضر والاسود) يعود هذا المزيج فيتكون ليتجمع الازرق والاخضر والاسود ويتخثر، ان صح التعبير وتنتظم وتتموج. وبعد قليل تموج الثعابين الخطرة ثم تسكن تماماً، حيث لاتعود ترى شيئاً سوى سطح لامع نقي صاف غامض تنتظم فيه روعة الافانين الهادئة والسماء والغيوم الساكنة البطيئة. لن تعود ترى شيئا سوى ذلك السطح البراق الذي لايخترقه شيْ. فكر جورج في نفسه قائلا: «اذن بامكانه ان يعود الى الاعتقاد بتلك الكلمات والى تصفيتها وتنظيمها ايضاً الواحدة بعد الاخرى، تلك الكلمات الفارغة من المعنى الصاخبة ليخرجها في جمل فارغة من المعنى، صاخبة مناسبة تبعث الطمأنينة الكاملة، مشذبة وجامدة وواهية تماماً كسطح الماء البراق الذي يغطي ويخفي حشمة...»

ولكن جورج لم يعد يتردد الان الى الكشك، وانما كان يكتفي بتحديه ووصده حتى بدون ان يتطلع اليه. لأنه لم يحتاج الى ذلك، لم يكن يحتاج الى الاستعانة بعينيه لكي يتحداه ويرصده، لانه بدون ان تنطبع صورة ذلك الجسد على شبكية عينه، كان يستطيع ان يراه وقد استحوذت عليه البدانة البشعة فاصبح ينوءتحت ثقله الذاتي اكثر فاكثر. اما وجهه الذي تهدم هو ايضاً، اكثر فاكثر تحت وطأة شيْ لم يكن شحماً فحسب، شيْ كان قد اخذ يتملكه تدريجياً ويسيطر عليه ويحبسه ويطوقه كالسور، لكي يبقى في خلوة خرساء وحزن متكبر عميق. كما كان قد تحداه عند عودته. وقد جرى المشهد على النحو التالي. كان جورج قد صرح بانه قرر الاهتمام بالاراضي وقد استند في ذلك (ولو انه تظاهر بعدم سماعها ، ولو انه تظاهر بأنه كان يكلمهما معاً أيضاً كليهما ولكنه كان ملتفتا من الظاهر اليها وحدها مديراً ظهره الى والده ، كما يبدو الا انه كان يوجه الكلام اليه بدون ان يكترث لها اطلاقاً كما يبدو. ولما كانت تود ان

تقوله قد استند على موافقة سابين الصاخبة البذيئة العميقة لا اكثر ولا اقل ، اعني لا كلمة صدرت عنها ولا ملاحظة ولا اسف. فقد كان الجبل الذي يكونه جسمها دائماً بلا حراك صامتاً ، وكانت كتلة الاعضاء الثقيلة الخاملة المترهلة المستهلكة تحتوي على شيئ في داخلها او الاصح من تحتها كان هو جزء من جورج . بحيث انها رغم جمودها التام ورغم انعدام رد الفعل الظاهري احس جورج احساساً واضحاً أقوى من ثرثرة سابين التي تصم الاذان بما يشبه التصدع ، كصوت احد اعضاء الجسم الخفية الرهيفة وهو يتحطم . وبعد هذا لم يحس بشيئ اخر سوى قرقعة الصمت عندما كان جورج يأتي ويجلس بسرواله الملوث الى المائدة ويداه ، لم تكونا ملوثتين ، ولكنهما ان صح القول ، كانتا مرصعتين بالوحل وبشحوم المحركات في مساء الايام البطيئة الفارغة التي كان في أثنائها يقود الجرار متسقطاً الاتلام البطيئة ، وهو ينظر عند الرواح والمجيئ الى ظله الذي كان في البدء مترهلاً ، مستطيلاً ، يتغير شكله ببطء ، عندما كان يدور حول جسمه ببطء كعقارب الساعة ، يقصر ثم يتراص ويتسطح ثم يتنامى ويتمدد ثانية مرتبك القياسات ليصبح في نهاية الامر ضخماً جداً ، كلما كانت الشمس تميل الى المغيب فوق الارض العديمة الذاكرة اللامبالية ليعود العالم الخبيث فيصبح مأموناً مألوفاً خداعاً . بينما كانت احياناً تمر الغيوم مضطربة ، مع كل من وجه بلوم الهزيل وايجليزيا ، ومشهد وضع العجينة فوق النار وشبح الفارس الحالك وهو يرفع يده ملوحاً بسيفه ثم يهوي ببطء الى احد جنبيه فيتوارى. وهي تماماً كما شخصها هو او على الاصح هم (ولكنه لم يبقَ معه شخص يتجاذب معه اطراف الحديث بشأنها . وكانت سابين قد قالت انه قيل لها انها سلكت سلوكاً من شأنه ان جعل الناس – اعني دون شك اولئك الذين كانوا ينتمون او الذين كانت سابين تظنهم اهلاً لان ينتموا الى ذلك الوسط او الى تلك الطبقة التي كانت تدرج نفسها فيها – لا يقبلونها) او على الاصح هم (اعني به بلوم – او قل مخيلتهم

لا بل اجسامهم اعني جلدهم واعضاءهم ولحمهم التي اصبحت شبيهة باجسام المراهقين الذين فطموا عن النساء) كما شخصها اذن : واقفة في الاتجاه المعاكس لضوء الشمس عند انتهاء عصر احد الايام ، وهي في ثوبها الاحمر الشبيه بلون اللوز الملبس الانكليزي (ولكن ربما كان هذا ايضاً من اختراعه اى اللون ، ذلك الاحمر اللاذع ، ربما لمجرد انها كانت شيئاً لا يفكر فيه ذهنه وانما شفتاه وفمه ربما لان اسمها «اي كورين» من مشتقات كلمة «كواري اي المرجانه» ؟ . . .) تنفصل عن الناس .

ميممة شطر العشب الاخضر ، حيث تعدو الجياد ، وكان غالباً ما يحدث له ان يراها وهي في شكل احدى الملكات المرسومات على اوراق اللعب التي كان يناولها اياها ببطء ، وعلى وجهه امارات اللامبالاة وفكر في نفسه قائلا : «على كل حال ، فقد تعلمت من الحرب شيئاً . وهكذا فأني لم اخض حرباً لا تغني فتيلا . واني في الاقل قد تعلمت لعبة البوكر . . .» لانه اصبح يلعب الان . وعندما يحل المساء ، كان يرتاد القاعة الخلفية لمشرب يقع قرب سوق الدواب (كان يختلف اليه وكأنه يتناول الطعام على مائدة ابيه ، أي انه كان مرتدياً سربول العمل ، ويداه المتوسختان المشبعتان بمزيج الطين وشحوم المحركات) لمشاهدة ثلاثة اشخاص او اربعة بوجوههم المتطابقة الخالية من أي تعبير ، وحركاتهم المتطابقة القصيرة البخيلة وهم يجازفون في اللعب ويفرغون (بالحركات نفسها التي كانوا يؤدونها عند اللعب ، وبالطريقة نفسها الصامته السريعة الخالية من المتعة ظاهرياً) أثمن قناني الشمبانيا ، فيما كانت فتاتان او ثلاث كانوا قد رقدوا معهن الواحدة بعد الاخرى ينتظرن متثائبات ، وهن يعرضن خواتمهن الواحدة للاخرى فوق المقاعد المتكسرة) : اذن كانت قطعة ورق مقوى بسيطة أي احدى اولئك الملكات المتشحات بالارجوان ، الملكات اللغزيات المزدوجات ازدواجاً متطابقاً وكأنهن ينعكسن على مرآة ، وهن مرتديات أحد الثياب الملون نصفها بالاحمر

والنصف الاخر بالإخضر وعليهن مظاهر الزينة الثقيلة الطقسية ذوات الصفات الطقسية والرمزية (وردة وصولجان وحيوان القاقم) وكأنهن شيءٌ لا سمك له ولا حقيقة ولا وجود أكثر من وجه مرسوم رسماً تخطيطياً على خلفية ورق بيضاء لا يخترقها شيءٌ ، وجه لا تعبير فيه ، وجه حتمي كوجه القدر نفسه ، ثم انه – عن طريق احد اللاعبين – علم انها كانت قد تزوجت للمرة الثانية وكانت تقطن مدينة تولوز .

والآن كل ما كان يفصله عنها كان ذلك اللوح من الزجاج الذي كانت تبدو من ورائه وكأنها تنظر اليه وتكلمه وتتلفظ بعبارات واقوال لم يكن يسمعها ، مثلما لم تكن تسمعها ربما هي ايضاً تماماً كما لو كان قد وقف في الجانب الاخر من مرآة حويض الاسماك ، فيما كان هو يرنو اليها ويطيل التفكير قائلاً في سره : «اني لسوف افعل ذلك . سوف تضربني مستصرخة شخصاً ليطردني ولكني سوف افعل . . .» اما هي فقد كانت تتحرك تحركاً لا يكاد المرء يحسه ، أي انها كانت تتنفس بمعنى انها كانت تتمطى تارة وتتقلص طوراً ، وكأني بالهواء ينفذ في جسمها لاعن فمها او عن رئتيها وانما عبر بشرتها كلها ، وكأنها مجبولة من مادة تشبه مادة الرئتين غير مرئية تتمدد وتنكمش كالزهور او كالكائنات البحرية التي هي من النبات والحيوان بين بين ، او كعرق اللؤلؤ الذي يرتعش ارتعاشاً ناعماً داخل الماء الرقراق . كان يتنفس ولم يكن يصيخ بسمعه اطلاقاً ، بل لم يكن يجهد نفسه في أن يتظاهر بالانصات ، وكان ينظر اليها فيما كانت تحاول ان تضحك مجدداً وترصده من وراء ضحكتها رصداً احترازياً فيه مزيج من الفضول والحذر ، وربما الخوف وكأنه شيءٌ شبيه بالشبح او الطيف العائد . وكان يستطيع هو ايضاً ان يرى نفسه ، ان يتمرأى خلال المرآة الزرقاء الكائنة وراءها بوجهه المحترق وهيئته الشبيهة بهيئة الكلب الهزيل الجائع وهو يفكر في سره قائلاً : «أجل. هذه هي على وجه التقريب الهيئة التي أبدو فيها فعلاً كمسعور يريد ان

يعض . . .» فيما كانت هي تقول دائما كل ما يخطر ببالها : ما أشد سمرتك . هل انت عائد من البحر ؟ فأجابها : ماذا ؟ فقالت : لقد لفحتك الشمس فأجاب : «البحر ؟ لماذا . . . آه ! كلا اني افلح الارض . انت تعرفين اني طول النهار جالس على الجرار » . . . ثم ظهرت له يده فدخلت في مجال نظره أي كأنه غمسها في الماء واطال النظر فيها وهي تتقدم وتبتعد عنه وهو حائر مشدوه (كما لو كانت تنفصل عنه وتفترق عن ذراعه بفعل الانحراف الخفيف لمدى رؤيته عندما تخترق سطح أحد السوائل) : كانت يده نحيفة سمراء طويلة الاصابع ناعمتها . لم يستطع خلال مدة ثماني سنوات ، رغم استعماله مقابض الشوكات والمغارف والمعاول والتراب والشحوم ان يخرج بيد فلاح . وكان متضعضعاً يائساً يحمل سابين على ان تقول له ، بحب وكبرياء ، ان يده ، يد عازف البيانو وكان عليه ان يحترف الموسيقى وانه بالتأكيد قد اهدر واتلف موهبة وفرط بفرصة العمر (ولكنه لم يعد الان يحاول حتى أن يهز كتفيه) فطرد صورة سابين وصوتها ، فيما كان يتابع النظر مبهوراً ، في يده التي اصبحت غريبة عنه ان صح التعبير ، بمعنى انها اصبحت تماماً كالشجر والسماء والازرق والاخضر جزءاً من هذا العالم المتلألئ الذي لا يصدق الذي كانت هي (كورين) قائمة فيه لا واقعية بعيدة عن التصديق هي ايضاً ، رغم اريجها الثقيل وصوتها وتنفسها الذي امسى الان متسارعاً فيما نرى صدرها ونهديها يرتفعان كحوصلة الطير التي تنبض ، والهواء او الدم يتدفق اليها نبضات حثيثة ، بينما كان صوتها قد غدا اسرع واعلى قليلاً عندما قالت له : «اود ان اقول لك انني اسعدت كثيرا بملاقاتك . عليّ الان ان اخرج اظن انني ساكون متأخرة . عليّ ان . . . ولكنه مع كل هذا لم يتحرك وقد صارت يده بعيدة جداً عنه (مثلما يفعل المشاهدون القائمون على شرفة قاعة السينما بالقرب من حجرة العرض اذ يحركون ايديهم واذرعهم واصابعهم الخمس المفتوحة فتعترض الحزمة الضوئية لكي تقذف بظلالها الهائلة المتحركة على الشاشة وكأنهم يحاولون

تحقيق حلمهم الجميل البعيد المنال) وانفصلت كلياً عنه الان حتى انه عندما لمسها (اعلى الذراع العاري فوق الكتف بقليل) أحسّ لاول وهلة احساساً غريباً، وكأنه لم يلمسها حقيقة، مثلما تأخذ طائراً بيدك: احس بالدهشة والاستغراب من الفارق بين الحجم الظاهري والوزن الحقيقي والخفة المتناهية والرهافة المتناهية والهشاشة المتناهية للريش والزغب. اما هي فقالت: «ولكن ماذا تـ . . . ماذا تـ . . . ويبدو انها عجزت عن اكمال قولها، كما عجزت عن الحركة، وانما اخذ تنفسها يتسارع اكثر فأكثر، وصارت تلهث تقريباً، فيما كانت ما تزال ترنو اليه وعليها مسحة من الذعر والعجز. وكان بين راحة يدها وجلد ذراعها الحريري

شيءٌ ايضاً لا يتجاوز سمكه سمك ورق السكائر، ولكنه شيءٌ يقف حاجزاً معترضاً، أعني أن الشعور باللمس قد اخذ يتراجع قليلاً لكي يشبه اصابع اليد التي خدرها البرد، عندما توضع على شيءٍ، ولكنها لا تحس به على ما يبدو الا خلال رقاقة او مادة متقرنة فقدت حاسة

اللمس. صار هو وكورين بلا حراك تماماً يتفرس الواحد في الاخر. ثم اطبق يده حول ذراعها وعصره. حينذاك استطاع ان يغمض عينيه، ولم يعد يتنفس سوى رائحة الزهور التي كانت تضوع من جسمها. وكان يسمع صوت لهاثها والهواء يدخل ويخرج بسرعة هائلة من بين شفتيها ثم سمعت حسيساً كصوت الزفير والتنهد وهي تقول: «انك تؤلمني. اتركني. انك تؤلمني. ولكن دعني...» حتى ادرك ان يده كانت تعصر ذراعها بكل قوته، ولكنه لم يسحبها، وانما ارخى عضلاتها قليلاً، كما ادرك ايضاً انه صار يرتجف ارتجافاً مستمراً لايشعر به أحد ولا تمكنه السيطرة عليه. فقالت له: «ارجوك. يمكن ان يعود زوجي. نشدتك الله ان تتركني. كف اذن.» ولكنه اصر على عدم التحرك، فيما كان يلهث قليلا ويردد بصوت رتيب آلي مذعور، ويقول: «كورين من فضلك اسمعيني ارجوك.

ارجوك...» اكتفى جورج حينئذ بابقاء يده، حيث كانت، لم يحركها، وبقي هو ايضا متسمراً في مكانه، وكأن الهواء كانت له متانة الزجاج الخداعة، متانة لاترى سريعة العطب سرعة مرعبة لايفصلها الواحد عن الاخر فحسب، وانما يطوقها من كل صوب. مكث جورج هناك لايأتي حركة ولا يجرؤ على ان يتحرك، محاولاً ان يتمالك انفاسه وان يهدئ فورة دمه الشديدة. كان الوقت مساء والشفق الاخضر الشفاف الذي يمتاز به ايار اشبه بالزجاج، بينما كان يشعر في حلقه بالرغبة في التقيؤ، ولكنه كان يكبتها وهو يبتلع ريقه، وبين هبتي ريح عنيفتين فكر في نفسه قائلا: «هذا لاني ركضت كثيرا....ولكن ربما مرد هذا الى كل كميات الكحول التي جرعتها؟» وفكر ايضا في انه كان عليه ان يحاول ان يتقيأ، مثلما فعل قبل قليل ايجليزيا في الحقل. واسترسل في تفكيره قائلاً: «اتقيأ ماذا؟» وحاول ان يتذكر المرة الاخيرة التي تناول فيها الطعام، بلى صحيح، تلك القطعة الصغيرة من سجق اللحم، صباح هذا اليوم في الغابة (ولكن هل كان الوقت صباحاً والا فتى كان؟) كانت معدته ملاءى بثمرة العرعر التي كان يخيل اليه بعد ان تناولها انه يحوي جسماً غريباً في بطنه، يتعذر عليه تمثيله غذائيا، وكأنه كتلة صلدة او الاحرى شبه صلدة وثقيلة وكأنها كرة من الزئبق. كان عليه قبل قليل ان يدخل اصابعه في حلقه ويتقيأ، وبهذا كان يجلب الهدوءوالراحة لنفسه، عندما كانوا في البيت يرتدون زيهم العسكري، ثم صار وحده (ثقيلاً مرة اخرى صلباً منهوك القوى داخل لحافه الصلب الثقيل المتكون من القماش والجلد) في الغرفة وهو يسائل نفسه دوماً هل سيتقيأ أم لا، وعن المكان الذي مر به ايجليزياً بينما، كان يرى من النافذة الشاحنات الصغيرة من صنف الهندسة تمشي بسرعة هناك منسحبة من ساحة القتال. لم تكن تبدو اكبر من لعب الاطفال. وكانت تتتابع بدون انقطاع، وهي تهرب مستعجلة، ثم صار ايجليزيا هناك مجدداً، ولم يستطع ان يقول (لااكثر من الوقت الذي اختفى فيه) متى وكيف عاد. انتفض جورج

والتفت فنظر اليه نظرته المتعبة– نظرة العين التي لاتصدق ماترى. فقال ايجليزيا: «هذه الافراس الشمطاء المسكينة لابد ان تأكل هي ايضا وجبتها» ولكنه فكر في نفسه قائلا: «سبحان الله. ها قد وجد مجالاً آخر يفكر فيه بها وهو شبه سكران او جثة. مثل صاحبه الاخر صباح هذا اليوم عندما اقتادها الى المسقى. وكأنه...» ثم كف عن التفكير قبل ان يستنفذ كل ماكان يريد التفكير به، ولم يعد يهتم بجورج وانما طفق ينظر هو ايضا الى ماكانت تتأمل في العينان المدورتان الصفراوان الحائرتان اللتان لاتصدقان ماتريان. مكث كلاهما دون حركة لحظة فيما كانت السيارات المستدقة هناك تمشي من وراء المروج المنحدرة مثل طابور: ثم نزل كلاهما الدرج بسرعة واجتازا فناء المزرعة المقفر راكضين، ثم سلكا في الاتجاه المعاكس للطريق التي سارا فيها في الصباح – وجل ماكان بأمكانه ان يرى الان (وهو متمدد على بطنه فوق عشب الحفرة لاهثاً، محاولاً دون جدوى ان يسيطر على أزيزكور الحداد الهائل الذي كان يفور في صدرة) الشريط الافقي الضيق الذي اصبح، بالنسبة اليه، العالم بأسره يحدده من الاعلى مقدم خوذته ومن الاسفل وريقات العشب المتداخلة في مقر الحفرة التي كانت امام عينيه، وقد كانت في البدء غير واضحة اكثر لكي لاتعود تصبح فيما بعد، وريقات عشب ولكن بقعة خضراء في الشفق الاخضر، تتقلص شيئاً فشيئاً، لكي تنتهي في المكان الذي كان الدرب المكسو بالحجارة يؤدي الى الطريق الرئيسة. كما كان يرى بلاطات الطريق والجزمتين السوداوين اللامعتين بفضل الصبغ المتقن الذي حظيتا به، جزمتي جندي الدورية، بطياتها الشبيهة بطيات الاكورديون عند منطقة العرقوب. كان محور الجزمتين يشكل رقم (٨). كان يبدو من تحته الحصان المقتول في الجانب الاخر من الطريق، يختفي بين عجلات الشاحنات المتقدمة فوق البلاطات. كان دائماً في المكان نفسه، منذ الصباح، ولكنه على مايبدو أصبح مسطحاً وكأنه ذاب شيئاً فشيئاً، خلال ساعات النهار، مثل تماثيل الثلج التي مع

ازدياد الذوبان، تبدو وكأنهما تغور في الارض غؤورا لا يكاد المرء يشعر به، وكأن قاعدتها قد امتصتها فتشوهت رويدا رويدا، بحيث انه لا يبقى في النهاية سوى اهم الكتل والمساند - كمقابض المكانس والعصي - التي كانت بمثابة التسليح.

هنا البطن اصبح ضخماً منتفخاً مترهلاً وهنا العظام، وكأن الوسط البدني قد امتص لنفسه جوهر الهيكل العظمي برمته، العظام برؤوسها المدورة التي باتت تشبه اوتادا غرست غرسا مائلا لتسند كيفما كان، كالخيمة على سبيل المثال، قشرة الطين التي كانت له بمثابة الغلاف: ولكن لم تبق الان اية ذبابة هناك.

وكأني بالذباب تركه وكأنه لم يبق فيه شيءُ يستفيد منه وكأنه لم يتحول - ولكن جورج اعتقد ان ذلك غير ممكن ان يتحقق في يومٍ واحد- الى لحم مجفف جيف ولكن الى لحم تغيرت طبيعته، فأمسى والتربة شيئاً واحداً، لانها باتت تخفي تحت خصل شعرها العشبية والورقية عظام الافراس البليدة والثعابين التي رحلت عن هذا العالم (والفرسان الراحلين والحوذية والقادة الكبار الراحلين) فتحولت الى كلس هش او... ولكنه كان قد اخطأ: فقد خرجت من التربة فجأة ذبابة - وهذه المرة كانت من بين الطرفين - ولكنه وان كان على مبعدة خمسة عشر متراً منها فقد رآها (رآها بدون شك، بفضل حدة البصر المقرفة المرهفة التي يتحلى بها السكران) بوضوح تام (مشعرة زرقاء سوداء براقة وعلى الرغم من ان اذنيه اصمتهما جعجعة الشاحنات التي كانت تنطلق بسرعة خارقة فقد سمعها ايضا: بطنينها العاتي السريع الهائج)كوضوح رؤوس المسامير في نعال الفرس الاربعة المنبطحة على منكبها على قارعة الطريق.اما الان وبالنسبة الى جورج الذي كان في المقدمة ... فقد تحولت اذن الى كلس هش والى كائنات متحجرة، وهي الحالة التي كان هو ايضا على وشك ان يدخل فيها، من جراء التجمد وهو يشاهد بأم

عينه، ويقف عاجزا امام التحول البطيْ للمادة التي كان متكونا منها، ذلك التحول الذي كان يحصل ابتداء من ذراعه المنطوية الذي كان يحس بها وهو يفقد الحياة تدريجيا ليصبح عديم الحس، وقد التهمه بدلا من الدود حشد يتنامى شيئا فشيئا، حشد ربما كان سر الذرات الهائجة وهي تنتقل لكي تنتظم وفقا لبنية مختلفة معدنية او بلورية وسط الشفق البلوري الذي كان يفصله عنه دائما غشاء بسمك ورق السكائر، واذا لم تكن ورقة سيكارة فانها ملامسة الشفق نفسها لبشرته، لان لبشرة النساء في اعتقاده نعومة ومذاقاً يجعلان الانسان متردداً في ان يصدق انه يلمسها فعلا، البشرة كلها كأنها ريش الطير او العشب او الاوراق او الهواء الشفاف، هشة كالكريستال. فقد كان يستطيع دائما ان يسمعها تلهث لهاثا بطيئا، هذا ان لم يكن نَفَسهُ المتحرك في صدره هو الذي يشبه اللهاث، هذا ان لم يكن قد مات هو ايضا كالفرس وابتلعته الارض حتى نصفه فامتزج لحمه بالطين الطري وامتزجت عظامه بالحجارة لانه ربما كان الامر يتعلق بمجرد انعدام الحركة. وفي هذه الحالة يتحول المرء الى مجرد قطعة طباشير او رمل او وحل. وكان يفكر ان ما كان يجب ان يقوله له كان هذا بالذات، فقد كان يستطيع ان يراه تماما مثلما كان في تلك الساعة بالذات في شبه ظل الكشك عند الشفق، حيث كان العالم يتراءى خلال زجاج النوافذ الملون موحداً مجبولاً من مادة واحدة خضراء كالخبازي او زرقاء وفي النهاية متصالحاً، اللهم الا اذا كانت هناك احدى امسيات ايار الحارة منعتهم من البقاء داخل الكشك، وعلى اية حال فانه هو وهي كانا مايزالان تحت شجرة البلوط الضخمة حيث تناولا الشاي، وكانت البلوطة في تلك الفترة مزهرة، وعناقيدها البيضاء الوافرة تشبه الشمعدانات وتبدو فسفورية طي الشفق، فيما كان الظل السميك الذي تتخلله الزرقة يسقط عليهما ويغطيهما، مشكّلا بذلك طبقة من الصبغ معتمة وموحدة، هي واوراقها الدهرية المنشورة امامه على المنضدة بالقرب من الطبق الذي ازاحه، وكان يعلوه صحن

يمنع نسيم المساء من تزريقها لانه لم يعد الان يميزه دون شك، بين الكتابة الناعمة المسطرة عليها، لذا فقد كان يكتفي او يحاول ان يكتفي بمعرفة ان هذه الحروف وهذه الاشارات هي هنا، شأنه في ذلك شأن الاعمى الذي يعرف ان الجدران في الليل والكرسي والسرير موجودة،هذا مع العلم انه يستطيع ان يلمسها عند الحاجة بغية التثبت من وجودها، بينما جورج كان يفكر وهو مضطجع في قعر الحفرة مرهف الاذنين جامداً وقد بات عديم الاحساس كلياً مشلولاً بالتشنجات،

جامداً تماماً كالفرس الهرمة الميتة، ووجهه فوق العشب الكثيف والارض المشعرة، وقد اصبح جسمه كله مسطحاً وكأني به يريد ان يغور في ذلك الجب ويذوب وينزلق ويتغلغل بكليته في ذلك الشق من الارض، لكي يندمج مع المادة الهادئة الأصلية. وكان يفكر في الامسيات التي كان يتعشى فيها خارج البيت وفي الأوقات التي كان جوليان يأتي بالمصباح النفطي، وبينما كانوا يهيئون المائدة كان ابوه يباشر عمله منزوياً مع وريقاته المطوية الزوايا المشطبة التي قد اصبحت نوعاً ما جزءاًلايتجزأ من كيانه او عضواً اضافياً لا ينفصل عنه كدماغه نفسه او كقلبه او كلحمه الثقيل الهرم– منزوياً داخل تلك الشرنقة الوقائية او تلك البيضة او تلك الكرة الدهنية الصفراء المغلقة التي كان ينيرها ضوء المصباح في الحديقة ليلاً وسط طنين البق، كان جورج يفكر اذن في ان النهار او النور لا يأتيان بحقيقة اخرى سوى عودة ظهور الخربشات المثبطة للعزائم، هذه الخربشات التي لاوجود حقيقي لها سوى الوجود الذي ينسبه اليها عقل هو ايضاً لاوجود حقيقي له، بقصد ان تدل على اشياء من صنع مخيلته، اشياء ربما هي ايضا غير موجودة. واجمالا فان افضل من كل هذا كانت هذرمة الطيور واطواق الجواد المتصادمة وثرثرته البلهاء الدائمية التي كانت تتمتع في الأقل بخاصية واحدة هي الوجود، حتى لو كان هذا الوجود يتجسد في الضجة وفي الحركة، هذا اذا سلمنا بان الضجة والحركة ليستا صيغاً باطلة وتافهة لنقيض الوجود:

هذا ماكان يجب ان يعرفه، هذا ماكان يجب عليه ان يستطيع ان يطلبه من الحصان، وربما كان مشكلة من شأن جورج ان يحلها، لوكان على درجة أقل من السكر او من الملل، وربما ان المسألة، في نهاية الأمر، قد تحل تلقائياً بين لحظة واخرى وذلك بواسطة طلق ناري واحد من بندقية وذلك بأن يتمزق جمود المادة الطبيعي خلال لحظة واحدة (على أثر احتراق او تمدد او طرد قذيفة بشدة داخل سبطانة) محولاً اياه، والى الابد، الى ركام بسيط من المادة الحصانية التي لا يميزها عن مادة الفرس البليدة سوى شكلها. هذا في ما لو خطر ببال الخفير الذي كان يروح ويغدو على حافات الدرب بموازاة الطريق، ان يتقدم بالعكس تقدماً عمودياً على الطريق بمسافة عشرة أمتار على الدرب. وكان باستطاعة جورج دائماً ان يحاول ان يطلق النار هو الاول. واذا سلمنا بانه ينجح في ذلك بسرعة كافية، وان يقفز بعد ذلك بسرعة كافية، فوق السياج، فانه سيكون له من الوقت متسع ان يتذوق للمرة الاخيرة وفي مرحلة الحياة التافهة والباطلة التي هي الحركة (لكي يقطع بدوره مسافة عشرة او خمسة عشر متراً) قبل ان يعرف مالم يكن الذباب يعرفه بعد، بامكان الذباب ان يعرفه يوما وما كان سيعرفه الجميع في النهاية يوماً، ولكن مالم يرجع احد من العالمين قط ولا من الجياد ولامن الذباب ليحكيه لمن كان مايزال يجهله. وعندئذ يكون قد مات الى الابد، ولكن اذا كان الخفير أسرع فلن يكون بامكان جورج حتى ان ينهض بحيث انه يبقى قائما في المكان نفسه، وماالذي ياترى كان يتغير سوى انه لن يبقى تماماً في الموضع نفسه، ربما كان سيحاول ان يسند بندقيته الى كتفه وان يسدد، هذا كل ما في الأمر لان الاول والاخير هو الانتهاء الى أمسية أيار الهادئة الفاترة مع شذى عشبها المخضوضر ورطوبتها الخفيفة الضاربة الى الزرقة التي كانت قد بدات تسقط على الرياض والبساتين:

كل مافي الأمر، اننا كنا سنسمع صوت عيار ناري او عيارين، مثلما يمكننا

ان نسمعها في ايلول بعد افتتاح موسم الصيد مساء، عندما ياخذ فلاح او صبي، بعد ساعات العمل فجأة بندقية ويعقد العزم على ان يقوم بجولة قصيرة من الجهة التي التقط منها الارنب قبل ايام، وكان الارنب في ذلك اليوم على موعد فاصماه، مع فارق وحيد هو الا احد يلتقطه لكي يحمله باذنيه وانما يبقى هناك دائماً في المكان نفسه، لايبرحه ابدا عديم الحركة تماماً، وبشكل نهائي هذه المرة وعلى وجهه، بدون شك، مثل واك، امارات الاستغراب الابله الذي هو من خصائص الاموات، أي فم مفتوح كخطم البهيمة وعينان مفتوحتان ايضاً تنظران الى الشريط الكوني الضيق ولكن دون ان ترياه، ذلك الشريط الذي كان يمتد امامه، وذلك الجدار نفسه المبني من الاجر الاحمر القاني القصير السمين الثخين المصنوع من مادة خشنة، كان الفاتح منه مبقعا ببقع داكنة على خلفية، لونها يشبه لون الصدأ، وكان الداكن منه اشبه بلون الدم المتخثر او الارجوان الضارب الى السمرة، واحياناً الى لون الخبازي الداكن القريب الى الازرق، وكأني بالمادة التي كان مصنوعاً منها تحتوي على خبث الحديد او رماد الفحم الحجري، او كأن النار التي استوى بها كانت قد صلبت شيئا يشبه اللحم الدامي والمعدني والعنيف المعلق امام دكان القصاب، مع الفوارق الطفيفة نفسها المتارجحة بين البرتقالي والضارب الى البنفسجي، او صلبت قلب الارض نفسه ولحمها القوي الارجواني، هذه الارض التي كان ملتصقاً بها، ان صح القول، بطنا لبطن. اما المفاصل فقد كانت بلون افتح من الملاط الضارب الى الرصاصي. وكان يستطيع ان يرى فيه محفوظة ذرات الرمل ونبتة برية ذات خضرة رهيفة كانت تدفع كل شيء بصورة غير منتظمة بعكس اساس الجدار (وكأنها تريد ان تخفي خط المفصل او ان تخفي المفصّلة المتكونة من الجدار والارض، والى الامام قليلاً كانت السيقان القوية التي كانت مقدمة خوذته تمنعه من رؤية جزئها العلوي او زهرتها او براعمها: ربما كانت وروداً برية او دوار الشمس الصغير؟) : كان

سمكها بحجم سمك الابهام محززة ومضلعة حزوزاً وضلوعاً طولية ولونها اخضر فاتحاً يكاد يكون ابيض، يكسوها زغب خفيف غير مائل، ولكنه إذ كانت الاوراق السفلية الاولى تنمو عمودبا على الساق، كانت قد ذبلت ويبست وتدلت وارتخت كاوراق الخس المقروضة، كانت حافات الاوراق قد اصفرت. اما الاوراق العليا فقد كانت ماتزال متينة ثرة بعروقها الواضحة المتفرعة كشبكة عروق متطابقة النصفين او كورق الروافد والانهار. وكانت مادة الاوراق الحية لدنه مخملية (تمتد على الاجر الخشن المعدني الدامي) طرية طراوة لايمكن تصديقها ولامادية. وكانت وريقات عشب جامدة تقريباً تحركها احياناً رعشة خفيفة، فيما كانت السيقان القوية للشتلات العالية عديمة الحركة تماماً. وكانت الاوراق العريضة تتحرك متكاسلة، بين حين واخر في الهواء الهادي، بينما كانت تتعالى من الطريق وبدون انقطاع ضجة هائلة: لم يكن قصف المدفع، لانه لم يعد يسمع الان الا عن بعيد متقطعاً، عند نهاية النهار الهادئة الصافية، كالخفقات الاخيرة التقليدية التي تحدث في المعارك كالحركات او التظاهر بالعمل او النشاط المتكلف الذي يؤديه بعض العمال، بتكاسل منتظرين ساعة اغلاق الدوائر او المصانع. والحرب نفسها كانت تصطخب اصطخابا شبيها، عن بعد بالضجة التي يمكن سماعها في محطات القطار، المتكونة من اصداء قرقعة السطامات المتصادمة للحديد الذي تلقى هزة قوية، ضجة غريبة معدنية مدمرة: واذا نظرنا اكثر على اليسار لراينا دغلا كثيفا طالعاً من المفصل متكونا من مجموعة من الشتلات البرية او الاحرى تويجا من الاوراق الموزعة على شكل اكاليل (كنافورة ينبجس من مركزها الماء ليسقط على جوانبها) ممزقة ومسننة ومنتصبة (كأنها اسلحة قديمة او كأنها خطاطيف) خضراء داكنة خشنة. وفضلا عن ذلك كنت ترى امامك وقد مال قليلا الى اليمين ساق احدى هذه الغرسات العالية عينها. كما كنت ترى قائمة باب او رافدتها الخشبية

التي كان يتمحور عليها باب قنّ الدجاج مثبتة بلسان من حديد (وكان يوجد دون شك لسان اخر اعلى قليلا ولكنه لم يكن يستطيع ان يراه) يعلوه الصدأ من كل صوب، وقد سمر على الحائط المبني بالاجر، فيما كنت ترى السمنت حول اللسان الحديدي السميك مكونا طوقا قشدي اللون، كانت تظهر عليه اثار المالج الذي ترك فيه عند صقل الملاط بصمات واضحة وكأنها براعم او حبيبات من المادة المكبوسة، بينما كانت رافدة الباب او قائمتها او قاعدتها قد فقدت لونها الاصلي، بفعل المطر فأصبحت رمادية باهتة، وكأنها رماد سيكارة. فالقاعدة نفسها كانت شبه متداعية. وكان احد الوتدين الخشبيين اللذين يمسكان بالزاوية السفلى قد خرج من مكانه. وبهذا فقد اصبح كل شيْ مضطرباً. فالعارضة السفلى كانت تشكل مع القائمة العمودية زاوية غير قائمة، ولكن منفرجة قليلاً حتى باتت تكشط الارض عندما يهم احد بفتح الباب، بينما كان العشب الذي يحيط بقدم الرافدة المثبت في الجدار مكونا حوله ادغالا متراصة مكتنزة تقصر تدريجيا، ابتداء من هناك حتى تصبح مجرد صفيحة محلوقة تماما منبطحة على الارض مسطحة وقصيرة، وتنتهي اخيرا فلا تعود ترى سوى الارض المخططة بمنحنيات متحدة المراكز، تتوافق مع بروزات العارضة السفلى، عندما كانت تدور وتحك الارض حول القائمة بينما كان مشبك الاسلاك الحديدية المغلونة في حالة لا يحسد عليها هو ايضا، ولو انه قد استبدل قبل فترة غير طويلة كما يظهر، فترة اقرب الينا من وقت انشاء قنّ الدجاج، والباب لانه لم يكن قد هجم عليه الصدأ بعد لكن الاشارة الى ان المسامير الصغيرة الشبيهة بشكل نعال الجياد والتي كانت تثبته على القاعدة كان قد دب فيها الصدأ. كان المشبك مسترخيا متموجا ويشكل سطحا محدودبا، تكون فيه جيب كبير، نتيجة لضربات القدم الضرورية لغلق الباب عند الجزء الاسفل مما اسفر عن حدوث ترهل وتمدد غير منتظمين في الزردات المسدسة الشكل، واخذ العشب ينبت مجددا عند اسفل قائمة الباب الثانية التي كانت

القاعدة تأتي لتصطدم بها، كذلك على شكل ادغال متراصة مستمرة على امتداد المشبك الذي كان قد اقيم بعيدا. كان مجال رؤية جورج قد توقف الى هذا الحد. اعني انه توقف على رؤية غير واضحة او على حد غامض يمتد الى يمين رؤيتنا وشمالها، تكون في داخله الاشياء ملموحة اكثر من كونها مرئية على شكل بقع ودوائر غامضة. كان جورج منهوك القوى او سكران فوق الحد مما اعاقه عن الالتفات: لم يجد دجاجا خلف المشبك او ربما نام قبل قليل، بما ان الناس تقول ان الدجاج ينام مع غروب الشمس. وعندما سمع همس ايجليزيا، لم يفهمه لاول وهلة. فاجابه قائلا: ماذا؟ حينئذ لمس ايجليزيا فخذه وقال له: «....الدجاج. اني اراهنك على انهم سيأتون لياخذوه. ولكن الظلام صار دامسا، أليس كذلك؟...» حينئذ شرعا يزحفان القهقري، منتصبي الرأس دائما، بينما كان مجال رؤيتهما ياخذ في الاتساع. واذا بالدار تلوح شيئا فشيئا برمتها، حمراء قانية صغيرة وضخمة في آن واحد. كان قنّ الدجاج عند شمالها. وفوق المكان الذي كانا قد اضطجعا فيه قبل لحظة كانت نافذة يظهر فيها اناء حليب من المينا الزرقاء، كانا يستطيعان ان يشاهداه بشكل اوضح وقت الشفق. كان الاناء موضوعا على حرف النافذة. ولكن النافذة رغم كونها مفتوحة فقد كانت فارغة ميتة سوداء. اما النافذتان الاخريان، في الطابق الاول، فقد كانتا هما ايضا فارغتين دامستين لاحياة فيهما. كانا اذن يزحفان القهقري في قعر الحفرة. ثم نهضا عندما بلغا المنعطف وانطلقا مندفعين فوق السياج، حتى صارا في الجهة المقابلة. وقد شعرا بانهما مايزالان هناك بدون حركة كامنين ينصتان لصوت انفاسهما الذي اضطرب مجددا. وخلال فترة اصبحا عاجزين عن رؤية اي شيئ، حيث لم يحدث شيئ. فعبرا الحديقة الصغيرة محني الظهر، وقفزا سياجا ثانيا اجتازا بعده روضة كبيرة، ثم عادا فاقعيا الواحد على ظهر الاخر، مقابل السياج تماما، كما عاد ففار دمهما واضطرب تنفسهما ولكن لم تصدر عنهما حركة بعد، فيما اخذ الظلام شيئا فشيئا.

ووراء ظهره استأنف ايجليزيا همسه بصوته المبحوح الغاضب الذي تشوبه مسحة من التذمر الطفولي (ولاحاجة لان يلتفت احد لكي يرى عينيه الكبيرتين الشبيهتين بعيون الاسماك اللتين تغمرهما هما ايضا الدهشة والاكفهرار والاباء) فقد كان يقول: «شاحنات صغيرة لصنف لهندسة! الاتصدق...»لم يرد عليه جورج ولم يلتفت اليه. لكن همس ايجليزيا المستاء الشاجب الشاكي ارتفع ثانية: تبالك لو تقدمنا أكثر لاصبحنا غنيمة للشاحنة. اين كنت تنظر؟ » لم يرد عليه جورج مرة اخرى وشرع يتراجع على امتداد السياج، دون ان يزيح نظرة لحظة عن زاوية الدار المشيدة بالآجر هناك والمظلمة بين اغصان التفاح الحالكة: لكن الان لم تعد تمر اية شاحنة صغيرة.

وكل ماكان بامكانه ان يراه هو البقعة الفاتحة التي كانت تكونها الخرقة الوردية المعلقة بالسياج، قرب الحصان، ولكن اي حصان واي حرس، لم يكن يرى اذن سوى البقعة الوردية التي كانت تصدر بريقاً ضعيفاً في شبه الظل. ثم ان الخرقة نفسها تلاشت، لانهما اجتازا سياجا اخر وهما مايزالان يمشيان القهقرى.

وما انفكا يديران رأسيهما الى جهة الطريق، حتى اصطدم ظهرهما بالسياج وهما يتلمسانه بأيديهما ورآهما. رفعا ساقاً فوق السياج تماما خلال لحظة فاصبح الجذع مطبقا عليها، ثم وقعت في الجانب الاخر وذلك بدون ان يتوقفا لحظة عن مراقبة زاوية الدار، فقد كانا رأسا وجسما مشغولين بمشاكل مختلفة، كل يهتم بشؤونه وبشؤون صاحبه أو أن صح التعبير، كانا يتقاسمان المهمات. وكانت اعضاء جسميهما تؤدي عفويا، وتحت سيطرتهما الذاتية سلسلة الحركات التي لم يكن دماغهما يبدو أنه يعيرها اهتماما. اطبق الليل الان تماما.

وفجأة انفجرت القوقأة المتنافرة المذعورة من قنّ الدجاج، وسط معزوفة من صفق الاجنحة والهواء الممزق وقد ملأ الاحتجاج المرعب الذي لايغني فتيلا ذلك الشفق لحظة، ذلك الاحتجاج المذعور الحانق، وكأنه تعقيب مشوه لصليل

المعركة: كان مزيج من الشتائم والايدي والاذرع الحمقاء، وهي تشق الهواء، وسط الكرات الغامضة الصهباء المنتصبة المتطايرة تطايراً اهوج والمتصادمة مبحوحة الصوت، الى ان يهدأ القتال رويداً وينتهي عند آخر صراخ مذعور مخنوق جدير بالشفقة تطلقه دجاجة او غيرها. واذا بك لاتسمع شيئا اللهم سوى صوت هبوط الاجنحة البطيء الصامت وهي تعود الى حالة الهدوء داخل القنّ فقال ايجليزيا: «حسن. تبا لهم» ولحظة بعد ذلك اضاف وقال: ويحهم. ان الاستعراض الذي مر من تحت انوفنا يعادل في الاقل فرقة بكاملها.

لم اكن لأصدق قط بوجود هذا العدد الهائل! لم اكن لاصدق قط بانهم يستطيعون الذهاب بهذه السرعة اذا حاربوا وهم جلوس على مقاعد. فما الذي كنا نفعله هناك نحن بافراسنا القفداء ياويحهم! لقد كان مظهرنا حسنا.. الشهوة هي عبارة عن معانقة كائنين حيين لجسم ميت. فـ «الجثة» والحالة هذه، هي الزمن الذي يقتله المرء خلال ردح من الزمن ويجعله مساوياً لحاسة اللمس في الجوهر.

مالكوهم دي شازال

كان مايزال يتكلم ويبرطم، ولكني اسقطت قداحته على الارض. صرنا نتلمس في الظلام فنتعثر على الدرج الخشبي. وطبيعي ان الشيخ ماكان قد رجع، ولم يك للبط وجود وقتئذ. كان ذلك امراً متوقعاً. كان بدون شك يمضي الوقت في تخمير ثمرة العرعر. الا ان ضوءاً ضعيفاً كان قد بقي داخل الغرفة، هو الضوء الذي يبقى متأخرا بعد الشفق. كنا نستطيع ان نرى خشب السرير يطلق بريقا. تعثرت بالاريكة فاسقطتها. فتولد من جراء ذلك صخب هائل داخل البيت الفارغ. بقينا لحظة ننصت، وكأننا سمعناه من الطريق.

ثم عدت اتلمسها في الظلام لكي التقطها فوضعت بندقيتي على الارض وجلست فعرفت انه كان قد نام وكأنه على سرير. وقلت له: تباً لك. ألا يمكنك ان تسحب بالاقل مهاميزك. ثم خيم السكوت المطبق، اعني بذلك أني لست أتذكر شيئاً. واعتقد اني استسلمت للنعاس ساعتئذ، هناك وكأنني جثة، ربما حتى قبل ان افرغ من الكلام وربما انني لم اصل في كلامي حتى الى كلمة مهاميز. وكل مافعلت كان مجرد اني فكرت بها لااكثر، فقد استحوذ علي العدم والوسن الدامس كناقوس اطبق علي فابتلعني، وأنا ماأزال مسترخيا على الاريكة مائلا الى الامام، فيما كانت يدي تتلمس محاولة حل مهازي. وكنت افكر بالذي خطر ببالنا وجعلنا نحتذيها، بما اننا تركنا الجياد في الاصطبل. لماذا احتذيناها اذن. كانت شوكات مهاميزها عاطلة، من فرط كتل الدم الخاثر المتجمعة عليها، على اثر الهابنا مناكبها بالسياط يوم الاحد عندما قطعنا مسافة خمسة عشر كيلو مترا، ونحن نعدو بدون انقطاع تقريبا، بغية عبور الجسر، قبل تدميره. وقد روى لنا مرة ان احد الاشخاص المسنين الذين كانوا يرتدون بنطالا مخططا رماديا، وكانت شواربهم اشبه بجلد الفقمة والازرار الظاهرة من عرى ثيابهم كانت وردية الشكل، كان قد دفع له اجرا مقابل ركوبه. فقلت له ركوب ماذا؟ فقال لي: ركوبه تماماً كالحصان. هل تحتاج الى ان اوضح لك ذلك بالرسم؟. فنظر الي بعينيه الكبيرتين وقد استولى عليهما الاستغراب، كأنني مغفل امامه او شبه مغفل. وضع ايجليزيا شبكة شعر في خطمه، وسوطه بيده. كان مرتديا سترة فارس سباق، محتذياً جزمة، وكان دون شك قد ثبت عليها المهاميز. كان الشخص عاريا تماما، يمشي وكأنه من ذوات الاربع على سجادة غرفته. كان دون اي شك يضربه بالسوط وينشر خطمه ويجلخ بطنه بمهاميزه.

وقد روى هذا هو بنفسه، بصوته المتهجم الابدي التشكك من الفضائح بحيث انه كان من المستحيل ان يعرف احد ان كان متذمراً ومستاء

فعلا: واغلب الاحتمالات انه كان يجد ذلك الامر غير مفهوم. ولكن على اية حال غير مفهوم ليس الى هذا الحد. وربما كان يجده ايضا مقززاً ولكن ليس الى هذا الحد متعوداً شذوذ الاغنياء الذين يظهرون للفقراء والمومسات والقوادات والخدم مجاملة حالمة تتغلب عليها الدهشة اكثر من الاباء ويكنون لهم شيئا من الاحتقار:استحوذ علي هذا، وكأنهم القوا على رأسي بغتة لحافاً يحبسني. وفجأة خيم الظلام الدامس. ربما كنت قد فارقت الحياة. ربما كان ذلك الحارس هو الذي اطلق النار اولا، قبلي، لانه اسرع مني. ربما كنت ماازال مضطجعا هناك على العشب، في قعر الحفرة، في ذلك الشق من الارض الذي تفوح منه رائحة التربة الحية لاذعة سوداء، تلك التربة التي كانت تلصق غرضه الوردي ولكنه لم يكن ورديا، لم يكن سوى أسود، في وسط الديجور الكثيف؛ تلصق وجهي ولكن على اية حال كانت يداي ولساني تلامسها وتشخصها. كانت يداي العمياوان المطمئنتان تلامسانها، في كل مكان، تركضان فوقها وعلى ظهرها وبطنها، بصوت يشبه صوت الحرير، فتلاقيان الدغل المعشوشب وهو ينبت كغريب وكطفيلي فوق عريها الصقيل.

لم اكن اشبع من اجتيازها، وأنا ازحف تحتها، مستكشفا في الليل لكي اطلع على جسمها الهائل الحالك، وكأنني تحت عنزة ارضع الحليب وانا معتز الرجلين عبير حلماتها البرونزية اعني بها التربة العضوية، حتى ادخل في جو خانق من الحرارة والنتانة، وانا ألعق والعق حتى دخلت في حالة السكر، وانا جاثم تحت عمق فخذيها الحريري، كنت اشاهد ردفيها من فوقي يلمعان قليلا، كأن فيها فوسفورا ضاربا الى الزرقة، في ظلام الليل بينما كنت ارشف ولاارتوي وانا احسّ بالوتد او بالشجرة وهي تعلو وتتفرغ جذورها في داخل احشائي فيما كانت كليتاي تحصرانني، وكأنهما لبلاب وخاز، تتحركان على امتداد ظهري تغطيان رقبتي وكأنهما يد سحرية. كان يخيل اني اصغر، كلما كان الوتد يكبر ويستمد

حجمه مني لكي نصبح انا وهو واحدا او ان يصبح هو وانا واحدا. ولم يبق من جسمي سوى جنين مجعد منكمش صغير راقد بين شفتي الحفرة، وكأنني اذوب في داخلها واغور، وانا معلق كواحد من اقزام القردة في اسفل بطن امه، ببطنها واثدائها المتعددة لكي انطمر داخل تلك الرطوبة الضاربة. فقلت: لاتشعل النور وتلقفت ذراعه بسرعة. كانت في مذاقها تشبه المحار المملح. لم اكن اود ان اعرف وأفهم شيئا اخر سوى ان ألعق...

فقالت لي: ولكنك لا تحبني بالحقيقة
فأجبتها: معاذ الله
فقالت: لا تحبني انا... لست انا تلك التي تـ...
فأجبتها: يا ربي يا الهي، مدة خمسة سنوات ومنذ خمس سنوات
فقالت: ولكنك لا تحبني انا. هل تحبني على علاتي. هل كنت تحبني بدون ان... اريد ان اقول لو...
فأجبتها: اسمعيني، لا اريد سماع مثل هذا الكلام منك. وماضير ذلك، دعيني أ... وماضير ذلك وما معناه. دعيني. اني اريد ان أ...

قالب رطب كان يخرج منه الجنود المشاة والخيالة الذين كنت ادفعهم ان كنت اضغط بابهامي على الطين، وكانوا يخرجون من صندوق البذور اي القيثارة وهو اشبه بطبقة مدججة بالسلاح، يحتقرونها وينتشرون حول العالم. كانوا يحملون شارة معدنية على هيئة هلال، تتدلى على نحورهم، بواسطة سلسلة تلمع كالفضة من خيوط وقيطانات من فضة. كان منظرهم جنائزيا قاتلا. واني لاتذكر ذلك المرج الذي وضعونا فيه او الاحرى ميزونا به او الاحرى خزنونا هناك. كنا منبطحين في صفوف متعاقبة ورؤوسنا تلامس اقدامنا، مثل جنود الرصاص المصفوفين داخل علبة كارتون. ولكننا عندما وصلناها إلى الارض كانت ماتزال عذراء

بكرا. في ذلك الوقت ارتميت عليها وانا اتضور جوعا. وجعلت افكر في نفسي واقول: الحصن تقتات منها. فلم لا اقتات انا ايضا. كنت احاول ان اتصور واقنع نفسي بانني انا ايضا حصان. كنت منبطحا كالميت في قعر الحفرة يلتهمني النمل. كان جسمي كله يتغير تغيراً بطيئا، نتيجة لعدد هائل من التحولات الصغيرة، ليصبح مادة لاحس فيها. وفي هذه الحالة كان العشب اذن، يقتات مني وكان لحمي يغذي الارض ويسمنها، وفي النتيجة فان التغيير الذي حصل لايكاد يذكر، وهو انني قد انتقل الى الجهة الاخرى من سطحها مثلما يجتاز المرء الى الجهة الاخرى من المرأة، حيث قد تواصل الاشياء مسيرتها مواصلة متطابقة، اعني انها اي الارض هناك من فوق تواصل نموها لامبالية دائما خضراء كما يقال عن الشعر انه يستمر في النمو على جماجم الموتى، مع فارق واحد هو أني سآكل الهندباء البرية من جذورها، ملتهماً المكان الذي تنضح وتعرق فيه، واجسامنا كاللآلئ تفرز رائحة الجذور اللاذعة القوية، رائحة اليبروح. قرأت يوما ان الغرقى والنساك يقتاتون من الجذور ومن البلوط، وفي احد الاوقات تناولته اولا بين شفتيها، ثم اصبح بكليته في فمها كطفل شره: فكأننا كان الواحد منا يشرب صاحبه ويرتوي منه، يلقم كل منا نفسه للاخر فنشبع جوعنا، آملاً تهدئة جوعي والتهوين عليه قليلا. كنت احاول ان الوكها فانتابتني فكرة وقلت في سري: انها تشبه السلاطة. فالعصير الاخضر الحريف كان يولي اسناني خشونة. وان ورقة عشب حادة جرحت لساني وكأنها موسى احرقتني. وفي وقت لاحق، علمني احدهم كيف اميز بين العشب الصالح للاكل مثلا كالراوند وهو نبتة قصيرة ضخمة الاوراق حامضة الطعم: كانوا قد استعادوا على الفور غريزتهم البدوية البدائية وتحلقوا لتحضير نار يضعون فوقها كلبا يشوونه. كانوا قد سرقوا ذلك الكلب. مازلت اسأل نفسي ممن سرقوه، سرقوه بدون شك من احد الحمقى من هؤلاء الضباط او نواب الضباط المتربصين داخل مقرات الاركان، كاولئك الذي نشاهدهم

بيننا، بزيهم الانيق الذي لاغبار عليه، متصورين انفسهم في مأمن من كل قصف. كان قد جمعهم ذات صباح شخص فتح الباب بركلة رجله، واجبرهم ساخراً منهم بصلية من رشاشة على الاصطفاف في الساحة وقد رفعوا اذرعهم فوق رؤوسهم مصدوعين لايفهمون شيئا لما كان قد اصابهم. يقال ان قادة وأركانا قد اقتيدوا بهذه الطريقة، اركانا تلمع وجوههم وقد ارتدوا أبهى حللهم. لم نكن نتمالك انفسنا من تعنيفهم. كانت سحنتهم بلون دقيق الفحم او زيتونية، تكتنفهم الالغاز ويسيطر عليهم الاحتقار، باسنانهم البراقة الشبيهة بانياب الذئاب. كانت أحرف الحلق تتغلب على اسمائهم التي تجمع بين احمد بن عبد الله او ابوعبده او عبد الرحمن.

كان كلامهم مباغتاً يصدر عن اعماق الحلق. اما اجسامهم فقد كانت صقيلة مرداء كاجسام البنات. كانت هناك ايضا الهندباء البرية. ولكنهم كانوا يستقدمون اعشاباً اخرى، وكأنهم قطعان كاملة منهوكة القوى مختلفة الهندام، بعضهم يعتمر خوذاً مدنية، وعليهم معاطف عسكرية مفكوكة العرى تضربهم عند ألزبلية. وبعد قليل كان المرج قد ديس باكمله تغطيه صفوف الاجسام الممددة تلامس الرؤوس فيها الاقدام. وعندما كان ألفجر رمادياً، كان العشب هو ايضاً رمادياً يغطيه الندى الذي كنت ارشفه حتى يجف ألعشب، وكأنه البرتقال الذي عندما كنت طفلا كنت اعشق ان احدث فيه ثقباً رغم ممانعة اهلي، وان اعصره واعصره شارباً مافي بطنه، فيما كانت حلمات أثدائها تفر من بين اصابعي كقطرات الماء، فارتجت قطرة بلورية وردية على وريقة عشب مائلة تحت النسيم العليل المرتعش الذي يسبق شروق الشمس والذي يحتوى ويعكس في شفافيته السماء المصطبغة بلون الفجر. اتذكر صباح احد ايام تلك الفترة التي لم يكن فيها الربيع ولاالسماء قط انقى واصفى. وفي اواخر الليالي الباردة كنا نتزاحم ونتقارب آملين الاحتفاظ بقليل من الحرارة، وقد تداخلنا الواحد بصاحبه وكأننا ديك البندقية.

واعتقد اني امسكها على النحو التالي. كان فخذاي تحت فخذيها، وكان شعر حضنها الحريري الوحشي يلاصق بطني. كنت احصر حليب ثدييها في راحة يدي، وقد كانت حلمتاهما الورديتان الرطبتان اللامعتان (وعندما ازحت في اصبح لون الحلمة ورديا اعمق واقوى وكأنه اصيب بالتهاب وهيجان او كانه من مادة محببة مهانة. وكان قد بقي خيط لامع يربطها بشفتي. واني اتذكر خيطاً رفيعاً جداً فوق وريقة عشب كان قد ترك وراءه حزمة ضوئية ومعدنية كالفضة كان من النعومة بحيث انه كان ينوء تحت ثقل الحلزون وصدفته الناعمة الحلزونية، كل حلقة من الحلزون كانت مخططة بخطوط سمراء. كانت رقبتها ايضا مصنوعة من نسيج محبب هش غضروفي في آن واحد، يتمطط وينتصب كما تنتصب قرونها القابلة للانكماش. هي التي لم ترضع احداً ولم ترو احداً ولم يشربها احد سوى شفاه البشر الخشنة.

وفي المركز كان يوجد، وكان بامكان المرء ان يتصوره، صدع صغير افقي الصقت اطرافه، كان يسيل ويتدفق منه حليب النسيان) تنتصبان وتنطبقان كبقعتين، كرؤوس المسامير الداخلة في راحة يدي. وفكرت حينئذ انهم احصوا كل عظامي، وكانوا يستطيعون على مايبدو ان يسمعوا هيكلي العظمي بأكمله يصطك في داخله. كنا نرقب قدوم السحر البارد، نقشعر دون انقطاع، منتظرين ساعة وضوح النهار لكي نستحق النهوض. اذ ذاك عبرت بخطوة جبارة وبحذر كل الاجسام المتشابكة التي كانت اشبه بالجثث حتى وصلت الى الممر المركزي، حيث كان الحرس يغدون ويروحون، وقد تقلدوا قلادات معدنية مثل الكلاب: حينئذ وقفت وكنت مازال ارتجف، خلال فترة، وارتعش واحاول ان اتذكر ماشأن هذا الحفل الذي كانوا متمددين كلهم فيه على الارض صفوفاً صفوفاً ورؤوسهم تلامس اقدامهم فوق البلاطات الباردة للكاتدرائية. وحسب ظني انه كان حفل رسامة كهنوتية او حفل ارتداء الثوب الرهباني بالنسبة للفتيات الشابات

المتمددات على الارض، بين فضاء المقاعد المركزي داخل الكنيسة، حيث مر وسط غمامة البخور، الاسقف الذي كان يشبه مومياء مجففة مكسوة بالذهب والدنتلا، يحرك يده اللابسة قفازا من قطيفة، حركة خفيفة وباصبعه خاتم، يرتل بصوت مخنوق لايكاد يسمعه احد ترتيلة لاتينية يقول فيها انهم قد ماتوا من هذا العالم ويبدو انهم يضعون بعد ذلك ستاراً فوقهم. كان السحر رمادياً من كل صوب، ويمتد على المرج. وفي الاسفل كان قليل من الضباب راكدا فوق الساقية. ولكنهم لم يكونوا يسمحون لنا بالنهوض الابعد شروق الشمس. وقبل الشروق كنا هناك نرتجف ونقشعر بكل اعضاء جسمنا المتداخلة المتشابكة. تدحرجت فوقها وسحقتها بثقلي. ولكني كنت ارتجف ارتجافة المحموم اتلمس الظلمة بحثا عن لحمها. كما كنت اسمع خلال جسمها صوتاً مذعوراً شاكياً تائها. فقلت لها: «هل احبك انا؟» صدمتها فاصطدم صوتي بحلقها المختنق ولكنها تمكنت ان ترد علي قائلة: «كلا» ثم عدت فقلت لها: «الاتصدقين اني احبك؟» صدمتها مرة اخرى فاختنقت وانقطع نفسها لحظة وباتت غير قادرة على الكلام ولكنها استطاعت ان تقول لي ثانية:
«كلا»

فاجبتها: الاتصدقين اني احبك. أأنت حقاً لاتصدقين اني احبك. والان هل احبك ام لا.

قولي لي هل احبك؟ فجعلت اصدمها صدماً اقوى، مرة بعد مرَة دون منحها فرصة للجواب.

لم يعد حلقها وعنقها يطلقان سوى صوت غير واضح. ولكن رأسها كان يدور حانقا ذات اليمين وذات الشمال، على الوسادة، وسط بقعة شعرها الداكنة. وكانت تقول: كلا ثم كلا، كلا ثم كلا. كانوا قد حبسوا مجنونا في مدجن للخنازير عند اعلى المرجة، كان من افراد حاميتهم فيما مضى اصابه الجنون

على اثر القصف. كان احيانا يستسلم لصراخ الى مالانهاية له وبدون هدف على مايبدو، صراخ هادئ لم يكن يتعالى او يضج ولايضرب الباب.
كل ماكان يفعله هو انه يصرخ. وكنت احيانا استيقظ ليلا، واذ كنت انصت له كنت اقول: ماهذا؟
فكان يرد عليّ قائلا: «انه المجنون» كان عابسا متجهما دائما وقد تقوقع محاولا ايلاج رأسه تحت معطفه. كنت استطيع ان اراهم وارى ظلالهم السوداء تغدو وتروح بصمت في الممر المركزي وقد غارت رقابهم بمعاطفهم العسكرية مع قلائدهم المعدنية الشبيهة بقلائد الكلاب وهي تلمع احيانا تحت ضوء القمر، وبنادقهم تحت حمالات بناطيلهم، يصفقون بايديهم هم ايضا لكي يستدفئوا كما يفعل الحوذي وهو يقود عربته وقد بلغني صوته من تحت معطفه، مخنوقا وهو يقول: لو كنت في مكانهم لضربته مرة باخمص بندقيتي على وجهه واوقفته عند حده ليكف عن ازعاجنا. لقد انهكه الخوار بهذه الطريقة المستمرة طول الليل. يعوي بدون انقطاع وبدون هدف في وسط الدياجير. يعوي، ثم توقفت هي بغته! فانفك عناقنا وانبطحنا وكأننا انتقلنا الى عالم الاموات محاولين عبثا ان نسترجع انفاسنا. وكان قلبنا يحاول الخروج من صدرنا، مع الهواء عن طريق فمنا. واخيرا مت وماتت وقد اصمّنا ضجيج دمنا الدافق المنحسر وهو يدمدم داخل اعضائنا يتهافت عبر التفرعات المعقدة لشراييننا كالموج العالي عند مصب النهر في البحر. واعتقد ان كل الانهار شرعت تجري في اتجاهها المعاكس صاعدة الى منابعها. وكأننا قد افرغنا كليا لحظة وكأن حياتنا باسرها تهاوت كهدير شلال متجه الى بطننا وخارج منها. في محاولة للافلات والتملص مني ومن وحدتي، متحررا منطلقا الى الخارج منسكبا متدفقا، بدون حد، ينغمر كل منا في الاخر. كأن لم تبق هناك نهاية، كان لم تبق نهاية الى الابد– ولكن هذا ليس صحيحا: لحظة فقط، لاننا اذ كنا ثملين حسبنا ان التدفق دائمي ولكن في المواقع استمر لحظة واحدة، كما

يحدث في حلمك عندما تعتقد ان امورا كثيرة تحدث ولكنك عندما تفتح عينيك تجد ان عقرب الساعة لم يتحرك من مكانه- ثم انحسر ذلك وتهافت في الاتجاه المعاكس ، كما يحدث للمرء بعد ان يتعثر بجدار او بعائق يستحيل اجتيازه، ولكن جزءا صغيرا من المرء يتمكن من تجاوزه ان صح القول، عن طريق الخداع اي بمخادعة العائق الذي كان يمنع ذلك الجزء من الافلات والتحرر، وبمخادعة انفسنا في آن واحد. حينئذ اخذ شيءُ ساخط مكبوت يعوي في وسط وحشتنا المكبوتة، شيءُ محبوس مرة اخرى يصطدم عاصفا بالجدران والحدود الضيقة التي لا يمكن تجاوزها، عاصفا، ثم عاد رويدا رويدا الى الهدوء.وان هي الا لحظة حتى اوقدت النور، فاغمضت عيني وعصرتهما بقوة. كان كل شيءُ بلوطي اللون احمر. وفيما كانتا مغمضتين سمعت خرير الماء الفضي يجرى ويكتسح ويذيب... كنت اسمعه، لجيني اللون منجمدا اسود في وسط الليل فوق «بيتونة» مستودع الحصيد وهو يصب في القنوات وكأن الطبيعة والاشجار والارض كلها جمعاء كانت تذوب في الظلام، غريقة مائعة سائلة وقد جرفها ذلك الطوفان البطيءُ. حينئذ عقدت العزم على ان امضي انا ايضا وان الحق بهم عند الاعرج الذي كان قد دعانا لقضاء الامسية عوضا عن ان اصعد واستلقي على الشوفان البلوطي اللون او ان اعود فاشرب شيئا في المقهى. لم يتوقف واك عن السهر ليلا لحظة واحدة. لم يكن هو خفير الاصطبل في ذلك المساء. ولكنه مع ذلك كان قد مكث هناك: نظر الي وانا امر، دون ان ينبس ببنت شفه، كما راني وقد خرجت تحت المطر الاسود. ولم اتوصل الى رؤيتها في تلك الليلة مثلما لم اتمكن في ساعات النهار. وجدتهم وقد استقر بهم المقام. كانوا ثلاثة مع الاعرج حول المنضدة. كان ايجليزيا يناقش واحدا منهم، بصوت خافت، هو الخادم الذي كان جالسا الى جانب الموقد: اما هي فلم تكن هناك. كنت ابحث عنها بنظري وانا واقف على اسكفة الدار. ولكنها لم تكن هناك. واخيرا سألت ان كان ذلك مجلس سوفييت الجنود او

الفلاحين، ولكنهم اداروا اليّ انظارهم الحذرة الشاحبة. فقلت لهم الايكلفوا انفسهم. كما قلت لهم انني لم اتمكن من ان اتكلم ان العب لعبة سوى المشاركة في معركة. ورحت اجلس بجانب الموقد: كانت فوقه دلة كبيرة من الحديد المطلي بالمينا. والمنضدة التي كانوا جالسين حولهاءكان يغطيها نسيج مشمع اصفر تزينه رسوم حمراء تمثل النخلات والمآذن والفرسان مع أمتعتهم ونساء عند النبع يملآن او يحملن على اكتافهن جرارا طويلة. وكلما كان احد اللاعبين يصفق ورقة لعب، كان يمسك بها في اول الامر مشهرة في الهواء لحظة او لحظتين، ثم يطبق بها بحركة ظافرة او ساخطة؟ على المنضدة التي كان يصدمها بجمع كفه صدمة قوية ثم رأيتها: لم ارها هي، تلك البيضاء التي ظهرت في ضوءالاصطبل الخافت ظهورها العذب الفاتر عند الصباح، وانما رأيت، ان صح التعبير، نقيضتها او عدمها او فسادها، فساد مفهوم المرأة نفسه، مفهوم الرقة والشهوة او عقوبتها: امرأة عجوز تشبه الجدي بوجهها ولحيتها، يهتز رأسها في رجفة مستمرة. التفتت نحوي عندما جلست بالقرب منها على المقعد خلف الموقد. كانت عيناها الشبيهتان بخوختين شائكتين زرقاوين ضاربتين الى الشحوب والبياض وكأنهما انتقلتا الى الحالة السائلة. نظرت اليّ ورصدتني لحظة دون ان تتوقف عن اللوك والمضغ وذقنها الضارب الى الرمادي يعلو وينزل. ثم انحنت عليّ وتقربت الى وجهي حتى لامسته وجلدة وجهها الصفراء المقددّة (وكأنني في ذلك المطبخ الفلاحي ضحية لعملية سحرية– وفي الواقع كان هناك شيْ من هذا القبيل، في ذلك البلد الضائع المنقطع عن العالم، بأوديته العميقة التي لم يكن ينبعث منها سوى رنين اجراس ضعيف عبر تلك المروج الاسفنجية وتلك المنحدرات المشجرة التي اكتسبت لون الصدأ في الخريف. كان هذا ماجرى: كأن المنطقة كلها انحبست داخل جو من الفتور والسحر، واغرورقت تحت غمار المطر الصامت، فاخذت تكتسي بالصدأ وتكشط نفسها بنفسها وتنقرض متفسخة رويدا رويدا، تحت رائحة التربة

العضوية والاوراق المائتة المتراكمة المتكومة التي دب فيها التفسخ البطيء. وانا الفارس والظافر الذي يحتذي جزمة، الذي جاء يبحث في اعماق الليل وفي اعماق الزمن، ويغوي ويخطف اميرة الزنبق التي حلمت بها منذ سنين وفي اللحظة التي ظننت اني ادركتها وحملتها على ذراعي احصرها بها واعانقها، اذا بي وجها لوجه امام عجوز شمطاء مخيفة كانها من رسوم غويا...)

فقلت: اجل، لقد عرفتها. اجل بلحيتها!

ثم توقف احدهم عن الكلام مع الخادم فنظر اليّ بطرفه من فوق الموقد. وقال لي:

هل نلت اعجاب احداهن؟

فاجبته: ذلكم هو غرضي من قدومي الى هنا.

فقال لي: لكنها ربما لم تكن تماما في سنك.

فاجبته: الفرق بيننا كان مائتي سنة تقريبا. ولكن ذلك لايهم كثيرا.

ماذا رأيت ايتها الجدة العزيزة؟

انحنت عليّ اكثر ثم القت نظرة خاطفة صوب الاعرج بينما كان اللاعبون منشغلين باستمرار في رمي اوراقهم، محدثين صوتا صاخبا على المنضدة ثم قالت:

يسوع. يسوع. المسيح. ولكنه ذكي.

كنت انظر اليه من فوق الموقد. غمزني مرة اخرى. قلت له: اصدق ذلك قلبيا. انه اذكى الجميع. اين هو؟

–في الطرقات.

–صحيح؟ كيف ذلك؟

–قالت: بلحيته وبعصا يحملها.

–قلت: رأيته انا ايضا.

–انه يحمل عصاه ولايلقيها البتة وقد اراد ان يقاتلني.

فصرخ الاعرج وهو يلتفت وقال: ماشد حماقتك واسفافك. اما كفاك من سرد سخافاتك للناس.

او ليس الافضل لك، ان تركني الى النوم؟

فقالت الحيزبون: تبا لك. فقهقه الجنود الثلاثة الجالسون حول المنضدة. تسمرت العجوز، هنيهه، خرساء في مكانها، ترصد الاعرج، وهي تنتظر ان يتناول اوراقه، متقوقعة متربصة على مقعدها، فيما كانت عيناها الصغيرتان العديمتا اللون يحيط بهما اطار وردي لامع لمعانا خبيثا بغيضا. وقالت: ياللك من زوج مخدوع: كانت تتكلم بدون انقطاع بين اسنانها وتهمهم قائلة: انهم خبثاء.

أنا وحيدة، وهي ماتزال تردد. ياله من زوج مخدوع مخدوع! ولكنهم كانوا قد استأنفوا اللعب. ثم القت علي نظرة انتصار وانحنت ثانية عليّ وقالت: «لقد طرده وهو ببندقيته، واخذها منه». ولكنه مع ذلك يبقى زوجا خدعته امرأته. حدجته مرة اخرى فوق الكانون فغمزني هو ايضا مرة اخرى. ثم قالت وهي تضحك ضحكة خفيفة: ». بامكانه ان يحتجزه داخل غرفته. ثم انحنت اكثر ودفعتني بمرفقها، فيما كانت عيناها الصغيرتان، وكأنهما اعين الموتى بلونهما الضارب الى الصفرة، تضحكان ضحكاً صامتاً وقالت: «ولكن لايوجد مفتاح واحد فحسب».

-ماذا؟

-لايوجد مفتاح واحد فقط.

فصرخ الاعرج في وجهها قائلاً: ما الذي تقصينه علينا بعد. هلا ذهبت الى مرقدك. ! فرفضت وتنحت مسرعة، فاصطدمت بنهاية المقعد المقابل، ولكن بدون ان تكف عن الغمز واللمز تجاهي، تحرك حاجبيها الى الاعلى، فيما كان فمها الاخرس يصوغ اشكال الكلمات وهي تقول بصوت خافت:

ياللخبثاء! ياللخبثاء! وهي تلوي وجهها المقيت الشبيه بوجه العنزة...بعد

ذلك التوى السرير ثانية تحت ثقلها. كانت عيناي ماتزالان مغمضتين، وانا احاول ان احتجز واحفظ ذلك الكلام الذي لا يحصره حد، تحت جفني. كان يتراوح بين البلوطي والضارب الى الحمرة، ثم يصبح ارجوانياً فاسود ضارباً الى البنفسجي. وكانت تتكون وتتشوه رقع على الجلد بلون الرخام، وبقع غامضة تمر ببطء وكأنها شموس شاحبة تتقد وتنطفئ مسعرة. كنت اعرف انها كانت قد تركت المصباح مشتعلا، وانها كانت تحدجني وتتفحصني تفحصاً حاداً ثاقباً. اقحمت خدي وجبيني تحت ابطها، فتمكنت من سماع الهواء يتغلغل فيها بعد انكماشها، عند كل شهيق، ثم يخرج منها، وقلبها مايزال يخفق ثم يتباطأ شيئا فشيئا. واذ كانت عيناي ماتزالان مغمضتين، انسللت نحوها اجانب منكبها، وكان بطنها يرتفع وينخفض وينبض تماماً كأنه حوصلة طائر (كان الطاووس يرتج بكل كيانه مع الستار. وكانت رقبته تنتفخ وتنكمش، يعلوها رأسه الازرق الصغير الذي كانت تزينه مروحة من الريش، وكان الستار يتمايل بعد ان اسدلته يرتج، وكأنه مادة حية مثل الحياة التي كانت محتجبة وراءه. رفعت رأسي مدة لاتتجاوز جزئياً من الثانية. فرأيت او لم أر في وقت متأخر او مجرد اني ظننت اني كنت ارى نصف الوجه واليد اللذين انسحبا واذا به ينسدل. لم يبق يتمايل بعد ذلك سوى ذيل الطائر الذي انقطعت عنه الحركة هو ايضاً. وفي الغد ايضاً لم نتمكن من رؤيته.

كان الحصان قد مات في الليل فدفناه عند الصباح في احدى زوايا الحديقة التي كانت اشجارها ذات الاغصان السوداء اللامعة تحت المطر وقد تجردت تقريباً من كل اوراقها، تتقطر ماء في الهواء الرطب: حملنا جسم الحصان على عجلة نقل صغيرة ثم دحرجناه في الحفرة. وفيما كانت غرفات التراب تطمره شيئاً فشيئاً، كنت انظر اليه، وقد برزت عظامه تحت جلده مثيرة للاسى، وقد اصبح سرعوفة حشرة اكثر من اي وقت مضى، بقائمتيه الاماميتين الملويتين، ورأسه

الهائل المتألم المستسلم الذي كان يتوارى شيئاً فشيئاً، رأسه الذي كان ينقل تحت المرتفع الترابي المكفهر الذي كان يعلو ببطء، على أثر الردم، تكشيرة أسنانه الطويلة المرة وكأنه يسخر منا، بعد موته مثل نبي تغنيه معرفة وخبرة لم نكن نمتلكها، والسر المخيب للآمال الذي هو اليقين وغياب كل سر وكل غموض. ثم شرع المطر يتساقط وعندما بلغنا الامر التحرك، اخذ ينهمر ليفصلنا عن المنحدر المقابل للوادي، بحجابه الرمادي المعتم تقريباً. بينما كنا نحن جالسين في مستودع الحصيد، بكامل تجهيزاتنا وجيادنا مسرجة تنتظر اشارة التجمع، ونحن ننظر في اطار الباب الستار والمشط الفضي الذي كان ينزل من السطح ليحفر ثلماً حفيفاً على الارض موازياً لعتبة الدار. وقليلا الى الامام، عند الخط الموازي الشاقول السقف، حيث كانت الحصى تظهر جرداء مغسولة حافية، كان الهواء الرطب الجامد يتغلغل، وكان بخار ضارب الى الزرقة يتحرر من افواهها عندما كنا نتكلم. وعلى الستار، كان الطاووس قائماً دوماً بلا حراك محفوفاً بالاحاجي. كنا نرفع عيوننا احيانا خلسة نحوه ونحن نتكلم. كان وجه بلوم الباهت يشبه حبة اسبيرين، باستثناء شعره الاسود والبقعتين اللتين كانت تكونهما عيناه السوداوان المحمومتان. كان يحملُ خوذته بيده. كان رأسه ورقبته النحيفة يبرزان بروزاً غريباً من ياقة معطفه ومن التجهيز الحربي الذي كان يتكون من شرشف مقوي ومن جلد ومن سيور ذلك التجهيز الذي كان متخفيا فيه هزيلا هشا وكأنه داخل قوقعة.

قال واك: لن نغادر هذا المكان. ها قد مضت على انتظارنا ساعة. اراهن على اننا لن نغادر. سوف يضطروننا على البقاء، طول النهار على هذا الحال. وعند منتصف الليل سوف يأتون ليقولوا لنا حلو السروج واذهبوا الى النوم.

فقال له بلوم: لاتشرع في البكاء!

فأجابه واك: انا لست ابكي ولا اتظاهر بالذكاء. هذا كل ما في الامر. اني...

فقلت: والله لادفع ثمنا غاليا بغية الحصول على هذا المفتاح.

فقال واك: اي مفتاح؟
كان الطاووس مايزال بلا حركة.
فأجاب ايجليزيا: مفتاح الحقول. كنا ننظر بدون انقطاع خلال امشاط المطر، ذلك البيت الصامت والنوافذ المغلقة والباب الموصود والواجهة الشبيهة بوجه لاينفذ فيه شيْ. وبين حين وآخر كانت تنفصل ورقة من الجوزة الضخمة لكي تأتي وتهوي على الارض قارب لونها السواد وقد عاث فيها الفساد والبلى.
فقال بلوم: اني أراهنك على ان هذا الشخص هو مساعد الـ...
فأجاب واك: هذا ليس صحيحاً. لانها قد طردته وامتشقت البندقية عندما دخل غرفتها.
قال بلوم: ياللعجب! لانه دخل غرفتها؟
فرد عليه واك: لاعلم لي بذلك. لِمَ لا تذهب وتسأله انت.
فقال ايجليزيا: هو ايضا لا يعرف من الامر شيئاً. اذن عم تتحدث؟
فرد عليه واك: عن لا شيْ.
قال ايجليزيا: صادق واك خادمهم الشخص الذي كان يشبه الدب.
فأجاب بلوم: يمكن التفاهم بين الدببة.
فقال واك: اني ازعجك.
فأجبته: هيا لاتسخط. لقد ساعدته انت على ادخال بطاطته وساعدك هو في معرفة ماذا كان يجرى. إحك لنا ذلك.
فرد عليه واك: لم يساعدني قط في قتل حصان.
فقال ايجليزيا: طيب. لم تكن انت الشخص الملزم بركوبه.
فرد عليه واك: ولست ايضا انا الذي قتلته.
فقلت له: ويل لك!
فقال بلوم: اتركه اذا كان يطيب نفسا بذلك. فالتفت اليه وقال له: اذن هو

مساعد الـ...؟

وقال واك: ولِمَ لا تروح انت وتسأله بنفسك.

اذن كان هو؟

فقلت: انه صديق قديم للعائلة. انه خير صديق للعائلة. فهو يحبهم كثيرا وقد احبهم دوما كثيراً.

وقال بلوم: ولكنها طردته بعد اطلاق النار عليه.

فاجبت: انها عائلة صيادين.

وقال بلوم: هذا مايرويه الدب وليس ماتحكيه العجوز.

فرد واك: يالها من عجوز شمطاء مجنونة!

فقلت: لعلها تلتبس بينهما. لعلها تعتقد بانه مايزال الآخر.

قال بلوم: ومن هو هذا الاخر؟

فاجابه: كنت اتصور انك تعرف كل شيءُ.

وقال ايجليزيا: هل كان هناك شخص اخر؟

كانت امشاط الماء تتساقط بدون انقطاع، وكأن اسنانها اسلاك من فضة او كخيوط معدنية متوزاية تقف حاجزا في وجه مستودع الحصيد. وكانت احدى السواقي تصب ماءها، محدثة صوتا كهدير شلال بعيد:

فقلت: هذا هو اذن سبب امتشاقة بندقيته. انه تناولها لكي يمنعه من الدخول الى البيت.

فقال واك: بما انك تقول ان لديه مفتاح آخر.

ولكن في وضع النهار وعلى مرأى ومسمع الجميع، وبدون جداول وبحجة اقتياد الرقباء الى الغرف لكي يروها، دخل وكأنه السيد المطاع. هذا يعني انك لاتفهم من الامور شيئا اطلاقا. اليس كذلك؟

فقال بلوم: انه رجل يحب الانعزال في بيته ويريد ان يدخل كل شيءُ في كل

مكان.

قال واك: لاافهم شيئا مما تحكون. انتم تتصورون انفسكم اذكياء. وانا اقول لكم انكم تظنون...

فقلت: يبقى ان على الاخر ان يسهر على عائلته.

-من؟

-الأعرج. لانها مسالة شرف.

فقال بلوم: اجل. لم اكن اعرف ان الشرف في عرفهم مفلوق فلقتين يحيط بهما الشعر.

فرد عليه واك: ماأسخفك!

هذه هي الكلمة التي كنت ابحث عنها. كانت على رأس لساني ولكني لم اكن اجدها ان سكان الريف هؤلاء لا ينم مظهرهم عن شيئ.

كانت شبكة من السواقي تجرى على رمل الدرب الاشقر، فيما كانت حافة المنحدر تتفتت رويدا رويدا وتتقشر وتتهاون على شكل قطع صغيرة متعاقبة، كانت تقف لحظة كسد في احد فروع الشبكة ثم كانت تتوارى امام ضغط الماء وقوته. كان العالم كله بأسره يمضي يصاحبه خرير من ماء النبع ومن القطرات المتلاحقة على الافنان البراقة، تنفصل تارة وتتوالى طورا فوق اوراق الصيف ومعالمه الاخيرة. ايام انطوت الى الابد ولن نلقاها مدى الدهور.

ما الذي بحثت عنه في شخصها. وعللت نفسي بالامال، ارقبها منها، مالذي تعقبته فيها سوى كلمات واصوات وانا مجنون مثله تماما مع اوراقه السوداء التي لاتغني عنه فتيلا، وقد شحنت بكتابه مقرمطة وباقوال كانت تخرج من شفاهنا كي نخدع بها انفسنا ونعيش حياة ملأى بالاصوات، ليس فيها من الواقع ومن القوة اكثر من الستار الذي كنا نتصور اننا نرى فيه الطاووس المطرز يتحرك ويرتج ويتنفس، ونتخيل حالمين بما كان يخبؤه وراءه، ونحن لم يحالفنا الحظ بدون شك

حتى في ان نرى الوجه المقسوم الى نصفين واليد التي تركته ينزل ويترقب بحماس حركة خفيفة التيار هواء). وقالت:

بماذا تفكر؟ فاجبتها: بك. ثم عادت فقالت: كلا، قل لي بحقك بماذا تفكر؟

فقلت: بك وانت تعرفين ذلك جيدا فوضعت يدي عليها عند وسط جسمها تماما. كان كالزغب! وكأنعم ريش لطائر، طائر في اليد خير من عشرة على الشجرة كما يقول المثل الانكليزي.

فقالت: لماذا تغمض عينيك؟. فتحتهما، وكان الضوء مايزال يشتعل.

اما هي فقد كانت مضطجعة على ظهرها وقدمها مستريحة على الشرشف المدعوك قليلا. كان خدي يلامس الواجهة الداخلية للفخذ الاخر اصبح في الوضع الحالي الواجهة العليا....

كأن شيئا قد بقي هنا لم تدرسه نائبات الزمن، شيئا من اجدادنالبدائيين الذين كانوا يتعانقون ويتجامعون ويتدحرجون في الظلام بعنف وبعجلة فوق الغبار والاحراج.

فقالت: بماذا تفكر اجبني. اين انت؟ وضعت يدي عليها مرة اخرى وقلت لها:

هنا. فردت علي وقالت: لا. فقلت لها: هل تحسبين اني لست ها هنا؟

حاولت ان اضحك. فقالت: لا، لن تفعل ذلك معي. كل مامثله بالنسبة اليك هو أني اشغل الفراغ العاطفي للجنود، ان شئت كالرسوم المخططة بالطباشير او بالمسمار على جدران المعسكرات على الجص المتقشر. الرسوم هي عبارة عن شكل بيضوي مقسوم الى قسمين تحيط به الأشعة كالشمس! وهي عبارة عن عين عمودية مغمضة تحيط بها الاهداب. وحتى انك لاترى شكلا بشريا...فقلت لها: يالك من لعينة. كفى عن هذا. هل تريدين، هل تستطيعين ان تفهمي وان تتصوري انني مدة خمس سنوات لم احلم بسواك؟ فاجابت:

«بالتاكيد فقلت » بالتاكيد؟ فاجابت: «اجل دعني». حاولت ان تتخلص مني. فقلت لها: ماذا جرى لك ما الذي اعتراك؟ كانت تحاول دائما ان تتملص وان تنهض. كانت تبكي. ثم عادت فقالت كالرسوم التي يرسمها الجنود، وكالاحاديث التي تدور فيما بينهم. كنت اتسمع لهم وهم يخوضون نقاشات ويتشاجرون، في السماء وهم يرقبون هبوط الليل وسقوط المطر فقال بلوم انه يرغب في ان يشرب شيئا حارا. قال له واك بما انه الى تلك الدرجة من الذكاء لم لم يذهب ويطرق باب الدار ويسألها ان تقدم له فنجانا من القهوة. وقال بلوم انه لايحب البنادق وانه يحمل بندقية على ظهره، وانه لم يشمئز بالاذواق التي يتميز بها الصيادون وان ذوقه للطريدة اضعف، وان ذلك الاعرج كان يبدو وكأنه يهفو الى استخدام سلاحه اذ قال: «واخيرا ان من حقه ان يطلق هو ايضا رصاصته عندما يرى ان الجميع، وفي كل مكان يشهرون بندقيتهم الرديئة الصغيرة. وعلى اية حال، انها الحرب) والان لم اعد اسمع سوى صوته. كان الظلام دامسا ولم يعد بوسع احد ان يرى شيئا. وكل المعرفة التي كانت لنا عن العالم تتلخص في ان الطقس بارد وفي الماء الذي اخذ ينفذ الى اجسامنا من كل ناحية، جاريا فوقنا بعناد وباستمرار، في كل منطقة من اجسامنا، ذلك الماء الذي كان يمتزج، الذي كان يبدو وكأنه جزء لايتجزأ من طقطقة الحوافر العديدة الشبيهة بصوت الكارثة النهائية الكبرى على الطريق. واذ كنا نهتز فوق مطايانا غير المرئية، ربما كنا نستطيع ان نعتقد ان كل هذا (اعني به القرية ومستودع الحصيد وظهور المرأة البيضاء والصراخات والاعراج والمساعد والعجوز المجنونة وكل تلك البلبة الحالكة العمياء المأساوية الاعتيادية التي كانت تشكلها شخصيات تدوي وتتشاتم وتهدد احداهما الاخرى وتتراشق باللعنات وتتعثر في الظلام وتتلمس حتى ينتهي بها الامر الى الاصطبل بعائق او بماكنة مخفية هناك في الديجور (لم تكن هذه الشخصيات هي المقصودة فعلا) تنفجر في وجوهها، تاركة لها فقط وقتا لان ترى للمرة الاخيرة،

وربما الاولى ايضا شيئا يشبه الضياء) اوكل هذا لم يوجد قط يوما الا في مخيلتنا او هم حلم او وهم، بينما في الواقع لم نتوقف لحظة عن السير والعدو في تلك الليلة الليلاء الطافحة بالماء والمطر وهي لاتنفك تجيبنا وهي لاترانا....اذن، ربما كانت على حق.

واخيرا ربما كان ما قالته صحيحا، وربما كنت أُبادلها الحديث دوما او ربما كنت في حوار مع واحد قد مات منذ سنوات، نتبادل المفاخرة والنكات والبذاءات والكلمات والاصوات لمجرد ان نطرد النوم عن عيوننا وان يخدع الواحد الاخر ويشجع الواحد الآخر. ثم قال بلوم:

ولكن ربما لم تكن في البندقية رصاصة وربما لم يكن يعرف حتى طريقة استعمالها.

لان الناس تريد كثيرا ان تحول الاحداث الى تراجيديات والى مآس او الى روايات.

اما انا فقلت: ولكن لعلها كانت معبأة. لان هذا قد يحدث. نقرأ ذلك كل صباح في الصحف اليومية.

–اذن ينبغي ان نشتري صحيفة الغد. سيكون فيها في الاقل شيءٌ شيق نطالعه

–كنت اتصور ان هذه الحرب تهمك. وكان يخيل الي انها تهمك مباشرة.

–ولكن ليس في الساعة الرابعة صباحا وانا على فرس هرمة تحت وابل المطر.

–هل تعتقد انها الرابعة صباحا. هل تعتقد مع كل هذا ان النهار سوف يطلع؟

او ليس طلوع النهار هناك. اما الذي ألمحه هناك الى اليمين وسواده افتح مما حوله؟

–اين؟ ماللشيءُ الذي تراه في هذا المرجل الاسخم؟

–بين حين واخر تلوح رقعة مضيئة

–ربما هو الماء. ربما هي صحيفة نهر الميوز

–او الراين

–او الايلب

–كلا ليس نهر الايلب. لو كان الايلب فعلا لكنا رآيناه

–اذن ماهو؟

–نهر صغير لايغير في الامور شيئا

–ما الساعة الان في اعتقادك؟

–ولكن ماشأن هذا في مانحن فيه؟

–هاقد مضت ثلاثة ايام ونحن في عربة القطار هذه.

–اذن لنفترض انه نهر الايلب.

كان الصوتان اللذان لاوجه لصاحبيهما يتناوبان ويتجاوبان في الظلام، لايمتلكان من الواقع اكثر من رنتهما، ينطقان بامور لاتمت الى الواقع بصلة اكثر من كونها سلسلة من الرنات لاتكف عن المحاورة: كانا في البدء ميتين بالقوة كما يقول الفلاسفة، ثم اصبحا ميتين حيين. ثم ان احدهما مات فعلا وبقي الاخر حيا (هكذا ظهرا بالنسبة الى جورج وهكذا ظهرا في الحقيقة). هذا وانهما اي الشخص الميت والشخص الاخر الذي كان يتساءل ان لم يكن من الافضل له ان يموت هو ايضا بالحقيقة (في الاقل لم يكونوا ليعرفوه) قد اخذهما واسرهما، ذلك الشيء الجامد المتحرك في آن واحد ذلك الشيء الذي كان يكشط بثقله سطح الارض كشطا بطيئا (وربما كان جورج مايزال يراه هو، هذا الذي كان يكشط بثقله سطح الارض كشطا بطيئا (وربما كان جورج مايزال يراه هو، هذا الذي كان اشبه بانزلاق وبكشط لايكاد يحسه المرء، بشع ومستمر وراء طقطقة حوافر الدواب الخفيفة الدؤوب: هذا التقدم الاولبي البارد نهر الجليد البطيء هذا الذي يمشي منذ بدء الدهور، ساحقا طاحنا كل شيء هذا النهر الذي كان يتصور

انه يرى فيه هو وبلوم منتصبين متجمدين واقفين على جزمتيهما ومهاميزهما، ممتطين فرسيهما الشمطاوين منهوكتي القوى بعيدين عن كل اذى، وموتى في وسط الاشباح الواقفة هي ايضا بحللها الزاهية الالوان الذابلة وهي تتقدم كلها بسرعة غير محسوسة في مركب جامد من تماثيل عرض ازياء متأرجحة، بدون انتظام على قاعداتها، تكتنفها كلها بدون استثناء هذه السماكة الزرقاء التي كان يحاول ان يراها ويتصورها ويوضحها) وهي تتكرر الى مالانهاية في اعماق المرايا الخضراء، وقال بلوم بصوته المؤثر المضحك:

«ولكن مالذي تعرفه عنها؟ انك لاتعرف شيئا. حتى انك لاتعرف هل كانت تلك البندقية محشوة ام لا. حتى انك لاتعرف هل ان طلقة المسدس تلك خرجت بالصدفة ام لا.

حتى اننا لانعرف كيف كانت الطقس في ذلك اليوم، هل كان مغبراً ام موحلاً عندما عاد هو بخفي حنين مع خزينة من العواطف الثمينة التي لم يشترها منه احد ،لم يشترها منه احد فحسب، وانما استقبلت بالعبارات النارية، فوجد امرأته أعني جدة جدة جدتك التي لم يبق منها الان سوى رميم هش داخل ثوب من الحرير المتجمد في قعر سرداب في داخل كفن أكله الدود هو ايضاً، انه لم يعد باستطاعتنا ان نعرف هل المسحوق الدقيق الضارب لونه الى الصفرة الموجود بين طيات التفتة هو من ذهب ام من خشب، هو الذي كان انذاك فتيا رخصا، له بطن ضامر ونهدان زنبقيان وشفتان وخدان حمرتهما اللذة فوق هذه العظام المصفرة، اذن وجد امرأته منشغلة في تطبيق مبادئها القائلة بالتعري والكشف عن العواطف الحارة، تلك المبادئ التي شجبها الاسبان....»

فقال جورج: «ليس هذا صحيحا، انه....»

ورد عليه بلوم: «ليس؟ ولكنك اعترفت انت بنفسك بان الريب كان يسود عائلتك مقروناً بارتباك الصمت الخجول..وعلى اية حال، لست انا الذي

تكلمت عن الصور العشقية والباب المفتوح بضربة كف وعن الاضطراب والصراخات والبلبلة والأضواء في الليل....»

فأجاب جورج: «ولكن....»

واستطرد بلوم: «الم تقل لي ايضاً انك، ان صح التعبير، لم تشخصه في صورته الشخصية الثانية، في هذه المنمنمة او هذه المداليا التي يرقى تاريخها الى مابعد موته وانه كان عليك ان تقرأ عدة مرات الاسم والتاريخ المكتوبين على ظهرها. ألكي اقنعك بانك....»

فرد عليه جورج: «صحيح، صحيح، صحيح. ولكن...»، كانت قد اكتسبت شيئاً من الضخامة، بمعنى انها اصبحت بدينة شهوانية وتفتحت قليلاً، كما يحدث للفتيات بعد زواجين، وامتلأت فراغات بشرتها. ولكن كيانها كله، وهي مرتدية ذلك الثوب الذي كان بمثابة عدم الاعتراف بالثوب، اعني انه كان ثوباً بسيطاً اي قميصاً بسيطاً نصف شفاف تظهر به وكأنها نصف عارية بنهديها الورديين العاريين اللذين يحددهما شريط، النافرين كلياً من صدرها المنيع، كان كيانها كله يدل على انعدام الحياء وعلى الثراء وعلى الظفر، مع وفرة هادئة للحواس وللنفس المفعمة بالهدوء، اضافة الى ابتسامتها البريئة الضاربة التي تمكننا مشاهدتها عند بعض صور نساء تلك الحقبة (ولكن ربما كان شكلها مستوحى من موضة معينة او من طراز او من مهارة الرسام وبراعته ومراعاته للاصول والعادات، وقد اعتاد ان يصور بريشته الواحدة او بقلمه الشهواني نفسه، ربات البيوت وجواري الحريم الشبقات المسترخيات على وسادات الحمامات التركية؟) باعناقهن المطاطة الشبيهة باعناق اليمام. وبالتأكيد ان المرأة التي كانت هنا هي غير المرأة التي ظهرت امام الرسام، بردنها المشقوق الذي تظهر خلاله البطانة، وهي موضة في عهد الملك فرنسوا الاول، وبجفاف مزاجها وتصنعها وتكلفها، وهي تلبس مشداً مسلكاً بعظم الحوت، وقد تزينت بحلى صلبة باردة.

اذ ذاك فكر جورج في نفسه وقال: «أجل .كأنها قد تحررت في تلك الاثناء وكأن موته قد أ...» فسمع ثانية صوت بلوم، وقد ارتفع ساخرا بل تهكميا، ولكنه على مايبدو، لم يوجه كلامه الى احد الاّ الى قصعته العميقة التي كان يبدو وكأنه يحدثها ويحاورها ويناجيها ويناغيها. فسأل حينئذ جورج نفسه الى اية درجة يستطيع الانسان ان يضعف ويصاب بالهزال دون ان يتلاشى ويتوارى في العدم بفعل شيءٌ هو نقيض الانفجار، ان صح القول: امتصاص الجلد والكيان كله نحو الداخل «امتصاصا. لان هزال بلوم كان فعلا مرعبا، ولان عينيه كانتا غائرتين وجوزة عنقه كانت مدببة بارزة وكأنها تثقب جلده وكان يقول بصوته الذي فقد هو ايضا اوتاره: او لم يرث بالصدفة، علاوة على افكاره الجنيفية عاهة اخرى او انحرافاً مشيناً؟ او لم يكن هو ايضا اعرج مشوه القدمين او شيئاً من هذا القبيل؟ لان هذا لم يكن عيبا كبيراً في تلك الفترة عند النبلاء والاساقفة الجاحدين او السفراء. وعلى كل حال، انت لم تره الا في الصورة او في تمثال نصفي وبندقيته على كتفه وبندقية الصيد ذات العيارين مثل عطيل القرية الاعرج. ربما كان يعرج في نهاية الامر، بكل بساطة، وربما سبب له هذا عقدة فـ...» فاكمل جورج قائلا: «لعله» فاضاف بلوم: او ربما لم يكن الا مدينا. ربما كان قد وقع بين فكي كماشة يهودي المنطقة البشع، يطالبه بتسديد مبالغ السندات التي في ذمته.

وكما تعلم ان الاسياد النبلاء كانوا يعيشون اساساً على القروض. كانت تحركهم عواطف نقية وسخية ولكنهم لم يكونوا يستطيعون عمل شيءٌ يذكر غير الاقتراض، وبدون العناية الربانية التي كان يمثلها بالنسبة لهم هذا المرابي المعقرف الاصابع، لما استطاعوا بدون اي شك، ان ينجزوا عملا جليلا، باستثناء هذا النوع من المآثر التي تتبجح بها عوائلهم في وقت لاحق بهدف تحسين العلائق والسمعة واحتراماً للتقاليد ولكيما يذهب أحد أحفاده بعد مائة وخمسين عاماً الى الحرب وهو يصطحب معه شخصا خادما، اوكان هو بمنزلة خادم، قد تكلف

الفروسية ولم يفعل شيئا اكثر من مجامعته امراته التي ليست في نظره اكثر من فرس وعاشا جنبا الى جنب خلال خريف كامل وصيف كامل ونصف ربيع دون ان يتبادلا كلمة واحدة الا عندما كان يصاب الحصان بالعرج او بشأن خدمة حتى تنتهي بهما الحال الى ان يتبع احدهما الاخر بحرص دائم او الى ان يتوصل احدهما الى ان يقنع صاحبه باتباعه على هذه الطريق التي لم تعد فيها حرب، كما قلت انت وانما امست طريق القتل والمهلكة، حيث كان بامكان اي منهما ان يسقط الاخر بضربة بندقية حربية او بطلقة مسدس، ذلك دون ان يؤدي حساباً امام احد. ويذهب بك الامر الى ان تقول انهما لم يكلم احدهما الاخر (وربما لم يتكلما لمجرد انهما لم يشعرا بحاجة احدهما الى الآخر: لان الامر اقل تعقداً من هذا بدون شك) وقد ابتعد احدهما عن الاخر مسافة، حسب الاصول المرعية وفقا لرتبهما العسكرية من ناحية، ووفقاً لوضعهما الاجتماعي من ناحية اخرى، مثل غريبين، حتى في الفناء الداخلي للمشرب الريفي حيث قدم لك لكي تشرب على حسابه قدحاً من البيرة المثلجة خمس دقائق تقريباً قبل ان يلتقي صلية الرشاشة، مثلما لو كان قد قدم قدحاً بعد سباق رابح في حانة الفرسان. وهذا لما يجعل ان ماخرج من الثقوب ربما لم يكن دما ولكن بيرة تتدفق. لعل هذا ماكنت قد تراه لو أمعنت النظرة، كنت ترى تمثال آخر الفرسان على جواده وهو يتبول بيرة متدفقة تحولت الى نبع من البيرة الفلمنكية فوق قاعدة.......» لم يكن يتوانى لحظة كالمحموم من كشط ماتبقى من الحساء الحامض الذي تتقزز النفس منه في قعر القصعة الذي يعطي طعم المعدن.

كان جورج يلازم الصمت وينظر اليه. كانت قناتا عنقه كحبلين مسحوبين بارزين وهو يوجه الحديث نوعا مابصوته المنخفض الى قصعته ويقول: ماأروع ان يكون للانسان متسع من الوقت يتلهى به بحيث ان الانتحار والدراما والتراجيديا تصبح اوقاتا شيقة للتسلية واستطرد: « ولكن عندنا في البيت كانت

لنا حاجات كثيرة نقضيها». باللاسف (لم اسمع قط أحداً يتندر بواحد من هذه الاحداث المتميزة المشوقة. واني لادرك الان ان ذلك نقص في العائلة وقلة ذوق يؤسف بها، ليس لانه لم يبرز فيها بلوم واحد او اثنان او اكثر دفعهم الاغراء الى ان يفعلوا ذلك يوما ولكن لانهم لم يجدوا بالتأكيد حيزا من الوقت او الدقيقة اللازمة. وكنت افكر باني سأفعل ذلك غداً، ثم ارجي عزم اليوم الى الغد، لانه في الغد كان علي ان استيقظ مرة اخرى في الساعة السادسة وان اباشر فوراً الخياطة والتفصيل او حمل بالات القماش الصغيرة المغلفة بقماشة مربعة من السرج الاسود: بعد الحرب ينبغي لك ان تأتي لتزورني سوف اطلعك على شارعنا. اولا، يوجد مخزن مصبوغ باللون الاصفر المشابه للخشب وقد كتب فوق زجاج واجهته بالحروف الذهبية: « جواخة اقمشة شركة زيلنيك، البيع بالجملة». ولاتجد في داخله سوى الاقمشة ولكنها ليست كما تجدها في بعض المخازن التي يخرج من بين رفوفها بائع انيق متعطر لوحة خشبية رقيقة لف عليها طول من الجوخ الرقيق ينشره امامك بحركات انيقة: يضاهي سمك الطول سمك جذع شجرة قديم تقريباً، بامكانك ان تسكو به وحده عشر عوائل. وهناك اقمشة قبيحة ثخينة وداكنة. والمخزن الذي يخيم في داخله الظلام الدامس يتلقى الانارة عن طريق ستة او سبعة مصابيح، زال بريقها متدلية عند طرف انبوب من الرصاص اكتفى الكهربائي بتمرير سلك في داخله بدلا من الغاز ولكن هذه المصابيح ماتزال هي نفسها مدلاة هناك منذ خمسين او ستين عاما، اما المخزن الثاني فهو مصبوغ بلون يضرب الى الحمرة. ويختلف ايضا عن المخزن الاول بقاعدته التي هي تقليد للرخام بلونها الاخضر المعرق الفاتح. ويظهر اسم الشركة دائماً على الزجاج الاسود مكتوبا بالحروف الذهبية نفسها وهو: «البيع بالجملة، بطانات واصواف. دافيد وشركائه، جواخه فرنسية». وترى في الداخل جذوع الاشجار الضخمة نفسها وقد لفت عليها اقمشة حزينة نفعية وقبيحة اما المخزن الذي يليه

فقد صبغ هو ايضا ولكن باللون الاصفر البولي كتقليد للخشب واسمه: « جواخه وبطانات وولف». وبعد هذا المخزن تأتي بوابة كبيرة لمرور العربات، وفوقها اطار مزخرف مستطيل يحمل اسم: «ايجار العربات اليدوية وبيع الفحم» وفي مؤخر المحل تجد الفحام وفوق ، رقعة الشركة، وفي نصف الدائرة الكائن فوق البوابة، توجد نافذة تكاد تكون مربعة الشكل، لابد انها تعود الى غرفة واقعة فوق الرواق. لطالما تسألت كيف يستطيع امرؤ ان يقف على رجليه فيها، ومع هذا فانها آهلة بالسكان، بما ان فيها سترا من التول وشتلات خضراء في قحوف معلقة بالدربزون الحديدي الصغير. وبعد ذلك نجد ان الحائط نفسه تكسوه طبقة من الصبغ البلوطي الضارب الى الحمرة. كما ان الدكان الذي يأتي بعد الرواق يحمل اسما مكتوبا بالحروف الغوطية هو: « خمور ممتازة في القبو القديم، مشروبات روحية» ثم تجد مرة اخرى، واجهة من تقليد الخشب الاصفر تحت اسم: « اقمشة زولنسكي بالجملة وشبه الجملة بدلات رجالية وولادية» وبعد ذلك تأتي زاوية الشارع ومقابلها حانة تحمل اسم: «مقهى البهلوان تبوغ » وقد كتب بالاحمر على خلفية بيضاء، والواجهة حمراء قانية، تتخللها لوحات حمراء فاتحة، والباب الركني يقع في الزاوية وهو مشرع على الشارعين مفتوح دائما الا عندما يكون الجو باردا جدا، بحيث انك تستطيع دائما ان ترى شخصين او ثلاثة وقد استندوا الى التوتياء. لايكونون من ناس الشارع ولكن عمالا ومحصلين وممثلي شركات يأتون الى المنطقة لاصلاح عطل او للقيام بجولة، وهم يلمعون جهاز طهي القهوة البراق، كما ترى الخادمة وراء التوتياء، وتوجد علبة رسائل زرقاء من يسار الباب وفوقها تقرأ مرة اخرى كلمة «تبوغ» باحرف كبيرة مكتوبة عموديا باللون الاصفر على خلفية حمراء. ومن الجهة الاخرى اي من يمين الباب تجد لوحة ضيقة عالية رمادية فيها معين عمودي احمر تقرأ فيه مرة اخرى كلمة «تبوغ» مكتوبة باللون الاصفر وتحتها عبارة «اوراق وطوابع» وتحتها رسم لعظمي الكاحل خط بالفرشاة

ورسم لخصلتي شعر وتحتها ايضا نقرأ كلمة «تلفون» وبعد المقهى باني دكان أو الاصح ليس دكانا، لانه لاتوجد واجهة بالمعنى الحقيقي للكلمة ولكن مجرد نافذة كبيرة وباب، وحائط الشركة مصبوغ حتى الطابق الاول باللون البلوطي ونقرأ بالحروف البيضاء: « صناعة القطن المندول اقطان مفتولة وحشوات كتف من جميع الانواع البيع بشبه الجملة»، بضائع مخصصة للخياطين والفرائين وصانعي الخوذ وبائعي المشدّات وتجار الجلود والصقالين والسمكرية وبائعي الحلي والمجوهرات الخ.

بامكاني ان استمر واردد لك كل هذا عن ظهر قلب ترداداً معكوساً أو بدءاً من الوسط او من النهاية مثلما يروق لك. لقد شاهدت هذا مدة عشرين سنة من نافذتنا ومن الصباح حتى المساء. هذا وكنت ارى الناس محملين بادراج الاقمشة الضخمة وهم يمشون مرتدين بلوزات رمادية وكأنهم يمضون وقتهم في حملها ونقلها حملا ونقلا لانهاية لها، من دكان الى اخر من مؤخر مخزن الى مؤخر مخزن اخر، وفي كل هذه المحلات لاتطفأ الاضواء اطلاقا من الساعة السادسة صباحا حتى الحادية عشرة ليلا، دون انقطاع، واذا ما انطفأ فذلك لان اصحابها لم يجدوا بعد وسيلة لقضاء اربع وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة في جر إبرة او تشغيل مقص او حمل ادراج القماش او صنع حشوات اكتاف او قماشات صوفية أو قطنية ناعمة. فاذا سلمنا، والحالة هذه، بأن امثالا عديدين لبلوم راودتهم فكرة الانتحار عددا من المرات اجهله، وهذا الامر من قبيل الاحتمالات، كيف تريد ان يجدوا لااريد ان اقول، حتى الـ.....

–فقلت له: « وهذا لايعني ان ذلك لايحدث. مالك الا ان تقرأ في الصحف. هناك كل يوم اشياء من هذا القبيل، في الصحف» بينما كان ينظر الي، كان الرذاذ يتساقط على سترته المفصلة من الجوخ، على قطرات ناعمة زئبقية وفضية، وكأنه غبار رصاصي فوق منطقة الكتف التي كانت تتجاوز افريز الدار، في الوقت الذي

كانت تصلنا الاصداء المتنافرة والاصوات الناشزة ونتف الغضب والحماس المتطايرة بما يسمونه بالحزين الدائم الذي لاينضب او الأصح الحزان او الاحرى مبدأ كل عنف وكل هوى يبدو متخبطا بليدا كسلان لاهدف له على وجه البسيطة، كالرياح او الاعاصير التي لاهدف لها سوى غضبها الاعمى التافه، وهي تهز هزا وحشيا ودون تبصر ما تلاقيه في طريقها. لعلنا كنا قد وقفنا على ماكان يعرفه ذلك الحصان وهو يموت، وقد استطالت عينه المخملية الغارقة في التفكير عينه الحلوة الفارغة التي كنت، رغم فراغها، استطيع ان ارى أشباحنا تنعكس فيها، كما كنت ارى عين الصورة الشخصية الدامية المستطيلة هي ايضا الملأى بالايعاز والحلوة عينا كنت اطرح عليها اسئلة كثيرة. وكان يقول لي: «هذا يدخل في باب المسرح والتراجيديا والرواية المختلفة يسرّك فتضيف اليه مايروق لك. »فاجبته: «كلا» فقال لي: « وعند الحاجة تخترع من عندك ما تشاء». فأجبته: ؟ «كلا». يحدث هذا كل يوم. كان باستطاعتنا ان نسمع تلك العجوز الشمطاء البلهاء تصعد الحسرات البطيئة، دون انقطاع، من داخل بيتها، بعينها الجافة، وهي تمايل من الامام الى الخلف على اريكتها، بينما كان الاعرج يقوم بدوريته ببندقيته المعباة برصاصات الصيد، وهو مستعد للذهاب وحده عارجا متخبطا في الحقول الاسفنجية وعبر الروضة المبتلة، حيث كانت اقدامه تصعد ببطء، محدثة صوت امتصاص خافتا. اما العميد فقد كان يتبعه اعوانه متخبطين جميعا لاهثين وراءه، فيما كان هو نشطا رشيقا جافا لااحساس له، «تماماً كقطعة خشب هرمة، بيده يطلق رصاصة نحو رأسه لم تحدث بالتأكيد صوتا اكثر من صوت انكسار غصن متهري ثم يسقط جثة هامدة بهامته الصغيرة المتجعدة، هامة فارس سباق، وبجزمته الصغيرة اللماعة جزمة فارس سباق. فقلت له: «هل هذا من اختراعي. أهي قصة انا اختلقتها؟ كنت اتخيله عارجا يقرضه ويلتهمه ذلك العذاب، يلاحق طريدة كالكلب التعيس ويلاحقه العار والاهانة العظمى

التي تكبدها من زوجة اخيه الذي رفضوه مقاتلا، في تلك الحرب، وأبوا ان يسلموه بندقية. وقال: « هيا الق هذا السلاح جانبا. لانه بهذه الطريقة تقع الحوادث».

لكنه لم يرد ان يسمع شيئا. كان ظاهريا. متمسكا بعدة الصيد هذه وبهذه البندقية التي حسب نفسه وهو يحملها وكأنه في حادث صيد. كنت افكر في سري أنَّ هذا هو سبب عدم رضاها بشراء بندقية الصيد هذه لي من فرط تردادها قصص عائلتها التي لا اول لها ولاآخر، قصص اجدادها. وكما رفضت باصرار ان اتعاطى المسايفة بحجة ان احد اعضاء اسرتها، اجهله انا، كان قد لقي حتفه في منازلة، فاخترق سيف التدريب المفلول عنقه، هذا اللهم اذا كانت قد قرأت هذه القصة في جريدة هي ايضا في زاوية الاخبار المحلية التي تنشر اخبار الحوادث والجرائم، زاوية الحوادث الاجتماعية التي تحكي عن الولادات والاهواء الهوجاء التي يثيرها جمال جسم اميرة الغاب النائمة المحوطة والمختبئة هناك الى الوراء، فيما كان ذيل الطاووس يتمايل ببطء ولكن لاوجود للاميرة الاسطورية ليدا. من اي عرق ومن أي محتد الهي اذن هو هذا الطائر المتباهي المغرور الابله الذي يمشي مختالا بريشه الزاهي الالوان، على عشب حدائق القصور ووسادات الخدم؟ كنت اتخيله في هيئة احدى هؤلاء الـ . . . . كنت استطيع ان المس واجس واعصر نهديها وبطنها الحريري العاري تقريبا، لانها كانت قد اتشحت بذلك القميص الذي كان ينتصب منه عنقها بلون الحليب. فقلت له: «هل تسمعني. ان الفكرة الوحيدة التي بامكانها ان توحيها الينا هي ان تزحف وتميل كالنبع وتلعق وفساتينها التي كانت اشبه بالقمصان خضراء شاحبة مع شريط يحصر. . . . ها . . . اجل ما اعظم الفرق بينها وبين تلك الصورة الشخصية القاسية الضاربة الشبيهة بديانا القناصة. وفي هذه الصورة كان ينبغي لها ان يكون كلب سلاقي متمدد حرد تحت قدميها. اما فيما بعد فعلى العكس ينبغي ان يكون بجانبها كلب

صغير مجعد الشعر تقرب اصابعك الى فمٓه فيرتعش من فرحه ويبادر الى لعقها بلسانه الطري ، يتلوى من المتعه التي يشعر بها وهو يتأوه ويختلج ، كسمكة في الماء وكالصور التي نراها مرسومة على الجدران ، مثلما سبق ان قالت تمثل رسمين هيروغليفيين ومبدأين مبدأ الذكورة ومبدأ الانوثة لا يكون مبدأ الذكورة فيها سوى علامة تشبه مقصا مغلقا ، تحته دائرتان ، مثل حلقتين تدخل فيهما ابهامك وسبابتك ، ورأس المقص منتصب الى الاعلى والدائرتان الرمزيتان متجهتان الى الاسفل تحيط بهما خطوط رمزية كأنها اشعة أما مبدأ الانوثة فبيضوي يقطعه خط وسطي ، وكلاهما اشبه بجرمين يتألقان في فلك الجدران الداكنة ، وقد رسما بواسطة رأس مسمار . واذ غلبت على أمرها الان ورفضت ، فقد تجرأت على ان تطلق صوتا طفوليا ، ربما كان حسرات او شكوى او نقيضها . كان الموسم انذاك خريفاً مرة اخرى ولكننا خلال سنة ، كنا قد تعلمنا لا ان ننزع هذا الزي الذي لم يعد الان سوى اثر جرح مخجل لاقيمة له فحسب ، ولكن ايضاً ، لوصح التعبير ، تعلمنا ان ننزع جلدنا او الاصح جلدنا الذي انتزع منه ما كنا نتصور قبل عام انه يحتويه ، اعني بذلك انه لم يعد يحتوي جنودا ، حتى ولا بشرا ، لاننا تعلمنا شيئا فشيئا ان نكون اشباها للحيوانات ، نأكل ، دون تحديد الوقت ، كل ما وقع بين ايدينا ، شريطة ان نتمكن من مضغه وابتلاعه . كانت هناك اشجار بلوط ضخمة عند اطراف الغابة التي كانت توازي المعسكر وكان البلوط يسقط ويتناثر على الطريق التي كان المحليون يذهبون لجمع اسقاطه منها وكان افراد الدورية يصرخون في وجههم في البدء يطردونهم ولكنهم كانوا يعودون مصرين صبورين عنيدين . وفي النهاية كانوا يسكتون عنهم ويتناسونهم ويحرصون اكثر على مراقبة اي ضابط قد يأتي . ؟اختلطت بهم وانا منحن الى الارض°اتظاهر بالبحث عنه وبوضع بعضه في جيوبي . كنت ارصد الضابط من°زاوية عيني ، وفي احد الاوقات أدار ظهره فاصبحت في الحال داخل الدغل اركض لاهثا على

اطرافي الاربعة كحيوان عبر الخيس اجتاز العليق الذي كان يخز يدي ولكن دون ان اشعر لاني كنت اركض واعدو دون توقف على اطرافي الاربعة. كنت كلباً وقد تدلى لساني بعد العدو واللهاث. كنا كلانا كالكلاب.

كنت استطيع ان ارى تحتي حقويها الفارغين، وهي تدمام وفمها يكاد يختنق ويحجب صوتها الممزوج باللعاب على الوسادة المدعوكة، ومن وراء كتفها خدها الطفولي الراقد وثغرها الطفولي المنتفخ الشفتين وقد كانتا متعبتين مغفورتين قليلا تطلقان الدمدمة. بعد ذلك انبريت ارى شيئا فشيئا واعاين مرة اخرى مستطيلَ النافذة المفتوحة، والسماء وقد اصبحت اوضح ونجمة واحدة ثم اخرى فأخرى ايضا ماسية الشكل باردة جامدة، وبينما كنت اتنفس بصعوبة كنت احاول ان أُحرر احدى ساقي تلك التي كانت تنوء تحت ثقلنا كلينا مجتمعتين. كنا اشبه باحدى بهائم سفر الرؤيا الذي يروي لنا نهاية العالم. ولهذه البهيمة رؤوس متعددة واطراف متعددة تزحف في الظلام. فقلت: «ما الساعة الان؟ فأجابني: «ما وجه التغيير الذي قد تحدثه معرفتك للوقت. ما الذي تنتظره، النهار؟ وماذا يغير النهار ليت شعري. هل انت الى هذه الدرجة مشتاق لرؤية وجهينا القذرين؟» كنت احاول ان اتنفس وان ازيح الثقل الذي كنت ارزح تحته وان القى الهواء. ثم لم اعد اشعر بالثقل وكل ما كنت احسه في الظل كان حركات خاطفة صامتة وخفخفات ثياب. صحوت تماماً وقلت: «ماذا تفعلين؟» لم ترد عليّ. صار بمقدورنا ان نميز الاشياء تمييزاً غامضاً. لعلها كانت تبصر في الظلام كالقطط. فقلت: «ياربي. ما الذي يجري. ماذا تفعلين ردي عليّ». فقالت: «لا شيء» فقلت لها: «انتِ...» بعد ان صحوت تماما جلست على السرير واشعلت الضوء. كانت هي، وقد ارتدت ثيابها، تحمل فردة حذائها بيدها. ان هي الا لحظة، واذا بي ارى وجهها البالغ الهشاشة والجمال، وجهها المأساوي، وعلى خديها خطان لامعان. كان وقتئذ اسير الحيرة

تائها فغاضباً وقاسيا. وكان فمها ايضا قاسيا عندما صرخت بي تأمرني ان اطفئ هذا المصباح فانا لست بحاجة الى النور . فأجبتها على الفور : «ماذا تـ . . .» فردت عليّ : «اطفئ اقول لك اطفئ . ألا تسمع . اطفئ !» وفجأة سمعت صوت انكسار قنديل السرير الذي تدحرج وتحطم عندما رمته بحذائها . لم اعد ارى شيئا هنيهة . فقلت لها : «ولكن ماذا دهاك .» فاجابت : «لا شيء» فشرعت اسمع مجددا الاصوات الخاطفة الصامتة في الظلام وفهمت انها كانت تبحث عن حذائها وانا أسائل نفسي كيف لها ان تتصرف في وسط تلك الظلمة واقول : «واخيراً ما الذي يجري . » ولكن فيما كانت ماتزال تفتش عن حذائها قالت : «هناك قطار في الساعة الثامنة .» فأجبت : «قطار ؟» ماذا تقولين . «قلت لي ان زوجك لن يعود الا غداً» . لم ترد عليّ بل كانت تلهي نفسها في الظلام . لابد انها كانت قد عثرت على حذائها وانتعلته . كنت استطيع ان اتخيلها واقفة تروح وتغدو فقلت : «يارب سترك» ثم نهضت . ولكنها ضربتني فسقطت على السرير وعادت فضربتني مرة اخرى . وكانت تخرج من فمها القريب اليّ صوتاً كقرقرة الماء كانت تحاول ان تبتلعه . واعتقد انها كانت تقول : « اتركني . يالك من قذر .» فاجبتها : «ماذا؟ فردت عليّ قائلة يالك من انسان قذر نذل . ألم يكن باستطاعتك ان تتركني مرتاحة . لم يعاملني احد قط حتى الان مثل . . .» فقاطعتها : «اية معاملة ؟» فاجابت : «لا شيء لست شيئا في نظرك بل أنا أقل من لاشيء» فقاطعتها : «اف» .

فقالت: «انا التي... انا التي...» فقاطعتها قائلا: «هيا، هيا، فردت عليّ بقولها : لا تلمسني . فقلت لها : «هيا» . فأجابت : لا تلمسني . . . فقلت : سأرافقك . لن تستقلي القطار . ساصحبك بسيارتي . فاجابت : «دعني ، دعني ، دعني وشأني . .» وفي الغرفة المجاورة طرق شخص عليّ الجدار . فنهضت وفتشت عن ملابسي : وانا اقول يارب سترك ! اين . . .

العائد اليّ. ولكنها عادت فضربتني كيفما اتفق في وسط الظلام ، بشيءٍ صلب كان في اعتقادي حقيبتها . وضربت عدة مرات بكل قوتها واصابتني مرة في وجهي ، فشعرت بنكهة ضرباتها الغريبة العنيفة وكأن اللحم ينفجر على وجنتي في داخلي اضافة الى الالم ، عصيراً أخضر حامزاً لا تتقزز منه النفس مشعشعا . واذ فكرت بالجلد وبنكهة الخوخ والشاهلوج الناضج الضارب الى الزرقة المشقق وعصيره المسكر . تخليت عنها فسقطت على السرير وانا أجُسّ وجنتي ثم شرعت اسمعها تروح وتغدو مسرعة بحركات سريعة واضحة ، حركات تمتاز بها النساء في اشاعة الترتيب والنظام في البيت مطأطئة رأسها لكي تلتقط شيئا . سألت نفسي كيف تستطيع القيام بذلك ولكنها كانت دون شك ، تستطيع ان تعاين في الظلام . ثم سمعت صوت قفل حقيبتها وهي تطبقه . بعد ذلك سمعت قبقبة كعبيها وهي تجتاز الغرفة مسرعة ، ورأيتها بعد ذلك مرة على ضوء مصباح الممر ، ولكني لم أرَ وجهها : رأيت خصل شعرها وظهرها يبرز واضحا في الظلام ثم انغلق الباب . سمعت صوت خطاها الحثيثة يبتعد ويضمحل ، وبعد ذلك لم اعد اسمع شيئا . بعد لحظة احسست بطراوة السحر . فسحبت الشرشف عليّ معتقداً ان الخريف لم يعد بعيدا جدا ، وفكرت في ذلك اليوم الاول ، قبل ثلاثة اشهر عندما كنت قد عرجت لزيارتها . ووضعت يدي على ذراعها وجعلت افكر انها ربما كانت على حق ، وان النساء لا يعملن بمثل هذه الطريقة واني بمثل هذه الطريقة لن افلح (ولكن كيف يمكننا ان نعرف ذلك) . لعله كان باطلا وخاليا من اي معنى وعاريا من صحة تدوين سطور مقرمطة ومخربشة على الورق ، تماما كالبحث عن المعنى خلال الكلمات ، لربما كانا كلاهما على حق ، لا سيما هو الذي كان يقول عني اني اخترع وازروق القصص من لاشيء ، مع ان الجميع كانوا يطالعون ذلك في الصحف بحيث انه يجب ان نصدق ان بين المخازن ذات الواجهات المصنوعة من الخشب الكاذب الاصفر باسمائها السوداء والذهبية والمقهى او بين منتصف

الليل والساعة السادسة صباحا او بين درجتين من الجوخ كانا يجدان الوقت الكافي والمكان الكافي لكي يهمّا بامور كهذه – ولكن كيف يمكننا ان نعرف ؟ كان من الضروري ايضا ان اكون ذلك الشخص المختبئ وراء السياج وأنا انظر اليه وهو يتقدم بهدوء ، سباقاً الى الموت على هذه الطريقة متبخترا ، كما قال بلوم كالطاووس وقحا بليدا متعجرفا فارغا مستنكفا او لعله لا يخطر بباله حتى ان يجعل حصانه يعدو او ربما لم يسمع صياح اولئك الذين نصحوه بعدم التقدم ، او لعله لم يفكر حتى ان يجعل بامرأة اخيه الممتطية او بالاحرى بالمرأة التي امتطاها اخوه في السلاح او على الاصح بالفروسية ، بما انه كان يعتبره ، في هذا المجال ، ندا له أو ان شئت شيئا ضدا له ، بما انها هي التي كانت تهتلم له او يستلم لها حورية واحدة ومطية واحدة لاهثة محوزقة تتقدم اذن في عصر يوم هادئ تسألني :

ما الساعة الان في اعتقادك ؟

لو اخذنا بنظر الاعتبار ان الطريق تتجه شرقا وغربا ، على وجه التقريب واني في ذلك الوقت كنت استطيع ان ارى ظله ، وهو على فرسه قصيرا نحو اليمين ومتجها الى الخلف بزاوية تقارب الاربعين درجة ، واننا صرنا في النصف الثاني من شهر ايار ، فاني اعتقد ان الشمس اذن كانت في وجهنا مائلة الى اليسار (وان سبب عدم امكاننا رؤية الاشجار والسطوح الاردوازية ومستودعات الحصيد والبيوت البراقة كالمعدن او كالخوذ في وسط ذلك الجو المخضوضر الآن من جهتها الظليلة السوداء هو ان عيوننا كانت شبه عمياء يكسوها شيء كأنه الحصى او كاغد الصقل ، نتيجة لقلة النوم) كان موقع الشمس اذن في الجنوب الغربي اي ان الساعة كانت حوالي الثانية بعد الظهر ولكن انّى لنا ان نعرف ذلك ؟ كنا نحاول نحن الاربعة ان نتصور انفسنا ، وظلالنا ونحن ننتقل على وجه البسيطة صغارا جدا ، نقطع مسارا معاكسا يوازي تقريبا المسار الذي سلكناه قبل عشرة ايام ، ونحن نصول لمقابلة العدو . اذ ان محور القتال قد انتقل انتقالا طفيفا في تلك

الاثناء . مما اسفر عن وجوب نقل العدة والعتاد من الجنوب الى الشمال بمسافة بلغت خمسة عشر او عشرين كيلومترا ، بحيث ان المسار الذي اتخذته كل وحدة يصبح بامكان تمثيله بالاسهم او بالاتجاهات التي تصور التحركات التي قامت بها اصناف القوات (كالخيالة والمشاة ورماة الرمانات) المشاركة في المعارك ، وتظهر على خرائط هذه الاصناف المكتوبة ، بالحروف الخشنة لانها انتقلت اباً عن جد ، اسماء ابسط القرى والضياع والمزروعات والمطاحن او التلال او المروج او الامكنة المعنية التي تحمل اسماء خاصة بها :-

الرياح الاربع
الشوكة
السرطان
حجر الذئاب
مؤخر الحمار
التاندينبيرة الحسناء
عصا الشيطان
عصا الطير
تريوكس الشيطان
الارنب الابيض
المتملق
صليب الكرملي
مزرعة البراغيث
مزرعة الجنون
المزرعة البيضاء
مزرعة الاسلاك الحديدية

الغابة الساقطة

غابة الملك

طول الغابة

الجورنيلات العشر

الحذاء البالي

المرجل

الرمادية

الأسل

مرج فتاة الورد (وهي فتاة فاضلة تمنح تاجا من الورد لصيتها الحسن)

حقل مارتان

حقل بنوا

حقل الارانب

كانت التلال ممثلة على الخارطة بخطوط صغيرة مروحية الشكل تحد خط قمة متموجا بحيث ان ساحة المعركة تبدو وقد تخللتها عشرات من الاشكال الملتوية التي تشبه ام اربع واربعين. ويتمثل كل صنف من صنوف القتال بمستطيل صغير ينطلق منه الاتجاه المناسب وينحني كل منها لكي يأخذ شكل الصنارة تقريبا، اعني السهم الموجه الى عكس جزء الخط، مشكلا مايشبه السارية على ان قمة المنحني الموصوف اعلاه تتفق مع النقطة التي تم الاتصال عندها بالقوات المعادية.

كان اذن بالامكان تمثيل وقائع المعركة التي دارت، باكملها على خارطة اركان الحرب، بواسطة سلسلة من الصنارات المتوازنة ورؤوسها متجهة نحو الغرب. لايأخذ هذا التصوير المبسط لتحركات الوحدات المختلفة بالطبع بنظر الاعتبار، لاطوارئ الارض ولا العوائق غير المتوقعة التي تبرز في اثناء القتال. وان للمسارات الحقيقة في الواقع شكل الخطوط المتكسرة المتعرجة التي تتطابق احيانا

وتتشابك وكان من الاوفق رسمها، في البدء على شكل خط سميك واضح، ثم تسترق تدريجيا وتنتهي بخط منقط تتباعد نقاطه وتتفتت حتى تتلاشى تماما، كرسوم الاودية التي تكون في البدء عميقة ثم تتلاشى- على نقيض الانهار التي يتسع عرضها تدريجيا ويكبر ابتداء من النبع وانتهاء بالمصب—وتزول وتتبخر وقد امتصتها رمال الصحراء.

ولكن اي اسم نطلق على هذا القتال: فهي ليست حربا ولاتدميرا او ابادة لاحد الجيشين، وانما هي على الاصح تلاشي ماكان قبل اسبوع افواجا وبطرية واسرابا وزمرا ورجالا وامتصاصه من قبل العدم بل هي اكثر من هذا، انها زوال فكرة ومفهوم الفوج والبطرية والسرية والزمرة والرجل بل هي اكثر من كل هذا، انها تلاشي كل فكرة وكل مفهوم، بحيث ان العميد، في النهاية لم يعد يجد سببا يتيح له البقاء على قيد الحياة ليس عميدا فحسب اعني جنديا وانما مجرد خليقة عاقلة، لذا فقد انتحر باطلاق رصاصة على راسه.

كان الخيالة الاربعة يقاومون النعاس، ويتقدمون دون توقف عبر المراعي التي تفصلها عن بعضها الاسيجة، وعبر البساتين ومجاميع البيوت الحمراء التي تكون تارة منفصلة عن بعضها وطورا متقاربة وملتصقة على حافة الطريق، حتى تشكل احيانا شارعا ثم تعود فتتباعد، والغابات المتفرقة تنتشر في الريف كبقع شبيهة بالغيوم الخضراء المبعثرة تبرز منها المساكن مشكلة قرونا مثلثة داكنة الالوان.

كانوا اذن جنودا لانهم كانوا لابسين زيا موحدا، ومسلحين اعني ان الاربعة كانوا مجهزين بالسيف الذي يعرف بالسيف الاعوج الذي يبلغ طوله متراً واحداً ووزنه كيلوين، مقوس الحد قليلا وقد شحذ بعناية فائقة واستودع غمدا معدنيا داخل غمد من قماش بلوطي اللون. كان السيف وغمده مربوطين بحبلين يسميان حبل قربوس السرج وحبل السيف في الجهة اليسرى من السرج، بين موضع فخذ الفارس وشبه الموضع، بحيث إن الغمد كان يشكل انتفاخا طفيفا تحت

الفخذ الايسر للخيال، بينما كان مقبض السيف النحاسي، عند يسار قربوس السرج، كي يستطيع الراكب عند الحاجة امتشاقه بيده اليمنى. وفضلا عن ذلك، كان الضابطان مسلحين كل منهما بمسدس اما الخيالان البسيطان الآخران فكانا مزودين ببندقية قصيرة السبطانة تحمل مع النجاد.

لم يعودوا جنوداً بكل ما للكلمة من معنى، لانهم لم يكن لهم قبل بكل تدريب نظامي، لانهم كانوا جاهلين بما كان عليهم ان يفعلوه، ليس الان فقط لانه ارفعهم رتبة اعني به النقيب لم يتلق اي توجيه (ماعدا التوجيه الخاص ربما بزيادة الانسحاب وهو امر يرقى الى عشية امس احتمالا او الى عشية اول امس، بحيث انه بات من المستحيل ان نعرف هل نقطة الانسجاب هذه لم تكن قد وقعت تحت اقدام العدو (وهذا ما كان يدعيه الحرس او الناس الذين كانوا يسلكون الطريق) وهل ان امر الانسحاب هذا كان يمكن اعتباره، بالتالي، نافذا يجب تطبيقه ولكن ايضا لانه اي النقيب كان يبدو وكأنه لم يعد في وضع يمكنه من اصدارها (اي الاوامر) كما لم تبق له رغبة في ان يطاع، كما ظهر قبل ذلك بقليل عندما كان مراسلان يركبان دراجة نارية ويتبعانه قد اعلنا انهما يرفضان الاستمرار مدة اطول على انه لم يلتفت اليهما كي يسمعهما ولاتظاهر بسحب مسدسه تهديداً لهما، ولكن كيف السبيل الى معرفة ذلك؟

كانت الجياد الخمسة تتقدم بخطى المسرنمين اي المصابين بالتجول الليلي، اربعة منها هجينة يرجع اصلها الى مدينة تارب، نتجت من تزاوج يعرف باسم الانكلو-عربي، اثنان منها غير خصية اما جواد النقيب فخصي والرابعَ الذي يركبه ابسط الخيالة كان في الحقيقة فرسا.

وكلها تتراوح اعمارها بين الست سنوات والاحدى عشرة سنة ولونها كانت، بالنسبة لجواد النقيب كميتا اسمر، وهذا يعني انه كان اسود تقريبا مع خصلة شعر في رأسه. اما جواد الملازم الثاني فقد كان اسمر ضارباً الى الحمرة ذهبياً. والفرس

التي كان يمتطيها الخيال البسيط كانت كميتا مع خطوط في راسها يضاف اليها جوادان محجلان كانا يمشيان في المقدمة وفي المؤخرة جهة اليمين. فجواد الجندي المرافق كان كميتا فاتحا بلون خشب الاكاجو مع غرة بيضاء في مقدمة رأسه اليسرى، والجواد الذي يقاد باليد كان جنبياً اي لايركبه احد مهيأ، لحمل رشاشة، كانت احزمة عنانه مقطوعة (بحد السيف؟) تلامس الارض. كان في الماضي جواد حراثة اسمر ضارباً الى الحمرة او على الاصح اصهب او على الاصح ورديا بلون ثمالة الخمرة، عليه بقع رمادية وذيله رمادي اللون ضارب الى الصفرة متموج قليلا، وعلى رأسه خصلة شعر تنزل الى مناخيره، وشفته العليا بيضاء وردية. كانت اعراف الجياد الخمسة محلوقة حلقا نظاميا وكأنها، باستثناء جواد النقيب، زناجير سوداء مشعرة ومحززة عندما يرفع الجواد رأسه عالياً، بحيث ان جلده ينتفخ عند البروز الاعلى لصدره، مكوناً طيات تتراصف الواحدة فوق الاخرى. كانت ذيولها طويلة حتى العرقوب. كانت احدى الدواب الخمس وهي دابة الملازم الثاني تطرق اي ان رأس مؤخرتها اليسرى كان يصطدم بعقب مقدمتها اليمنى، مع تقدم العدو، فيما كانت مطية المرافق تعرج قليلا عند مؤخرتها اليسرى، من جراء جرح اصاب صحنها، سببته احدى حجارة الصابورة للسكة الحديدية التي كانت قد اضطرت ان تركض فوقها عشية امس الاول، عندما تخلص الجحفل من كمين سابق. لم تنزع السروج ولا العدد من متون الخيل منذ ستة ايام. وهذا مايفسر ظهور الجروح البليغة تحت السرج، كان سببها الاحتكاك وقلة التهوية.

ولكن كيف السبيل الى معرفة ماجرى فعلا. كيف؟ كان الخيالة الاربعة والجياد الخمسة المسرنمة لايحققون تقدماً البتة، وانما كانوا يرفعون ارجلهم وينزلونها في اماكنها، باقين دون حركة تقريبا، على الطريق. والخارطة او سطح الارض الرحب والمروج والغاب تنتقل انتقالا بطيئا تحت اقدامهم، وحولهم،

واوضاع الاسيجة والاحراج والمنازل تتغير تغيرا لايكاد المرء يحس به. وكأني بالرجال الاربعة قد شدوا بعضهم الى بعض بشبكة غير مرئية ومعقدة من القوى والدفعات والجاذبيات او النفور التي تتلاقى وتتلاحم لكي تشكل في محصلتها النهائية، ان صح القول، شكلا متعدد الزوايا يساند كل افراد الجحفل، ويتفكك هو ايضا، بدوره بدون انقطاع، بسبب التغييرات المستمرة التي تحدثها اعراض داخلية وخارجية. وكمثال على ذلك، كان الخيال البسيط راكبا وراء الملازم الثاني، والى يمينه وقد عاين، في وقت من الاوقات، عندما ادار الملازم الثاني رأسه لكي يرد جوابا على النقيب، صفحة وجهه تبدو على شكل صورة تنم عن غرور صاحبها وغبائه، بحيث ان اللامبالاة التي كان يشعر بها الخيال البسيط او التي كان يتصور انه يشعر بها تجاه شخص الملازم الثاني، قبل لحظة، تحولت تحولا لاشعوريا الى عاطفة تناهز العداء والاحتقار، بينما اكتشف، في الوقت نفسه ومن تحت خوذته، الرقبة الفتية بل الصبيانية الرفيعة بل الضعيفة لابل الهزيلة جدا ظاهريا، ثم خفض نظره حتى صدر الشخص فشاهده مع الكتفين والواحها التي تشكو من آلام لاتنتهي، بحيث ان الكراهية التي تولدت عنده قبل قليل، توازنت مقابل عاطفة من الشفقة.

وعليه فقد تحيدت وتعطلت نزعتا الشفقة والكراهية وتولدت بعدهما نزعة عدم الاكتراث. كانت العلاقات القائمة بين الضابطين، دون شك، متباعدة. ولكن كان يشوبها اعتراف وتقدير متبادلان بالمجاملة التي كانت تتيح لهما ان يخوضا حديثا لاقيمة له ولااهمية تافها وثمينا، لاسيما في ذلك الوقت.

لانهما كانا والموت قاب قوسين، حيث كان يشغل بالهما اهتمام واحد بالاناقة وحسن الهندام، وهذا الاهتمام كان يضطرهما الى تجاذب اطراف حديث تافه عار من الاهمية وخال من اية قيمة.

كان النقيب ومرافقه يمشيان، يفصلهما مجال اربعة امتار، ولكن دون ان

يلتفت الاول قط لكي يوجه الكلام الى الثاني، وانه، لو ضربنا صفحا عن الاهتمام البالغ بالاناقة، لكان دون شك فضل تبادل الحديث معه بدلا من الملازم الثاني، ولكن هل من سبيل الى معرفة ماجرى فعلا؟، وذلك نظرا للوشائج القديمة الوثيقة التي كانت قد تكونت بينهما، نتيجة نزوة (او حاجة) كانت قد جعلت النقيب يتزوج فتاة يبلغ عمرها نصف عمره تقريبا. كانت نزوة قد دفعته الى انشاء اصطبل لخيل الطراد والى استخدام فارس سباق، كانت نزوة المرأة الشابة او الاصح نزوة شهوانية منها قد دفعته الى ذلك..

هذا ان لم تكن نزوة فكرية له، اذا نظرنا الى الشخصية الطبيعية البحتة لفارس السباق الذي لم يكن يبدو وكأنه يقدم عرضاً يستأثر بالاهتمام. هذا ان لم نأخذ ايضا بنظر الاعتبار مظهره الخارجي بل سجاياه، كمهارته في ركوب خيل السباق، تلك السجايا التي من شأنها ان تنسينا بنيته الطبيعية التي قلما تغري احدا، لعلها توسمت فيه ولكن كيف السبيل الى معرفة الحقيقة، بما انها رفضت في وقت لاحق اي بعد انتهاء الحرب، ان تعترف بانها اقامت معه علاقات شخصية، ولم تتسقط اخباره بعد ذلك، ولم تحاول اللقاء به مرة اخرى (ولم يحاول ايضا ذلك) بحيث انه لم يكن في كل هذا ذرة من الواقع سوى قصص غامضة ونمائم وتبجحات دفعه الى اختلاقها شابان مراهقان اسيران متمتعان بخيال جامح حرما من النساء او على الاصح انتزعا منه هذه الاقاصيص انتزاعا. اذن، الا اذا لم تكن قد توسمت فيه سوى اداة ذكرية او بريابية..*

كانت الوشائج بين النقيب وفارس السباق القديم واهية. فضلا عن العراقيل

* وبرياب هو اله القوة التناسلية عند اليونان او اداة تعلقها الزوجات اليابانيات عندما يكن في وضع غير ملائم...لاشباع رغباتهن الاساسية الطبيعية او العقلية كالتحدي مثلا او الثأر والانتقام، ليس من الرجل الذي تزوجهن (اشتراهن) والذي كان يدعي اقتناءهن اي اقتناءها حسب، وانما ايضا من طبقة اجتماعية وضد ثقافة وعادات ومبادئ وضغوط تكن لها الحقد والكراهية

التي لايمكن ازالتها من الناحية العملية، العراقيل التي يخلقها بين كائنين بشريين فرق هائل في الامكانيات المادية وفرق في الرتب العسكرية. وقد تفاقمت هذه الموانع، لان كلا منهما كان يستعين بلهجة مختلفة، مما كان يقيم بينهما حاجزا لايمكن تجاوزه الا في حالة واحدة، أي عندما يتعلق الامر بالمشكلة الفنية والانفعالية التي كانت تجمعهما واقصد بها مشكلة الجياد، فحينئذ لايستعملان كلمات مختلفة لتعيين الاشياء نفسها، وانما يستعملان الكلمات نفسها لتعيين اشياء مختلفة. لعل النقيب كان يضمر شيئا من الكراهية او قليلاً من الحسد تجاه الكفاءة التي كان يمتاز بها فارس السباق القديم، عند ركوبه الخيل وغيرها من المخلوقات. كانت تختلج في قلب فارس السباق هذا عواطف طبيعية جدا خالية من أية نية سيئة وذلك لانه ولد، لحسن حظه، في وسط اجتماعي لم يتمكن فكره الذي هو أحد المنتجات الطفيلية للدماغ، نظرا لضيق الوقت وانعدام وسائل التسلية، لم يتمكن من البروز والخروج من القوقعة، وقد بقي محصورا داخل التجويف الدماغي، قادرا على مساعدة الانسان على اداء وظائفه الطبيعية ليس غير، كانت تختلج في صدره عواطف من النوع الذي ينميه فرد متحدر من طبقة كادحة تجاه الشخص الذي يرتبط به ارتباطا ماديا، وبالتالي هرميا اعني بهذه العواطف، قبل كل شيء، بعض الاندفاعات المتعلقة بالاحترام والتعاطف والشفقة التي ربما تولدت في وقت لاحق.

اذن هي عواطف احترام وعواطف ادارية (هذا فيما يتعلق بالمال والسلطة) وعواطف عدم الاكتراث التام. لم يكن للنقيب وجود في نظره الا بمقدار الاجر الذي كان يتقاضاه منه، مقابل ركوب خيله وتدريبها. وقد استطاع، في وقت لاحق، ان يؤهل لاصدار الاوامر له نفسه.

وكل هذه الصلات او العواطف مكتوب عليها ان تزول في الوقت المحدد لها عندما يتخذ النقيب قرارا بحجب الاجر عنه، نتيجة لافلاسه ولتصفية اصطبل

السباق او لاختياره فارس سباق ومدربا آخَرين من ناحية، او نتيجة لنقل الفارس او لجرح يصيبه او لوفاته من ناحية اخرى.

كان الفارس البسيط وفارس السباق القديم متحررين من كل هموم الاناقة واللياقة في التصرف، ولو ان اسباب هذا الانعتاق كانت مختلفة. كانا يتبادلان الحديث عن بعد متزايد، وكانت طبيعة ذلك الحديث مشهدية قصيرة قاب قوسين من عدم التماسك. والسبب في ذلك يعود من ناحية، الى طبع فارس السباق الانعزالي بالسليقة ومن ناحية اخرى، الى حالة الانهاك التي بلغاها. كان الخيال اذن يكتفي بالمشي (او الاحرى كان حصانه يمشي) وراء حصان النقيب الذي بات الخيال يشعر تجاهه بالغيظ الغامض المصدوع والعاجز عن تحقيق شيء.

ولكن كيف السبيل الى معرفة الحقيقة، وماالذي علينا ان نعرفه؟ اذن حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، ساعة تنقطع الطيور عن الشدو، وعندما تنكمش الزهور وتتدلى شبه ذابلة، تحت اشعة الشمس، حيث تفرغ الناس عادة من شرب قهوتها، ويعرض لك باعة الصحف المسائية الوجبة الاولى من عناوينهم البارزة، قبل ان تنزل صحيفة «كل الرياضة» وصحيفة «الوريد» قرع جرس الجولة الاولى يدعو الى الانطلاق. وفيما كنت أمر، قرأت على حائط من الآجر اعلانا قديما مغسولا ممزقا يدعو الى «جولات سباق في لاكابيل». هناك في الشمال، تحب الناس الرهانات ونزالات الديكة ذات الذيول الزاهية الالوان والريش الذي يعطي انعكاسات زرقاء وخضراء، الذي يتطاير متناثرا، وبلد المروج والغاب والمستنقعات الهادئة الذي يقصده صيادو الاسماك ايام الاحاد (ولكن اين كان الصيادون وجموع السباحين والصبيان الذين يتراشقون بالماء وهم لابسون مايوهات مخططة، اين اولئك الشاربون في الحانات الريفية التي تكثر فيها العرازيل والاراجيح للبنات الصغيرات– ولكن اين كن هن وفساتينهن البيضاء وسيقانهن العارية الثرة التي تفتقر الى اللياقة...؟) اولئك الصيادون

الفلمنكيون والفلاهوتيون بوجوههم الشامخة الزاهية، بلد تكثر فيه المساكن التي تشبه الوانها لون دم الثيران ترى على واجهاتها المبنية بالاجر، اعلانات صفراء خاصة بخمر «انيس» و «بيرنو»، كانت الناس تدعي ان الاعلانات عن مشروب الهندباء تحمل معلومات يستفيد منها العدو كالمخططات والخرائط: ربما كنا نستطيع ان نتملص في الغد، والا نقع في الاسر، لو كنا قد حصلنا على واحد من تلك الاعلانات، لو كنا يممنا شطر الشمال بدلا من ان...ولكن كان لزاما علينا ان نعرف الدروب الخالية كدروب الصيادين، وسط الغابات الكبيرة والصغيرة (نندفع ثانية لاهثين اندفاعة خاطفة من سياج الى سياج، نرصد لاهثين قبل ان نجتاز المروج والبقاع) والاشجار المكورة وزوايا الغاب والمقالع ومصانع الآجر والوادي الضيق والسياج المنسوج من الاسلاك الشائكة ومواد الردم والانحدارات والتربة والارض المجردة بأكملها والمرصوفة الخاضعة تماما لسيطرة الانسان بتضاعيفها. وفي خرائط اركان القوات المسلحة تمثل الغابات على شكل بذار منثورة داخل دائرة صغيرة، او هليلات محاطة بنقاط، وكأنها قطعت قبل فترة قصيرة. تنطلق فسائل الاشجار، مكونة اخياسا منقطة حول الجذوع المنشورة عند أصل الشجر (ينبغي صبغها باللون الاصفر الذي يكسو الخشب الذي تم قصه قبل وقت قصير) تكون الجذوع والفروع اكشف وتتراص عند اطراف الغاب وكأنها حاجز غامض يستحيل اقتحامه. كنا نستطيع ان نراها متمددة مشعرة مخضوضرة فوق التلال عند الجنوب.

ولاشك اننا اخذنا ذلك الاتجاه، من اجل التفرج عليها، اعتقادا منا اننا لو بلغناها، ولكن قبل كل شيء، كان علينا ان نجتاز الطريق ثانية، لم يكن يبدو شيء يتحرك عليها، ولكننا مع ذلك تقدمنا مختبئين واندفعنا لكي نجتازها راكضين. وفي الاخر شاهدته وكان لي من الوقت متسع لان اشخصه. ولكني تصورت انه قد اصبح الان نتنا كالجيفة تماما. ولكن هذا حسن جدا. الا فليفسد هنا وليعفن

ولينشر الوباء حوله، الى ان تضطر الارض كلها جمعاء والعالم بأسره لان يسدا منخريهما. ولكن لم يكن قد بقي شخص هناك سوى امرأة هرمة تحمل برميل حليب، تمشي بمحاذاة حائط المصنع توقفت، وكأن شيئا هالها او ربما اثار عندها العجب، عندما نظرت الينا ونحن نجتاز مثل اللصوص.

كان المنظر اشبه بمسرح خال من أي تمثيل. وكأن فرقة التنظيف قد مرت هناك او جمعاً من النهابين او كأن جيش المنتصرين قد مر هناك ولم يترك الا ما وجده ثقيلا جدا او مزعجا جدا يصعب اخذه او ما وجده غير صالح للاستعمال اطلاقا. لم يبق هناك الان حتى الحقيبة الممزقة.

كما اني لم المح القماشة الوردية ولاحتى الذباب. ولكنه بالتأكيد كان يعمل، على قدم وساق، اعني انه كان حول المائدة، يطن، يخرج ويدخل من والى المناخير. ثم درنا ونحن نركض الى زاوية الحائط فلم اعد اراه. وعلى أية حال فقد كان حصانا ميتا، جيفة لاتصلح الا للسلخ لاشك في انه كان يمر مع باعة الخرق البالية وجامعي انقاض الحديد والزبل، بحثاً عن الاجزاء المنسية او التي لم تعد صالحة للاستعمال. الان وقد انصرف الممثلون والجمهور، ابتعد صوت اطلاق المدفع هو ايضا. كان بامكان المرء الان ان يرى الى اليمين، صوب الغرب محرسة عالية ذات قباب في اعالي الريف. ولكن هل من سبيل لان نعرف هل احتلوا المدينة الصغيرة؟ كيف نعرف، كيف نعرف. كان بامكاننا ان نرى اسماءها الطلسمية على لوحات الاشارة والانصاب وهي مكتوبة ايضا بألوان غائمة: «ليبس» جمع جزمة و «كيرميس» اي مهرجان وهينان ونينان وزنجفر وكأنه نظرية حشرات سوداء تطير بمحاذاة الحيطان وتتوارى الله اعلم اين في شقوق الابواب ونخاريب اضيق الامكنة وفي اصغر ثقب، حيث لايفلح صرصر في ان يدخل، حتى لو قص جسمه وسطحه الى اقصى مدى. كان يتوارى ويغمى عليه كلما كان يسمع اطلاقة مدفع يتبعها غيم من الغبار الوسخ لا أحد يعلم لماذا في هذا الجص

وفي هذه المدينة التي لم يبق فيها شيء سوى استعراض النمل المحزن، ونحن الاربعة فوق حصننا التي التهبت حوافرها. ولكن يجب ان نعتقد ان لديهم ذخيرة وعتاد كان عليهم ان يصرفوها – ولعلهم افرغوا ما في مدافعهم في الليل. اما الان فقد صاروا يطلقون النار جزافا تجنبا لعناء اعادة تحميلها في شاحنات الذخيرة. كانت النسوة يحمين الولد الذي خرج من احشائهن، وهن يضممنه الى صدورهن، وينقلن بالات الزغب الاحمر المخزقة التي كان ينتشر فيها الزغب والريش، وهما يسحبان وراءهما احشاء المساكن البيضاء التي كانت تنفتح او كحلزون او كشريط زخرفة منشور ومعلق على الاشجار. ما اسم ذلك القديس الذي رأيته في احدى اللوحات الفنية وهو يتلقى العذاب من جلاديه المفتولي الساعد يلفون امعاءه الكابية الدامية الخارجة من بطنه على خنزيرة مخصصة لرفع الاثقال؟ ورأيت للمرة الثانية، الاعلان نفسه، ولكنه كان يرقى في تاريخه في الاقل الى ماقبل سنة، ولكنه كان يتعلق بسباقات خيل مطقمة ولكن لافارس فوقها والحصان الذي كنت امتطيه لم يكن حصاني، وانما حصان فارس ميت مجهول. لم يكن لهذا دون شك كبير اهمية. غير انني مع ذلك كنت اتحسر على مصباحي الكهربائي الجديد وقطعة لحم الجانبون تلك التي وفقت في العثور عليها يوم امس في بيت يجب ان اقول انه ايضا قد نهب من اعلاه الى اسفله. أقبح بها من حالة، حالة الفارس الذي يذوق الهزيمة ويأتي في المؤخرة، يسبقه المشاة ورجال المدفعية الذين نظفوا كل شيء وقفت ايديهم عليه: كل ماعثرنا عليه لنأكله، منذ ثمانية ايام، كان عجائن الثمار المطبوخة وهي الطعام الوحيد الذي اهملوه. كنا نشرب ونبتلع العجينة مباشرة من الآنية، فيما كان العصير الحلو اللزج يسيل من اشداقنا. كنا نرمي الاناء الذي لم نتناول منه سوى ربعه فنسمع صوت انكساره ونحن على جيادنا، عند حافة الطريق. لم يكن بالامكان اخذه معنا لانه كان سينضح من كل صوب. كنت اتحسر ايضا على

لوازم الزينة والنظافة العائدة لي. كنت أود ان اغتسل وان اتبرد واشعر بالماء يسيل على جسمي. كان الموتى كلهم في حالة من القذارة تتقزز منها النفس....، ولكن ألاّتذهب وتغتسل وانت في زمن الحرب؟ كان مقابل العدل الايسر المشدد بالاحزمة سطل اعتيادي من القماش مطوى ومسطح كمصباح سكان البندقية، كان مخصصا، من حيث المبدأ لسقي الخيل، ولكن هذه السطول افادتنا لاسيما في حلق لحانا. وكلما افكر الان في هذه السطول اعود فأراها ملأى بالماء ومغطاة بغلاف او برقاقة صابونية ضاربة الى الزرقة ومتصدعة، وعلى جدرانها الداخلية الخشنة عناقيد من فقاعات ملتصقة. ومن جهة اليمين، كنت ترى مقصا لقطع الاسلاك الشائكة. لطالما ساءلت نفسي عما كان هذا الميت الاحمق ينقله في هميانه الذي كان منتفخا حتى التصدع، ولكنه دون شك، كان يحمل قميصا وسروالا وسخين وربما رسائل من امرأة كانت تسأله:

هل تحبني؟ ما الذي كانت تريده اكثر من هذا، وانا لم افعل شيئا سوى التفكير بها. ربما كان يحمل جواربه ايضا كانت قد نسجتها له. وعلى اية حال فقد كان قصير القامة. لان الركابين كانا قصيرتين جدا بالنسبة لي فقد كانا يضطران ركبتي على الصعود الى الاعلى وتضطرهما الى الالتصاق بالعدلين بينما كنت متعودا او الاحرى كان ديني وديدني ان اركب بخطوة طويلة مثل القردة أي فرسان السباق.كنت انوي تطويلها منذ ارتقائي على السرج وكنت اكرر مع نفسي انه لابد من تطويلها مسافة ثقب واحد او ثقبين او ثلاثة، ولكن كانت قد انصرفت ساعة بدون ان افعل ذلك، اعتقادا مني انه سوف يعقد العزم بين لحظة واخرى على السير عدوا. وفكرت في نفسي: ياالهي. أهو خير لنا ان ننصرف من هنا ونخرج من هذه المهلكة وبطوننا تمسح التراب؟ لان كل ما كان نفعله هناك هو أننا كنا نتجول تجول النبلاء وكأننا اهداف سهلة. ربما كانت كرامته او عرقه او طبقته او التقاليد التي ورثها تمنعه من ذلك. هذا ان لم يكن بكل بساطة شغف

بالجياد. لانه صار يهمز جواده همزا لاشك مبرحا بغية التخلص من ذلك الكمين ولعله كان يتصور ببساطة ان جواده كان يحتاج الى الراحة حتى لو ان هذه الراحة قد تؤدي بحياته، مثلما راودته قبل فترة قصيرة فكرة اقتياده الى المنهل: واصل اذن اقتياده جواده وهو ماش، لان اجداده علموه وجوب ترك المطية تتنفس قليلا، لاسيما المطية التي يتوقع منها ان تؤدي جهداً عنيفاً. ذلكم هو سبب تقدمنا تقدما ارستقراطيا فروسيا مهيبا على نسق السلاحف. اما هو فقد استمر في الحديث مع ذلك الملازم الاول القصير القامة،وكأن شيئا لم يكن يحكي له عن مأثر في ميادين سباقات الخيل وعن سجايا اللجام المصنوعة من المطاط عند الركوب في سباق.

كان هذا هدفا رائعا للاسبان الذين يتعذر اقتحامهم لانهم كانوا دوما في قمة التمرد والحساسية. يجب علينا ان نؤمن بالمواعظ المبكية التي تلقي بعد تلاوة الانجيل بشأن الاخوة الشاملة وإله العقل والآلهة الفضيلة والاسبان الذين كانوا ينتظرونه في كمين وراء اشجار البلوط الفليني والزيتون. انني اسائل نفسي عن الرائحة وعن النفس اللذين يفوحان من الموت هذه الرائحة التي لم نعد نشمها اليوم فانها رائحة عفونات الكبريت والزيت المحروق والاسلحة السوداء المزيتة كانت تنفر منها النفس وهي تطلق صريراً مدخنا مثل مقلاة نسيتها صاحبتها فوق النار. انها اشبه بنتانة فضلات المائدة ممزوجة بالجص والغبار.

لاشك انه كان يفضل الايقوم بذلك العمل بنفسه، وانه كان يأمل ان يأخذ احدهم على عاتقه مهمة القيام به لا بدلاً منه مجنباً اياه ذلك الوقت المضني، ولكنه لعله كان مايزال يشك في ان العقل او الفضيلة او جامته الصغيرة خانت الامانة، ولعله وجد عند وصوله فقط شيئا كان بمثابة دليل مثل ذلك السائس المختبئ في خزانة الحائط، شيئا الزمه على اتخاذ قرار، شيئا قدم له الادلة التي لايمكن نقضها على ماكان يرفض تصديقه او ربما ماكان شرفه يمنعه من رؤيته اي ماكان مكشوفا امام عينيه، بما ان ايجليزيا نفسه كان يقول عنه انه كان

يتظاهر دائما بانه لم يكن يرى شيئا. وقد روى ايضا ايجليزيا حادثة كاد يباغتهما فيها عندما شاهدها وهي ترتعد من الخوف ومن الرغبة التي لم تشبع – لم يكد يتوفر لها الوقت اللازم لكي تصلح هندامها في الاصطبل اما هو فلم يلق عليها حتى نظرة واحدة وانما راح الى فرسه وانحنى لكي يجس عراقيبها وجل ماقاله كان: «هل تعتقدين ان هذا الدواء المصرف يكفي؟ يخيل اليّ ان العرقرب مايزال متورما. اظن انها تحتاج الى بضع كيات بالنار».

كان يتظاهر دائما بانه لايرى شيئا وكان يفكر وهو على حصانه تفكيراً تافهاً ويتقدم لملاقاة موته الذي كانت اصبعه بدون شك موجهة نحوه. اما انا فقد كنت اتعقب طيفه العظمي الجامد المقوس وهو على سرجه. لم يكن يبدو للمرامي لأول وهلة سوى بقعة لاتزيد على حجم ذبابة، كان شبحاً نحيفا عموديا على قمحة البندقية المصوبة عليه يكبر ويكبر. كان يتقرب فيما كانت عين قاتله الرانية اليه صبورة وابهامه على استراحة البندقية.

كان يرى، ان صح القول، عكس ماكنت اراه وانا عكس ماكان يراه، اعني انا الذي كنت اتبعه والقاتل الذي كان ينظر اليه وهو يتقدم. كنا نمتلك اللغز باكمله (فقد كان القاتل يعرف ماذا سيحل به وانا كنت اعرف ماذا حل به فعلا، اعني الذي حدث قبل الحادثة وبعدها، أو إن شئت كنصفي برتقالة مقسومة يتطابقان تماما) كان يقف هو وسط اللغز جاهلا، او يريد ان يكون جاهلا لما حدث ولما سوف يحدث في وسط الجهل (يقال انه في وسط الاعصار توجد منطقة هادئة تماما) ذاك او عند نقطة الصفر: كان بحاجة الى مرآة متعددة السطوح تمكنه من ان يرى نفسه فيها وشبحه الذي يأخذ في الكبر الى ان يميز الرامي شيئا فشيئا شاراته العسكرية وعرى قميصه واسارير وجهه نفسها ومن ثم تختار قمحة بندقيته انسب مكان في صدره وفيما هو في ذلك، كانت تنتقل سبطانة البندقية تنقلا غير محسوس تتعقب شبحه، وشعاع الشمس يضرب حديدها

الاسود مخترقا سياج الزعرور الذي تفوح منه روائح الربيع. ولكن تراني رأيته فعلا ام ظننت انني رأيته ام كان هذا ضربا من الخيال او الحلم؟ لعلني كنت نائما لم اصح من نومي، لحظة واحدة، وعيناي مفتوحتان في وضح النهار تهددني طقطقة الجياد الخمسة الرتيبة، وهي تدوس على ظلالها لاتمشي بالضبط على وتيرة واحدة بحيث ان صوت الحوافر كان اشبه بخشخشة تتناوب وتتلاحق وتتراكم عناصرها وتندمج مع بعضها احيانا، حتى لكأنك تسمع جوادا واحدا. ثم تتفرق مجددا وتتفكك فتعود على مايبدو الى التسابق بعد ذلك، وهكذا دواليك. كانت الحرب ان صح التعبير عديمة الحركة هادئة حولنا فيما كانت اطلاقات المدفع المتقطعة تضرب في البساتين المقفرة محدثة صوتا اصم تذكاريا فارغا، مثل الباب الذي يتحرك على اثر ضربة الريح في بيت فارغ.

كان المنظر كله غير مأهول خاويا تحت السماء الجامدة، وكان العالم متوقعا متعطلا متفتتا متسلخا ينهار تدريجيا على شكل قطع، مثل عمارة مهجورة لم تعد صالحة للاستعمال اصبحت في ذمة الانحلال الذي هو فعل الزمن البطيء اللاشخصي المدمر.

النهاية

طريق فلاندرا

كلود سيمون الحائز على جائزة نوبل للادب. اديب فرنسي ولد في مدغشقر. كثير الاسفار ـ وقد استقر به المقام في جنوبي فرنسا. من اصدق ممثلي حركة الرواية الحديثة التي ظهرت في فرنسا في الخمسينات. حظي باهتمام بالغ لسعة نظرته التاريخية ولاصالة اسلوبه في الكتابة.

في رواية (طريق فلاندرا) لقي النقيب دي ريكساك مصرعه بيد مظلي الماني في عام ١٩٤٠. ترى هل بحث عن هذه الميتة بمحض اختياره؟ اراد جورج احد ابناء عمه وهو من افراد كتيبته نفسها ان يتقصى الحقيقة. وبمساعدة بلوم السجين السابق في معسكر الاعتقال استجوب ايجليزيا الذي كان مروض خيول في اصطبل دي ريكساك. وبعد الحرب اسفر البحث عن العثور على كورين، ارملة النقيب الشابة. هذه احداث. ولكن طريق فلاندرا تكتسب قيمتها بالاجواء التي خلقتها وبالاسلوب الروائي المتميز والجديد لمؤلفها «كلود سيمون». انها واحدة من اشهر روايات الحرب..

السعر (ديناران)

دار المأمون للترجمة والنشر